جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية اصول الدين بالرياض
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

الحداثة في العالم العربي
دراسة عقدية

بحث أعدّ لنيل درجة الدكتوراة

إعداد
محمد بن عبدالعزيز بن أحمد العلي

إشراف
فضيلة الدكتور ناصر بن عبدالكريم العقل
الاستاذ المشارك بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
في كلية اصول الدين بالرياض

١٤١٤هـ

المجلد ١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله - ﷺ - .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[١].

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾[٢] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ، يُصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾[٣].

أما بعد :

فإن أعظم نعم الله - سبحانه وتعالى - على هذه الأمة أن أنزل

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٢.

(٢) سورة النساء ، الآية ١ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآيتان ٧٠،٧١ .

إليها القرآن الكريم ، وأرسل فيها أفضل خلقه ، وخاتم أنبيائه محمد بن عبدالله - ﷺ - ، وجعلها خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وحفظ لها كتابه وسنة رسوله - ﷺ - .

قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [١] .

فالكتاب والسنة هما أصل هذا الدين ، ومنبعه الصافي ، فلا يستطيع العابثون النيل منهما ، مهما أحدثوا ، أو استوردوا ، من نظريات ، وفلسفات ، وشبهات .

ومن تمام نعمة الله على أمته أن هيأ السلف الصالح ، من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، للقيام بالحق والهدى ، ونشر هذا الدين ، ودعوة الناس وتربيتهم على فهم النصوص الشرعية ، من الكتاب والسنة ، والتمسك بهما ، والاعتصام بما جاء فيهما ، والتحذير مما يخالفهما من الشرك والبدع وسائر الانحرافات .

ومن فضله - سبحانه وتعالى - أنه يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها ، فلله الحمد على فضله وامتنانه .

ومع ذلك فإن أعداء هذا الدين ، من الكفار والمنافقين ، منذ فجر الإسلام ، وإلى يومنا هذا ، يسعون إلى إطفاء نور الله ، والاعتراض على شرعه ، والتشكيك في صلاحيته لكل زمان ومكان .

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ [٢] .

---

(١) سورة الحجر ، الآية ٩ .

(٢) سورة الصف ، الآية ٨ .

وقد ظهر في التأريخ الإسلامي طوائف كثيرة ، تكيد لهذا الدين ، وتحارب أهله ، ومن أولئك اليهود والنصارى ، والمجوس ، والدهرية ، والباطنية ، وغيرهم .

وفي العصور المتأخرة برزت بعض الاتجاهات المحاربة للإسلام، أمثال الشيوعية ، والبعثية ، والقومية ، والعلمانية ، ونحوها .

وفي القرن الرابع عشر الهجري ، نبغ في العالم العربي تيار غريب ، وبرّزته بعض وسائل النشر ، تحت اسم « الحداثة » .

فأصبحنا نقرأ مقالات وقصائد تطالب « بالثورة على التراث »، وضرورة « تجاوز السائد والمألوف » ، والتمرد على « كل ما هو سابق ومعروف » ، وهدم « الماضي الموروث » .

وتنادي تلك المقالات الشعرية والنثرية برفض « المصادر المعرفية القديمة » ، و « خلق مصادر فلسفية حديثة » ، مخالفة للمصادر « السماوية القديمة » ، ومن أبرز معالم تلك الدعوة مناداتها « بالثورة على السياسات العربية، والأوضاع المتخلفة، وأنظمتها الرجعية » ، كما يعبرّ الحداثيون.

كل ذلك يتم تحت شعار ما يسمونه « الحداثة » .

بل وجد من يتكلم باسم الحداثة ؛ قادحاً بذات الله – سبحانه وتعالى – ؛ مستهزءاً برسله – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – ؛ منددا بشرعه القويم .

وكَثُرَت تلك المقالات في الكتب والصحف والمجلات والوسائل الأخرى ، في السنوات المتأخرة أكثر من ذي قبل ، على اختلاف بين تلك الوسائل في التصريح بدعواتها .

والوسائل التي تتبنى الحداثة ، وتنشر للحداثيين كثيرة ، بينما لا نكاد نجد كتابات علمية عقدية تدرس الحداثة ، وتبّينها على حقيقتها ، وتكشف أهدافها إلا نادراً .

ولهذا أصبح بعض الناس في حيرة من أمر الحداثة،ما حقيقتها وما غاياتها ، وهل هي حسنة أو سيئة ، وهل هي عقدية فكرية أو أدبية ولغوية فقط ، وهل تتعلق بالمضامين الفكرية أو بالأشكال ، كما يدّعي بعض الحداثيين ، في بعض البلاد العربية .

ومن هنا جاءت أهمية دراسة « الحداثة ، في العالم العربي ، دراسة عقدية » ؛ لتكشف عن ما هية الحداثة .

ومن ثَمّ فقد رأيت أن يكون بحثي لنيل درجة الدكتوراة ، هو « الحداثة في العالم العربي ، دراسة عقدية » ، أتتبع فيه أقوال الحداثيين وتنظيراتهم ؛ لأصل إلى حقيقة الحداثة من أقوال منظريها ودعاتها ؛ متجرداً عن الأحكام المسبقة ؛ ولهذا فإني لا أحكم على الحداثة من خارجها ، أو من أقوال مخالفيها ، وإنما حرصت على أن تكون جميع الشواهد والأقوال لما أذكره من تصريحات الحداثيين أنفسهم ، كما سيتبين من خلال هذا البحث إن شاء الله .

أهمية الموضوع وأسباب اختياره

مما سبق تتبين أهمية البحث في موضوع « الحداثة » ؛ ولهذا وقع اختياري عليه .

وهنا أجمل أهميته وأسباب اختياره فيما يلي :

الأول : كثرة الوسائل والمؤسسات التي تعنى بنشر الحداثة ، والتنظير لها ، والدعوة إليها في العالم العربي ، مما يستدعي ضرورة مقاومة هذا الزحف ، وتبصير الأمة به .

الثاني: حرص الحداثيين على نشرالحداثة ومبادئها في العالم العربي، وبذلهم في ذلك جهوداً عظيمة ، فلا بد من توضيح هذا الأمر؛ سعياً في مقاومته.

الثالث: تغلغل الحداثيين في كثير من المؤسسات العامة والخاصة في العالم العربي ، وتفانيهم في استغلال مراكزهم في الدعوة الحداثية .

الرابع : ادعاء بعض الحداثيين في بعض الدول العربية بخاصة، أن الحداثة خاصة بالأشكال الأدبية واللغوية ، ولا علاقة لها بالعقيدة والأفكار، فلزم الكشف عن ماهية الحداثة .

الخامس: جَهْلُ كثير من الناس بالحداثة ، واستغلال هذا الجهل من قِبَل الحداثيين ، فبثوا أفكارهم الحداثية بين صفوف الناس على مختلف أعمارهم وأعمالهم وتعلمهم ، فلزم توضيح الحقائق ، وكشف تلك الأفكار .

السادس: تذبذب مواقف بعض المثقفين من الحداثة، ومن ثَمَّ تحيّروا في الحكم عليها بسبب عدم وجود دراسةعقدية علمية تظهر حقيقة الحداثة ، ومما زاد من ذلك التذبذب تستر الحداثيين بالرمزية والغموض ؛ هروباً من المواجهة.

السابع : اختفاء كثير من أصحاب الاتجاهات الماركسية والبعثية والعلمانية ، ونحو ذلك خلف شعار التحديث والحداثة ، وبخاصة بعد كشف زيف تلك الاتجاهات ، لا سيما في الدول التي يخافون فيها على أنفسهم وثورتهم.

الثامن : معرفة موقف الحداثة من مصادر، الدين والعقيدة ، وعلوم الشريعة ، واللغة العربية ، والكشف عن ذلك لمقاومته .

التاسع: معرفة جذور الحداثة ومصادرها، والأسس التي تقوم عليها ، وفي هذا أهم السبل للوصول إلى حقيقتها .

العاشر : ظهور دعوات منحرفة كثيرة تنتسب إلى الحداثة والتحديث ، كالدعوة إلى تحرير المرأة ، والمطالبة بالديموقراطية ، والمناداة بالثورة على الأنظمة العربية ، فلزم كشف ذلك حماية للأمة .

الحادي عشر: انخداع كثير من الشباب بالحداثيين ، وتعلقهم بأفكارهم ، وحرص الحداثيين على تكثير أتباعهم من الشباب ، وذلك بتشجيعهم بأساليب ماكرة ، مع جهل أولئك الشباب بما يسحبون إليه تدريجياً من أفكار ثورية ، وهذا ما تبين لي من خلال متابعات كثيرة ، فلزم كشف الحداثة على حقيقتها ؛ لإنقاذ شباب الأمة من شرورها.

الثاني عشر : ومن أسباب اختياري لهذا الموضوع أنه حسب علمي لم يتناوله أحد بدراسة علمية عقدية كافية ، ولم أقف إلا على كتيّبات صغيرة عالجت بعض المسائل ، دون الكثير منها .

وهي جهود طيبة ومشكورة ، ولكنها لا تفي بالمطلوب .

الثالث عشر : ولعل في كشف ذلك كله حماية لعقيدة الأمة وأخلاقها، وأمنها ، ووحدتها ، وهذه البلاد بخاصة .

خطة البحث والمنهج المتبع فيه

خطة البحث

قسمت هذا البحث «الحداثة في العالم العربي- دراسة عقدية» إلى مقدمة ،وتمهيد،وثلاثة أبواب،ثم خاتمة ، وبيان ذلك كما يلي :

المقدمة :

وتشتمل على ثلاثة أمور :

١- التعريف بالموضوع وبيان أهميته .

٢- أسباب اختياره .

٣- خطة البحث والمنهج المتبع فيه .

التمهيد :

ويشمل ثلاثة مطالب

المطلب الأول: تعريف بالمصطلحات المتعلقة بالموضوع .

المطلب الثاني: التجديد الصحيح وضوابطه .

المطلب الثالث: التجديد المنحرف وخطورته .

أما **الباب الأول** ، فالحديث فيه عن مفهوم الحداثة ونشأتها ومصادرها، ويشمل ثلاثة فصول .

الفصل الأول منها : أتحدث فيه عن مفهوم الحداثة، وقد حرصت على ذكر مفهومها عند أربابها الغربيين ، ثم أتبعته ببيان مفهومها عند أصحابها في العالم العربي .

والفصل الثاني : أتحدث فيه عن جذورها ومصادرها الفكرية والفلسفية ، فأتحدث أولاً عن الفلسفات الغربية التي أفرزت الحداثة هناك ،

ثم أتحدث عن مصادر الحداثة في العالم العربي ، وهي الحداثة الغربية وما صدرت عنه من فلسفات ، وكذا الماركسية والوجودية ؛ فإنهما من أهم مصادر الحداثة ، ثم أذكر المصدر الباطني ، الذي تمتح منه كثيراً من أفكارها .

الفصل الثالث : أبحث فيه عن نشأة الحداثة وتاريخها ، فأتحدث أولاً عن تاريخ ومكان نشأتها في الغرب ، ثم أفصل الحديث عن نشأتها وتاريخها في العالم العربي .

وأما **الباب الثاني** ، فالحديث فيه عن اتجاهات الحداثة، ودعاتها ، ووسائل نشرها ، **وفيه ثلاثة فصول** :

الفصل الأول منها : أبحث فيه عن اتجاهات الحداثة، فأعرّف بالاتجاه وأتباعه في الغرب إجمالاً ،ثم أتحدث عن أتباعه في العالم العربي.

والفصل الثاني : أذكر فيه دعاة الحداثة ومواقفهم ، وقد قسمته إلى قسمين ، القسم الأول أتحدث فيه عن دعاة الحداثة ومنظريها، والقسم الثاني أتحدث فيه عن بعض الأتباع والغوغاء ، الذين كثرت مقالاتهم؛ تأييداً للحداثة ، ودعاية لها ، وليسوا في مكانتهم الحداثية كالقسم الأول .

والفصل الثالث: أبرز فيه أهم وسائل نشر الحداثة في العالم العربي ، كالصحف والمجلات والكتب والأندية والمؤتمرات ، والمهرجانات ، ونحو ذلك .

وأما **الباب الثالث** ، فالحديث فيه عن أسس الحداثة وآثارها، ويشتمل على أربعة فصول .

الفصل الأول منها : أبيّن فيه قولهم بالصراع بين القديم والجديد،

والفصل الثاني : أفصِّل فيه قولهم بضرورة التحول والتطور؛ مبيناً الأمور التي يرون ضرورة تغييرها وتحويلها .

والفصل الثالث : أتحدث فيه عن قولهم برفض ما هو قديم وثابت ، مبيناً الأمور التي يرفضونها ، والأمور التي يؤمنون بها ، بل يعدونها من تراثهم الأصيل .

وفي هذا الفصل ثلاثة مطالب:

المطلب الأول – أبين فيه رفضهم مصادر الدين والعقيدة .

المطلب الثاني– أتناول فيه رفضهم علوم الشريعة .

المطلب الثالث – أتحدث فيه عن رفضهم اللغة العربية .

والفصل الرابع : أدرس فيه آثار انتشار المفاهيم الحداثية في العالم الإسلامي ، ووسائل مقاومتها .

الخاتمة :

ثم أختم البحث بخاتمة أتحدث فيها عن أهم النتائج ، التي توصلت إليها خلال بحث هذا الموضوع .

المنهج المتبع في هذا البحث

من الأمور التي اتبعتها في إعداد هذ البحث ، ورأيت أنه من المفيد ذكرها هنا ما يلي :

١- اعتمدت في هذا البحث على كتب وكتابات الحداثيين أنفسهم ، ولم أنقل في الحكم على الحداثة من أقوال مخالفيها ، بل إن هناك من الماركسيين والبعثيين والعلمانيين ، ونحوهم، من يوافق الحداثة في بعض مبادئها ومناهجها ، ومع ذلك لا أستشهد بكلامه على الحداثة .

٢- حرصت أن تكون النقولات والشواهدمن أقوال الحداثيين في أكثر الدول العربية ، فلم أقتصر على أقوال بعضهم في بعض الدول فقط، مع التركيز على أقوال مؤسسي الحداثة ومنظريها الكبار .

٣- حرصت على كثرة الشواهد من أقوالهم ؛ لأنها بمثابة وثائق يدانون بها ، فلعل القارئ لا يستكثربعض الشواهد في بعض المسائل.

٤- عند ذكر قول أحد الحداثيين ، حرصت على وصفه بالحداثة ، وذكر بلده ، وقد أذكر أحياناً وصفاً ثالثاً له يدل على اتجاهه داخل الحداثة ، متى ما رأيت ذلك مفيداً ، مثال ذلك :

قال الحداثي الماركسي المغربي ....، وهكذا ، وقد أترك ذكر بلده أحياناً ، إذا لم أتحقق من بلده الأصلي ، كما أني قد أكرر ذكر بلده في أكثر من موضع ، حسب الفائدة .

٥- أحد فصول هذا البحث بعنوان : دعاة الحداثة ومواقفهم ، ترجمت فيه لرؤوسهم، ومن لهم أثر كبير في مسيرة تيار الحداثة ، بشكل أو بآخر .

كما أني ذكرت ترجمة من أرى ضرورة ترجمته لإزالة لبس أو لتوضيح غامض .

أما أكثر الحداثيين فلم أترجم لهم ؛ لأنهم معاصرون ، ولا أرى فائدة لذكر ترجمته ، وبخاصة أني اجتهد في ذكر بلده عند نقل قوله ، لا سيما وأن كثيراً منهم قد لا تتوفر معلومات كافية عن ترجمته ؛ لحداثة السن وغير ذلك .

كما أن كثيراً منهم أتباع ورعاع لا أرى العناية بترجمته والحديث عنه .

٦- أما النصوص المقتبسة فقد قمت بعزوها إلى مصادرها أو مراجعها ، وأشرت إلى اسم الكتاب والجزء - إن وجد - ورقم الصفحة ، في الحاشية .

أما المعلومات الأخرى عن المصدر كاسم المؤلف ، ورقم الطبعة، وتأريخها ، ودارالنشر ، ومكانها ؛ فقد أجلته إلى فهرس ثبت المصادر والمراجع ، في آخر البحث ؛ خشية التكرار ؛ وتحاشياً لإثقال الحواشي .

وفي هذا المقام يطيب لي أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية والقائمين عليها ، وأخص بالشكر فضيلة عميد كلية أصول الدين ووكيليه ، والمسؤولين في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة ، على ما قاموا به نحو طلابهم وحرصوا على تقديم كل ما يعينهم في سبيل طلب العلم .

كما أخص بالشكر المشرف على هذا البحث فضيلة شيخي الدكتور ناصر بن عبدالكريم العقل ، الذي بذل وسعه في التوجيه، وكان نعم القدوة في المعاملة والتربية والتعليم حتى مَنّ الله علينا باتمام هذا البحث .

وأخيراً .. بهذا الجهد المتواضع لا أدعي أني قد وفيت الموضوع حقه ، ولكن حسبي أني لم أدّخر في سبيل ذلك وسعا ؛ فإن وفقت إلى ما هو الحق والصواب ، فذلك هو مقصدي وغاية مناي ، وأحمد الله على فضله ومنّه وأستغفره من كل خطأ وزلل .

التمهيد

المطلب الأول – تعريف بالمصطلحات المتعلقة بالموضوع .
المطلب الثاني- التجديد الصحيح وضوابطة .
المطلب الثالث- التجديد المنحرف وخطورته .

المطلب الأول :

تعريف بالمصطلحات المتعلقة بالموضوع

المصطلحات المتعلقة بموضوع الحداثة كثيرة ، منها ما هو واضح المعنى فلا يحتاج إلى مزيد توضيح ، ومنها ما يتبين معناه وحقيقته أثناء الحديث عنه في البحث في مواضع ؛ ولهذا لايحتاج إلى ذكره في هذا التمهيد .

ومن تلك المصطلحات الحداثية ما رأيت من ضرورة عرضه في هذا التمهيد وشرحه وتوضيحه ؛ ليكون القاريء على بينة من مرادهم من هذا المصطلح إذا ورد في كتاباتهم .

وقد حرصت على ذكر المعنى الشرعي واللغوي للمصطلح ، ثمَّ أذكر معناه عند الحداثيين .

والمصطلحات التي بينتها هنا هي :

التراث ، والتحديث ، والتجديد ، والعصرية ، والتنوير ، والإبداع ، والبنيوية .

هذه أهم المصطلحات،والتي رأيت ضرورة بيانها في هذا المقام.

١- التراث :

- التراث في اللغة :

التراث من وَرِث يَرِث إرثا ، فأصل الهمزة هنا واو .

والإرث من الشيء : البقية من أصله ، والجمع إراث .

والإرث : الأصل ، هو في إرث صدقٍ، أي في أصل صدقٍ .

ويقال : هو على إرث من كذا، أي على أمر قديم توارثه الآخِرُ عن الأول .

ذكر ذلك ابن منظور والفيروز آبادي [(١)].

ونقل ابن منظور عن ابن الأعرابي قوله : « الإرْثُ في الحسب ، والورث في المال » ، كما أن ابن منظور نفسه أشار إلى أن الميراث يشمل إرث المال ، وإرث الملّة .

ونقل ابن منظور أيضاً عن ابن الأعرابي وابن سيده أن الوِرْث والوَرْث والإرْث والوِرَاث والإرَاث والتُّراث واحد ، وهو ما وُرِث ، ونقل عن الجوهري قوله : إن التراث أصل التاء فيه واو [(٢)].

وقال ابن منظور :

« وقيل الوِرث والميراثُ في المال ، والإرْثُ في الحسب ...، والتُّراثُ ما يخلفه الرجل لورثته ، والتاء فيه بدل من الواو ... ، وأورثه الشيء أعقبه إياه ، وأورثه المرض ضعفاً ، والحزن هماً كذلك ...، وكله على الاستعارة والتشبيه بوراثة المال والمجد » [(٣)].

---

(١) انظر :لسان العرب ١/٤٤ ، والقاموس المحيط ١/١٦٧.

(٢) انظر: لسان العرب ١/٤٤ و ٣/٩٠٧ .

(٣) المصدر السابق ٣/٩٠٧ .

مما سبق يتبين أن التراث هو ما يخلفه الرجل لورثته ، ويدخل في ذلك المجد والحسب والدين والمال ، وكل ما أعقبه الأول للآخرِ فهو تراث .

وعلى هذا فكل ماجاءنا عمن قبلنا من ثقافة وعلم ودين فهو تراث.

– التراث في الشرع :

ورد لفظ (التراث) ، وكذلك مشتقات الفعل وَرِث في كثير من النصوص الشرعية من الكتاب والسنة .

ولتلك الألفاظ معان منها :

أولاً – إرث المال ، وهذا كثير في القرآن والسنة ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث... ﴾ [١] ، وأمثال ذلك .

وقوله – ﷺ – «« لا نورث ما تركناه صدقة »» [٢].

فإن المراد هنا إرث المال .

ثانياً – إرث النبوة والعلم والدين .

ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا ﴾.[٣]

وقوله تعالى ﴿ وورث سليمان داود ﴾ [٤].

---

(١) سورة النساء ، الآية ١١ .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب فرض الخمس ، باب (١) فرض الخمس ٤٢/٤ ، ومسلم كتاب الجهاد والسير باب (١٥) حكم الفيء ح ١٧٥٧ ، ١٣٧٨/٢ .

(٣) سورة مريم ، الآية ٦ .

(٤) سورة النمل ، الآية ١٦ .

ثالثاً – وقد يطلق التراث على إرث العلم والدين ، أي من غير نبوة، وهذا قريب من المعنى الثاني .

ومن أدلته قوله تعالى:﴿ **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب**﴾[١].

وقوله – ﷺ – : «« **العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم ...** »»[٢].

قال محمد الأمين الشنقيطي :

« معنى قوله ﴿ خفت الموالي ﴾ أي خفت أقاربي وبني عمي وعصبتي أن يضيعوا الدين بعدي، ولا يقوموا لله بدينه حق القيام ، فارزقني ولداً يقوم بعدي بالدين حق القيام .

وبهذا التفسير تعلم أن معنى قوله ﴿يرثني ﴾ أنه إرث علم ونبوة ، ودعوة إلى الله والقيام بدينه ، لا إرث مال ، ويدل على ذلك أمران :

أحدهما – قوله ﴿ ويرث من آل يعقوب ﴾ ومعلوم أن آل يعقوب أنقرضوا من زمان فلا يورث عنهم إلا العلم والنبوة والدين .

والأمر الثاني – ما جاء من الأدلة على أن الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – لا يورث عنهم المال ، وإنما يورث عنهم العلم والدين ... .

وبهذاالذي قررنا تعلم أن قوله هنا﴿ **يرثني ويرث من آل يعقوب** ﴾

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٦٩ .

(٢) رواه أبو داود في سننه ، كتاب العلم باب (١) الحث على طلب العلم ح ٣٦٤١ ، ٥٨/٤ ،والترمذي ، كتاب العلم باب (١٩) ما جاء في فضل الفقه على العبادة ح ٢٦٨٢ ، ٤٨/٥ ، ٤٩ والإمام أحمد في مسنده ١٩٦/٥ .

يعني وراثة العلم والدين لا المال ، وكذلك قوله ﴿ وورث سليمان داود﴾ الآية ، فتلك الوراثة أيضاً وراثة علم ودين .

والوراثة قد تطلق في الكتاب والسنة على وراثة العلم والدين ، كقوله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذي اصطفينا من عبادنا ﴾ [١] الآية ، وقوله :﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب﴾ [٢]، وقوله:﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ﴾ الآية ، إلى غير ذلك من الآيات.

ومن السنة الواردة في ذلك ما رواه أبو الدرداء – رضي الله عنه ، عن النبي – ﷺ – أنه قال : «« العلماء ورثة الأنبياء ...»» ...» [٣].

رابعاً – وجاء أيضاً في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ [٤] ، وقوله تعالى :

﴿ أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ [٥]، وقوله:﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ [٦].

قال الشنقيطي :

« ومعنى إيراثهم الجنة الإنعام عليهم بالخلود فيها في أكمل

---

(١) سورة فاطر ، الآية ٣٢.

(٢) سورة الشورى ، الآية ١٤.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢٠٦/٤، ٢٠٨، ٢٠٩ .

(٤) سورة مريم ، الآية ٦٣.

(٥) سورة المؤمنون ، الآية ١١.

(٦) سورة الأعراف ، الآية ٤٣.

نعـيم وسـرور ...؛ لأن أهل الجنة يرثون من الجنة منازلهم المعـدة لهم بأعمالهم وتقواهم، كما قد قال تعالى :﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ ...»[١] .

خامساً – وكذلك جاء قوله تعالى:﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ [٢]، وقوله:﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون﴾ [٣].

و« معنى قوله جل وعلا في هذه الآية أنه يرث الأرض ومن عليها أنه يميت جميع الخلائق الساكنين بالأرض ، ويبقى هو جل وعلا ؛ لأنه الحي الذي لا يموت ، ثم يرجعون إليه يوم القيامه »[٤].

والخلاصة أن كلمة (التراث) في اللغة العربية ، وفي الكتاب والسنة ، تعني الميراث ، أي كل ما يخلفه الأول للآخر من مال أو علم ودين ونحو ذلك .

فالتراث يشمل الدين ومصادره ، وما جاء عنها ، وكذلك المال ونحوه ، ويشمل أيضاً أقوال المفسرين والشارحين والعلماء ، وجميع الثقافات السابقة .

فالتراث الإسلامي ، إذن ، هو ما ورثناه من عقيدة وشريعة وقيم وآداب وصناعات وسائر المنجزات الأخرى المعنوية والمادية التي ورثناها

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢٤١/٤، ٢٤٢.

(٢) سورة مريم ، الآية ٤٠.

(٣) سورة الحجر ، الآية ٢٣.

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢٨٢/٤.

عن أسلافنا في تأريخنا الإسلامي .

وعندما نتبين هذا التعريف الشامل للتراث ؛ فإن النظرة إليه والتعامل معه لن يكون واحداً ؛ إذ الوحي الإلهي لا يقبل الانتقاء والاختيار منه، أو محاولة تطويعه للواقع ولمفهومات العصر، أو تقديم غيره عليه ، ولهذا حذر الله سبحانه وتعالى من محاولة الانتقاء والاختيار، بل يجب التسليم والاستسلام لنصوص الوحي من القرآن والسنة دون جدال أو مخالفة .

قال تعالى : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ﴾[1].

وقال تعالى :﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾[2].

وقوله :﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ﴾[3].

ونحو ذلك من النصوص الشرعية الكثيرة .

وبالتالي فإن الموقف من التراث فيه تفصيل ؛ فإن أريد به الكتاب والسنة وما جاء عنهما، أو ما أجمع عليه العلماء ، فهذايجب قبوله والعمل به في كل زمان ومكان ، وتُخضع جميع الأمور ومناحي الحياة له ؛ وإن أريد به الثقافات العامة وأقوال الناس ومنجزاتهم ، فهذه تُعرض على

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٨٥ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٦٥ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٣٦.

الشرع الحنيف فما وافقه يقبل وما خالفه يرد ويرفض .

- التراث عند الحداثيين :

يكثر الحداثيون من استعمال كلمة « التراث » ، فينادون تارة «بالثورة على التراث» ، وتارة برفض « التراث » والتمرد عليه ، وتارة ثالثة يدعون إلى « تجاوز التراث وتخطيه » ، ورابعة إلى إخضاع « التراث » كله للمناهج الوضعية والدراسات العقلية ، وهكذا ... إلخ .

فما هو « التراث » الذي يعنونه بحداثتهم ، في العالم العربي ؟

وما هو مصطلح « التراث » في مذهبهم ؟

إنهم يعنون جميع ما ورثه العربي المسلم عن أسلافه من مصادر التلقي ، الكتاب والسنة ، وما جاء فيهما من عقيدة وتشريع ، وكذلك أقوال الصحابة والتابعين وأئمة أهل السنة والجماعة .

وكذلك اللغة العربية وآدابها ، والتأريخ الإسلامي، ونحو ذلك .

وهذا التراث هو الذي يثورون عليه ، ويرفضونه ، ويدعون إلى تجاوزه .

ويدخلون ضمن التراث العربي الإسلامي الفلسفات والفرق المنحرفة التي ظهرت في تأريخ المسلمين ، وبخاصة الباطنية والصوفية والقرامطة والخوارج ، وكل الحركات الثورية العابثة ، إلا أن هذا التراث هو التراث الحق الذي يجب إظهاره والمحافظة عليه في مذهبهم ، بل قد يعدونه تراثاً حداثياً لهم ، كما سيأتي بيان ذلك في ثنايا البحث إن شاء الله .

فالحداثيون العرب ، والمنتسبون إلى الإسلام عندما يدعون إلى التمرد على التراث أو المألوف والمعروف ؛ فإنما يعنون التراث الإسلامي الحق ، الذي سبق ذكره قبل قليل، وهو ما قد يعبرون عنه بلفظ « مصادر

المعرفة » أي مصادر الدين والفكر ، وما جاء به الإسلام وما قرره أئمة المسلمين من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان .

يقول الحداثي السوري النصيري أدونيس :

« إن التراث العربي الإسلامي هو الشعر الجاهلي ، والقرآن ، والحديث ، أي هو هذه الأصول التي ورّثت للجميع ، والتي لا يختلف على أصوليتها ...» [١].

ويقول الحداثي المغربي محمد عابد الجابري :

«إن التراث بمعنى الموروث الثقافي والفكري والديني والأدبي والفني ، وهو المضمون الذي تحمله الكلمة داخل خطابنا العربي المعاصر ، ملفوفاً في بطانة وجدانية أيديولوجية ... .

إن مفهوم التراث كما نتداوله اليوم إنما يجد إطاره المرجعي داخل الفكر العربي المعاصر ومفاهيمه الخاصة ، وليس خارجها » [٢].

ويعرّف الجابري - أيضاً - التراث بأنه «التركة الفكرية والروحية... إنه العقيدة والشريعة ، واللغة والأدب ، والعقل والذهنية ، والحنين والتطلعات ، وبعبارة أخرى إنه في آن واحد :

المعرفي والأيديولوجي ، وأساسهما العقلي ، وبطانتهما الوجدانية ، في الثقافة العربية الإسلامية » [٣].

وبهذه التعريفات - وغيرها كثير - يبطل ادعاء من يتستر ،

---

(١) ها أنت أيها الوقت ص ٥٧ ، وانظر ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) التراث والحداثة دراسات ومناقشات ص ٢٣ ، ٢٤.

(٣) المصدر السابق ص ٢٤ ، وانظر ص ٤٥ - ٤٨.

ويختفي خلف شعارات الأدب والرمزية والغموض ، ونحوها ، فيقول -خوفاً وجبناً، ومرحلية في العمل الحداثي - بأن المراد بالتراث هو التراث الأدبي والأوزان والقوافي ونحو ذلك فقط [١].

والحق أن مرادهم بالتراث الذي يسعون إلى إلغائه هو الإسلام، الدين الحق كما جاء في الكتاب والسنة ، كما قرر ذلك أدونيس والجابري ، وغيرهما كثير ، سيأتي أقوالهم خلال صفحات هذا البحث وبخاصة الفصل الثالث من الباب الثالث .

ولهذا يشترط الحداثيون للحداثة الحرية ، في انتقاء ما يصلح لهم في التراث من حركات ثورية وباطنية وفلسفية ، يقول صلاح فضل :

«لعل أبرز شروط الحداثة ، التي تحدد مدى إفادتنا هي :

الحرية ....، أما الحرية فلا تقتصرعلى مفهومها النظري المجرد؛ وإنما هي الحرية الساخنة ، المشتبكة في صراع واقعي من الزمان والمكان ، الحرية تجاه الماضي ، وتجاه الآخرين ، بما تقتضيه من انتقاء من التراث ، دون تعصب له ...» [٢].

ثم تأمل قول أدونيس :

« يجب أن نميز في التراث بين مستويين : الغور والسطح .

السطح هنا يمثل الأفكار والمواقف والأشكال .

أما الغور فيمثل التفجر ، التطلع ، التغير ، الثورة ؛لذلك ليست

---

(١) ولو فرضنا -جدلاً - أن مرادهم الثورة على التراث الأدبي واللغوي ؛ فإنه لا يُسلَّم لهم بذلك .

(٢) مجلة الأسبوع العربي ١٩٨٨/٩/٢٦م ص ٦٨ .

مسألة الغور أن تتجاوزه ، بل أن ننصهر فيه .

الشاعر الجديد ، إذن ، منغرس في تراثه ، أي في الغور ، لكنه في الوقت ذاته منفصل عنه ، إنه متأصل ، لكنه ممدود في جميع الآفاق »[1].

ثم إن الحداثيين يرون أن التراث العالمي وحدة متكاملة ، يتمم بعضه بعضاً ، فالحضارات السابقة ، والثقافات السالفة ، وكل ما أنتجه السابقون على عصرنا في كل زمان ومكان تراث لنا ، يجب أن نتفاعل معه ولا نرد منه إلا ما يخالف أصول الحداثة ، فيجب - عندهم - المحافظة على التراث الوثني ومناهجه في التربية والآداب ، ونحوذلك ، إلا الأديان السماوية الحقة فهذه لا تقبل عندهم ؛ لأن مصدرها غيبي سماوي ، وليس إنسانياً أرضياً ، فالإنسان هو مصدر القيم عند الحداثيين [2].

ويقول صالح جواد الطعمة « من طبيعة الحداثة أن تكون في علاقة تضاد مع الماضي ، أو التراث ، غير أن هذا التضاد يتفاوت حدة وعنفاً في مواقف الحداثيين »[3].

ثم تأمل قول أدنيس :

« نحن العرب ننتمي... إلى ثقافة عريقة ، تعود في جذورها إلى أكثر من خمسة آلاف سنة، وكان تجليها الأخير في اللغة العربية » [4].

ولهذا قال الحداثي المصري علي البطل :

---

(١) زمن الشعرص ٢٥٠ ، ٢٥١.

(٢) انظر :المصدر السابق ص ٤٠ ، ٤٢ ، ٢٢٨ ، والثابت والمتحول ٣/٢٣٥ .

(٣) مجلة فصول مجلد ٤ ، ع ٤، ١٩٨٤م، ص ١٤.

(٤) مجلة الشروق ع١١ ، ١٧ -١٤١٢/١٢/٢٣هـ، ص ٤٦ .

« نريد أن نضرب صفحاً عن استخدام هذا المصطلح المضلل {الشعر الجاهلي}، مستبدلين به مصطلحاً آخر هو(مرحلة ما قبل الإسلام)؛ وإن كان أقل منه جاذبية وبريقاً ، فمصطلح الجاهلية قد ارتبط بفكرة سائدة ، وغير حقيقية ، ترى في هذه الفترة من حياة العرب إظلاماً تاماً في كل نواحي الحياة ، فهي في الجهل والجهالة العمياء . وكثيراً مايؤكد هذا المعنى في قولهم (جاهلية جهلاء ، وضلالة عمياء) ، على حين أن كان للعرب حضارتهم المتطورة قبل الإسلام بزمن طويل .

فالتسمية بالجاهلية تسمية دينية ، قصد بها التنفير من هذا العهد وآثاره، وليست تسمية علمية ، ومن الطبيعي أن يسمي أهل كل دين الفترة السابقة عليه بهذا الاسم المنفر ... »[1].

---

(١) الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ص ٢٣.

٢- التحديث :

- التحديث لغة :

الحديثُ نقيض القديم ، والحُدُوث نقيض القُدْمة .

حدث الشيء يحدثُ حدوثاً وحداثة ، وأحدثه هو ، فهو محدث وحديث ، وكذلك استحدثه.

ولا يقال حَدُث بالضم إلا مع قَدُم .

والحُدُوثُ :كون الشيء لم يكن وأحدثه الله فحدث ، وحدث أمر أي وقع.

ومحدثات الأمور ما ابتدعه أهل الأهواء من الأشياء التي كان السلف الصالح على غيرها ، جمع مُحْدَثة بالفتح ، وهي ما لم يكن معروفاً في كتاب ولاسنة ولا إجماع .

والحدث:الأمر الحادث المنكر الذي ليس بمعتاد ، ولا معروف في السنة.

والمُحْدِثُ يروى بكسر الدال وفتحها ، فمعنى الكسر من نصر جانياً وآواه وأجاره من خصمه ، وحال بينه وبين أن يقتص منه ، وبالفتح هو الأمر المبتدع نَفْسُه ، ويكون معنى الإيواء فيه الرضابه والصبر عليه ؛ فإنه إذا رضي بالبدعة ، وأقر فاعلها ، ولم ينكرها عليه فقد آواه .

واستحدثت خبرا : أي وجدت خبراً جديداً .

وكان ذلك في حدثان أمر كذا : أي في حدوثه .

وأخذ الأمر بحِدْثانِه وحَدَاثته : أي بأوله وابتدائه.

وحداثة السن : الشباب وأول العمر .

وحَدَثانُ الدهر وحوادثه: نُوَبُه وما يَحْدُثُ ، واحدها حادِثٌ ، وكذلك أحداثه، واحدها حدثٌ .

والأحداث : الأمطار الحادثة في أول السنة .

والحديث : الجديد من الأشياء .

والحديث : الخبر يأتي على القليل والكثير ، والجمع أحاديث .

والحديث :ما يحدّث به المحدث تحديثاً .

ومحادثة السيف : جلاؤه ، وأحدث الرجل سيفه وحادثه إذا جلاه.

والحَدَثُ : الإبداء .

ويقال : أحدث الرجل، وأحدثت المرأةُ ، إذا زنيا، يكنى بالإحداث عن الزنا.

هكذا ذكر ابن منظور والفيروز آبادي وغيرهما[1].

- التحديث والإحداث في الشرع :

وردت أحاديث كثيرة تحذر من الاحداث في الدين ، أي الابتداع فيه ، وإحداث أمر لم يشرعه الله - سبحانه وتعالى - ، ورسوله - ﷺ - ، ومن أصرح تلك الأحاديث وأجمعها ، قوله - ﷺ - : «« **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ** »»[2].

يقول ابن حجر :

« وهذا الحديث معدود من أصول الإسلام ، وقاعدة من قواعده؛ فإن معناه : من اخترع في الدين ما لا يشهد له أصل من أصوله فلا يلتفت إليه »[3] .

---

(١) انظر: لسان العرب ١/٥٨١ ، ٥٨٢ ، والقاموس المحيط ١/١٣٧ .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الصلح ، باب(٥) إذا اصطلحوا على صلح جور ، فالصلح مردود ٣/١٦٧ ، ومسلم ، كتاب الأقضية : باب نقض الأحكام الباطلة ، وردّ محدثات الأمور ٣/١٣٤٣ ، رقم (١٧١٨) .

(٣) فتح الباري ٥/٣٠٢ .

وقال النووي :

« وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام ، وهو من جوامع كلمه – ﷺ – ؛ فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات»[١]، أي في الدين.

والحدوث في الدين قرين البدعة ، قال – ﷺ – : «« إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة »» [٢]. -

إذن فالحداثة والإحداث في الدين ، هو إنشاء عبادة أو عقيدة ليست من الدين ، فالحداثة هي البدعة في الدين وهي محرمة .

قال ابن حجر :

« والمُحدَثات بفتح الدال جمع محدثة ، والمراد بها ما أُحدث وليس له أصل في الشرع ، ويسمى في عرف الشرع (بدعة) ، وما كان له أصل يدل عليه الشرع فليس ببدعة ، فالبدعة في عرف الشرع مذمومة بخلاف اللغة؛ فإن كل شيء أحدث على غير مثال يسمى بدعة ، سواء كان محموداً أو مذموماً، وكذا القول في المحدثة وفي الأمر المحدث »[٣].

والنصوص الشرعية التي وردت فيها ألفاظ (حدث) ومشتقاتها، أمثال (حداثة) ، و (محدثون) ، و(حدثان) ، وغيرها ، كثيرة جداً ؛ وهي مرادفة للمعنى اللغوي المذكور سابقاً .

وإنما ذكرت هنا المعنى الشرعي للإحداث في الدين ؛ لأنه قريب من مقاصد الحداثة ، وإن كانت الحداثة أعم من الابتداع في الدين ، فهي

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/١٦٠.

(٢) سيأتي تخريج هذا الحديث عند الكلام عن الإبداع .

(٣) فتح الباري ١٣/٢٥٣ .

إلحاد وكفر بالدين ، وإنما بينهما أوجه شبه .

ويناسب في هذا المقام أن أذكر بما قاله ابن حجر، فتأمل قوله:

« وقد توسع من تأخر عن القرون الثلاثة الفاضلة ، في غالب الأمور التي أنكرها أئمة التابعين وأتباعهم ، ولم يقتنعوا بذلك ، حتى مزجوا مسائل الديانة بكلام اليونان ، وجعلوا كلام الفلاسفة أصلاً يردون إليه ما خالفه من الآثار بالتأويل ، ولو كان مستكرها ، ثم لم يكتفوا بذلك حتى زعموا أن الذي رتبوه هو أشرف العلوم وأولاها بالتحصيل ، وأن من لم يستعمل ما اصطلحوا عليه فهو عامي جاهل .

فالسعيد من تمسك بما كان عليه السلف ، واجتنب ما أحدثه الخلف »[١].

والأحاديث والآثار التي تحذر من الاحداث والابتداع في الدين كثيرة ، اكتفيت بذكر اثنين منها .

إذن ، إحداث أمور في الدين ليست منه بدعة محرمة ومردودة ، أما الإحداث والإبداع في الأمور الدنيوية والمعاشية ، وإنشاء وسائل وأساليب وصناعات حديثة فالأصل فيها الإباحة ، والوسائل لها حكم مقاصدها .

وحديثنا هنا عن الإحداث في الدين ؛ لأن الحداثة أفكار عارضت الدين في كثير من عقائده وأحكامه .

---

(١) المصدر السابق

- التحديث عند الحداثيين

يحرص بعض الحداثيين على وصف كتاباتهم ومقالاتهم بالتحديث؛ لأن الحديث يعني نقيض القديم ، وهو ما يتوافق مع أصول الحداثة التي هي نقيض وتمرد على القديم الحق الثابت .

وبعد أن ذكر محمد العبد حمّود أنَّ حدث نقيض قَدُم ، قال :

« وربما لهذا السبب يُصرّ العديد من الشعراء المعاصرين على نعت شعرهم بالشعر الحديث ، بدلاً من الشعر المعاصر أو الشعر الجديد ، وهي نعوت وإن استعملت أحياناً بمعنى الحديث إلا أنها تلاشت لمصلحة النعت الأخير ، فكأن هناك إصراراً على جعل الشعر الحديث في مواجهة مع التراث ... » (١) .

نعم إن الحداثيين يحرصون على التمسك بشعار الحديث والتحديث ، ويعبرون عن ذلك بالحداثة ؛ لأن هذه الأمور تعني نقيض القديم ، وهو جوهر الحداثة .

فالتحديث لا يعني تجديد القديم أو إحياء التراث ونحو ذلك ، وإنما يعني ابتداء فكراً جديداً نقيض القديم ، هذا ما فهموه وتمسكوا به ، وعبروا عنه بالحداثة التي هي تعريب لكلمة أجنبية .

ولهذا فهم لا يرضون بوصف المعاصرة أو التجديد ؛ لأن هذين الوصفين لا يفهم منهما مخالفة القديم .

يقول هنري لوفيفر :

« إننا ندرك الحداثة داخل مجموعة من النصوص والوثائق

---

(١) الحداثة في الشعر العربي المعاصر بيانها ومظاهرها ص ٤٨ .

تحمل بَصْمَة عصرها ولكنها- مع ذلك - تتعدى الدعوة إلى الموضة وإلى الجديد .

إن الحداثة تختلف عن العصرية ، مثلما يختلف تفكير ما عن الوقائع » [١].

ويقول صبري حافظ :

« الحداثة كمفهوم ينطلق من جوهر عملية التغير ، قد يكون مفهوماً أوسع من مفهوم المعاصرة ، وهو مفهوم زمني أكثر من مفهوم الحداثة .

فقد يكون هناك كاتب معاصر ، لكنه غير حديث ، بمعنى أن منطلقاته ثابتة ، ... ومن الممكن أيضاً أن يكون هناك كاتب سابق علينا ، لكنه تبنى التغير كمنطلق ، وتبنى التجاوز ، فهو إذاً كاتب أكثر حداثة من كاتب آخر قد يكون معاصراً لنا ، لكنه تقليدي في منطلقاته ورؤيته .

الحداثة أيضاً مفهوم أوسع من مفهوم التجديد ، فالتجديد رغم حتميته لكل أدب حديث ، إلا أنه خاص بإضافة محددة وصغيرة ، بينما الحداثة إضافة خاصة بروح عصر بأكمله ، خاصة باستشراف مستقبل هذه اللحظة .

إن الحداثة أشمل من التجديد ، حيث تنطوي على تجديدات عديدة ، ليس في الشكل فقط ، وإنما تجديدات في الرؤية وفي المنطلق ، تجديدات في ما سمي بقواعد الأصالة ، أي قواعد العلاقة بين الفن والواقع ، والتي تتجاوز مسألة الانعكاس المباشر إلى مسائل أكثر عمقاً وتشابكاً » [٢].

والخلاصة أن الحداثيين يرضون بوصف « التحديث» ويدعون إليه ، إلا أنهم يتفقون على مصطلح « الحداثة » لتسمية مذهبهم ؛ لأنه أقرب

---

(١) ماهي الحداثة ص ١٧ .

(٢) مجلة الأسبوع العربي ١٩٨٨/٩/٢٦م ، ص ٦٨ .

الألفاظ إلى معنى « البدعة » والإبداع ؛ وأقرب الألفاظ للكلمة المترجمة عن اللغة الأجنبية .

يقول الحداثي المصري جابر عصفور :

« وإذا كانت الحداثة والتحديث وجهين لعملية واحدة طرفها الأول التغيرات المادية ، التي تصاحب التحديث على مستوى أدوات الإنتاج، وعلاقاته التقنية في المجتمع ،وطرفها الثاني التغيرات الابتداعية ، التي تصاحب الحداثة على مستوى علاقات المعرفة ،وأدوات انتاجها في المجتمع نفسه – أقول إذا كانت الحداثة والتحديث وجهين لعملية واحدة لا ينفصل طرفاها في علاقتهما الجدلية ؛ فإن موجات الحداثة والتحديث التي شهدتها دول المشرق العربي ، التي سبقت إلى التغير ، تحديثاً وحداثة ، بحكم ظروف متعددة ، كانت تصوغ أشكالاً مغايرة من الخطاب ، تشير دواله إلى مدلولات الحرية والعدل والعقلانية والتنوير والعلمانية والتطور والانقطاع ... الخ ، وغيرها من المدلولات التي لا تكف دوالّ الحداثة عن الإشارة إليها ، في نسق ينفي النسق الاتباعي ، وينقض شبكته العلائقية في خطابه الخاص » [1].

ويقول :

« إن لحظة الحداثة قرينة لحظة التحديث ، قد لا تتطابق اللحظتان تماماً ، ولكن ما بينهما من علاقة متعددة الأبعاد تجعل من انبثاق إحدى اللحظتين علة ، أو بشارة ، أو علامة على انبثاق اللحظة الثانية ، ولا يمكن لمجتمع أن تتطور أدوات انتاجه المادي ، في مستويات متعددة ، دون تحديث يحمل بذور الحداثة في طياته على نحو ذاتي من داخل المجتمع ،

---

(١) قضايا وشهادات ٢ /٣٦٣ .

وعلى نحو يتجاوز الداخل إلى الخارج ، حيث ينفتح المجتمع على غيره ، مهما كان حذره ، ويتقبل حداثة الآخر ، كما تقبل وسائل تحديثه ، وإذا كانت لحظة التحديث ترتبط بتغير أدوات الإنتاج المادي وتغير علاقاته ؛ فإنها تعني – من ثَمَّ – ما ينتج عن هذا التغير ، أو يوازيه على مستوى عمليات انتاج المعرفة وعلاقاتها على نحو يؤدي إلى تولد تناقض بين أبنية المجتمع السائدة وما تتطلبه أدوات التحديث وعلاقاته ، مادياً ومعرفياً ، من أبنية تستجيب إليها وتتلاءم معها .

وأحسب أن المجتمع في الخليج والجزيرة قد وصل إلى مشارف هذه اللحظة ... » [١].

ويقول في موضع آخر :

« إن الحداثة في الشعر لا تقوم على ثنائية يتعارض فيها الماضي مع الحاضر في محور زماني فحسب ، بل تقوم على أساس من تعارض آخر في الحاضر نفسه على مستويات متعددة ، والشاعر المحدث بهذا الفهم هو الشاعر الذي يبدع في الحاضر مقابل الشاعر الذي يرتبط بجانب ثابت فيه » [٢].

ويقول طراد الكبيسي :

« إن مفهوم الحداثة الذي يجري الحديث عنه كثيراً هذه الأيام ليس مفهوماً آلياً يتصل بالزمن الحاضر حسب ، بل مفهوم ذو مدلول تاريخي أي أن الحداثة لا ترتبط بزمن دون آخر ، ولا تقتصر على هذا

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

(٢) مجلة فصول مجلد ١ ، ع ٤: اكتوبر ١٩٨١م ص ٧٥ .

الزمن دون الماضي ، بل هي تتصل أساساً بالرؤية الكلية الشمولية الجدلية ، وصلة الفن بالواقع عبر التفاعل الديناميكي والتأثير المتبادل بينهما ، مما يدفع بحركة الواقع على المستوى الكلي – أي وحدة الزمن اللانهائية »[1].

وتأمل تعريف الحداثي المصري ادوار الخراط للحداثة، حيث قال:

« الحداثة ... تنحاز دائماً إلى أحد طرفي ثنائية مستمرة عبر الزمن ، بين ما هو جاهز مُعَد مُكرَّس ، شائع ، مقبول اجتماعياً على المستوى العريض ، وما هو متمرد ، داحض ، مقلق ، هامشيٌ ، يسعى إلى نظام قيميٍّ مستعص بطبيعته على التحقق ، ومُتعَدّ دائماً ...، الحداثة هي نقيض المطلق ، والمطلق جامد وثابت ونهائي ومتعال ...، الحداثة تساؤل مستمر الوهج عن الواقع ، ودحض لهذا الواقع ، فالعلاقة بين الحداثة والواقع علاقة عضوية ...، إنها علاقة نقيضية ، تتضمن الواقع ، ولا تكتفي بأن توازيه ، بل تومىء باستمرار إلى (واقع-حلم) ماثل ودائم التجدد ، دائم المراوغة»[2].

وإن من الحداثيين من لا يوافق على وصف مذهبهم « بالتحديث» ؛ لأن هذا اللفظ لا يدل على المذهب الحداثي ، الذي له أصوله وأسسه المحددة ، وإنما لا يقبل إلا اسم « الحداثة » .

لأن اسم « الحداثة » هو المصطلح الذي أطلق على المذهب الغربي الذي تم استيراده إلى العالم العربي ، فلا بد أن يبقى المصطلح بلفظه لدلالته على مذهب معين ، وهو ما اصطلح عليه الغربيون ، ومن ثَمَّ من تبعهم من العرب .

---

(١) النقطة والدائرة – مقتربات في الحداثة العربية ص ٦٦ .

(٢) مجلة فصول مجلد ٤ ، ع ٤، ١٩٨٤م ص ٥٧.٥٨ .

أما مصطلح « الحديث» فهو لفظ عام يطلق على كل ما كان حديثاً ، وكذلك « التحديث » .

وهناك فرق بين التحديث والحداثة ، فالتحديث قد يكون مقبولاً إذا أريد به استحداث أساليب ووسائل حديثه ومصطلحات ومفاهيم جديدة ، ونحو ذلك مما لم يرد في الشرع الحنيف ما ينافيه ويمنعه ، وذلك في الأمور الدنيوية ، غير التعبدية ، فإن هذه لا بد أن يدل الدليل الشرعي على مشروعيتها .

أما الحداثة فإنها مصطلح وضع لمذهب معين له أصوله الفكرية المحددة ، المخالفة ، بل الرافضة لدين الله وشرعه .

ولهذا فلا يمكن أن يقال إذا أريد بالحداثة كذا وكذا فهي مقبولة ، لأن « الحداثة » مصطلح استقر على فكر معين مخالف .

إلا إذا أراد القائل التحديث فنعم بضوابطه الشرعية ، وعند ذلك فالابتعاد عن تسميته بالحداثة أدق وأولى .

٣- التجديد :

- التجديد لغة :

جاء في معاجم اللغة العربية وقواميسها مادة (جدد) ما ملخصه: .[١]

جدد:والجِدَّةُ مصدر الجديد ، وأجَدّ ثوباً واستَجدَّه : صيره جديداً ، وهو ضد الخَلَق .

وثياب جُدُد مثل سرير وسُرُر ، وتجدد الشيء : صار جديداً .

والجِدَّة نقيض البلى ، وهذا شيء جديد: أي غير بال ولا خَلَق .

يقال: أصبحت ثيابُهم خُلْقاناً ، وخُلْقانهم جُدُدا .

ويقال : بَلَي بيتُ فلان ثم أجَدَّ بيتاً من شعر .

ويقال للرجل إذا لبس ثوباً جديداً :أبْلِ وأجِدَّ واحْمَدِ الكاسيَ .

وفلان جدد الوضوء والعهد بمعنى أعاد الوضوء ، وأكَّد العهد وأحياه.

يتبيّن مما سبق أن المراد بالتجديد في اللغة إعادة الشيء بعدما خلق وبلي إلى ما كان عليه أول الأمر .

فهو في أول أمره كان جديداً فتقادم العهد عليه حتى بلي وخلق، ثم جُدّد بإعادته إلى ما كان عليه .

ومن المعنى اللغوي يتضح أن الشيء المجدد يفترض فيه عنصران:

الأول : أنه كان جديداً ثم أصابه البلى

الثاني : أنه جدد وأعيد إلى ما كان عليه في حالته الأولى .

---

(١) انظر: لسان العرب ١/٤١٤-٤١٥والصحاح ٢/٤٥١، ٤٥٤، وتاج العروس ٢/٣١٣- ٣١٦، والقاموس المحيط ١/٢٩١ .

- التجديد في الشرع وفي اصطلاح بعض المتأخرين

- التجديد شرعاً :

هو إحياء ما اندرس من معالم الدين ، وانطمس من أحكام الشريعة ، وإعادة ما ذهب من السنن وخفي من العلوم [١].

أما التجديد في اصطلاح أدعيائه المنحرفين به ، فهو ما ذكره الشيخ صالح الفوزان بقوله :

« معناه الابتداع وإحداث في الدين ما ليس منه، إن التجديد الذي ينادون به هو التجديد في الدين بإحداث فقه جديد معاصر كما يسمونه؛ لأن الفقه القديم - بزعمهم - لا يناسب هذا العصر ، بشكله ومضمونه» [٢].

هذا هو تعريف التجديد ، في الشرع ، وفي اصطلاح أدعياء التجديد المعاصرين ، وسيأتي الحديث بالتفصيل عن التجديد الصحيح والمنحرف في هذا التمهيد ؛ ولهذا اختصرت تعريفهما هنا .

- التجديد عند الحداثيين

يرى الحداثيون أن « التجديد » هو إعادة الشيء وتجديده مع المحافظة على أصوله وثوابته الأولى ، أي أن التغيير لا ينال جذور الشي المجدّد ، وإنما يُعاد ويظهر بلباس جديد.

ولهذا فإنهم لا يستعملون لفظ « التجديد» في وصف أقوالهم وأعمالهم إلا قليلاً .

---

(١) انظر: فيض القدير ١/١٠، ٢/١٨٢.

(٢) مجلة الدعوة ع١٢٤٥، ٢١/١١/١٤١٠هـ ص١٧.

نعم قد يستعملون هذا اللفظ لتأييد أصحاب الاتجاهات التجديدية المنحرفة ، ويشجعونها ؛ لأنهم يرونها مرحلة تمهيدية تبدأ من نقد النص وإثارة الأسئلة حول تقديمه على غيره ، وبالتالي فهي مرحلة تمهد للحداثة التي تتمرد على النص الشرعي وترفضه تماماً .

فالحداثيون يحرصون على تمييز « الحداثة » عن التجديد ، الذي لا يستعملونه إلا بوصفه مرحلة من مراحل نشر الحداثة وتمكينها [١].

وعلى هذا فهم يفرقون بين الجديد والحديث ، أو التجديد والحداثة ، ولا يعبرون بالتجديد إلا إذا قصدوا به معنى الحداثة تماماً ، يقول أدونيس:

« .... فللجديد معنيان : زمني ، و هو في ذلك آخر ما استجد، وفني ، أي ليس في ما أتى قبله ما يماثله .

أما الحديث فذو دلالة زمنية ، ويعني كل مالم يُصبح عتيقا .

كل جديد بهذا المعنى حديث ، لكن ليس كل حديث جديدا .

وهكذا نفهم كيف أن شاعراً معاصراً لنا ، أو يعيش بيننا قد يكون في الوقت نفسه قديما .

الجديد يتضمن ، إذن، معياراً فنياً،لا يتضمنه الحديث بالضرورة، وهكذا قد تكون الجدّة في القديم ، كما تكون في المعاصر .

فمعيار الجديد يكمن في الإبداع والتجاوز ، وفي كونه مليئاً لا يُستنفد .

---

(١) انظر : ما ذكره الحداثي التونسي عبدالمجيد الشرفي ، في كتابه : الإسلام والحداثة ، فأغلب الكتاب تأييد من الحداثي الشرفي لمنهج أصحاب الاتجاهات التجديدية المنحرفة .

ومن هنا يمكن القول في مجال التقييم :

إن دلالة التجديد الأولى في الشعر هي طاقة التغيير التي يمارسها بالنسبة إلى ما قبله وما بعده ، أي طاقة الخروج على الماضي من جهة ، وطاقة احتضان المستقبل من جهة ثانية .

كل أثر شعري جديد حقاً يكشف عن أمرين مترابطين ، شيء جديد يقال ، وطريقة قول جديدة ... ، وعلامة الجِدَّة في الأثر الشعري هي طاقته المغيرة ، التي تتجلى في مدى الفروقات ، ومدى الاضافة : في مدى اختلافه عن الآثار الماضية ، وفي مدى اغنائه الحاضر والمستقبل » [1].

هذا هو معيار « التجديد» و « الجديد» عند الحداثيين ، فالمقبول منه ما وافق مذهبهم الحداثي وقواعده الفكرية .

ولهذا يقول أدونيس بأن عدو التجديد هو « عادة التشبّث بالقيم الماضية المستنفدّة ، العادة التي تؤدي إلى السهولة والتكرار والآلية والرتابة وضمور الوعي ، وانعدام الدهشة :العادة التي تنكر الزمن وتنكر التغير» [2].

وتأمل قول الحداثي محمد جاسم الموسوي :

« الحداثة عبارة عن الانقطاع عما هو تقليدي ، والشروع بالابتكار في حلقات أكثر حدة وحسماً من مظاهر التجديد » [3].

---

(١) مقدمة للشعر العربي ص ٩٩، ١٠٠.

(٢) المصدر السابق ص ١٠١ ، وانظر : ص ١٠٤ ، ١٠٥

(٣) مجلة الدستور، الاثنين ٨/٥/١٩٩٠م ص ٤٠ .

٤- العصرانية،

- العصرانية في اللغة :

لفظ « العصرانية » ليس صحيحاً لغة ، وإنما النسبة الصحيحة « العصرية »

والعصرية لغة : نسبة إلى العصر ، والعَصْر والعِصْر والعُصْر والعُصُر هو الدهر.

والعَصْرُ هو مايلي المغرب من النهار ، وقيل العصر هي ساعة من ساعات النهار .

والجمع أعْصُرٌ وأعْصار وعُصُرٌ وعُصُورٌ .

والعصران : الليل والنهار ، والعَصْر : الليلة ، والعَصْر : اليوم ويقال العَصْران : الغداة والعشي [١].

- العصرانية في الشرع :

وقد ورد لفظ (العصر) في القرآن الكريم ، في قوله تعالى :

﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ [٢].

ذكر الطبري أن بعض المفسرين قال : « هو قسم أقسم ربنا تعالى ذكره - بالدهر ، فقال العصر هو الدهر » ، وروى عن ابن عباس أنه قال : « العصر ساعة من ساعات النهار» ، وعن الحسن أنه قال : « العصر هو العشي» ، ثم قال الطبري « والصواب من القول في ذلك أن يقال إن ربنا

---

(١) انظر : لسان العرب ٢/٧٩٢ .

(٢) سورة العصر .

أقسم بالعصر ، والعصر اسم للدهر ، وهو العشي والليل والنهار ولم يخصص مما شمله هذا الاسم معنى دون معنى ، فكل مالزمه هذا الاسم فداخل فيما أقسم به جل ثناؤه »[١] .

وقال ابن كثير « والعصر : الزمان ، وقال زيد بن أسلم : صلاة العصر والمشهور الأول »[٢].

وقال البغوي :

« والعصر : قال ابن عباس : والدهر ، قيل : أقسم به : لأن فيه عبرة للناظر ، وقيل معناه ورب العصر ، وكذلك في أمثاله ، وقال ابن كيسان : أراد بالعصر الليل والنهار ، يقال لهما العصران ، وقال الحسن : من بعد زوال الشمس إلى غروبها ، وقال قتادة : أخر ساعة من ساعات النهار ، وقال مقاتل : أقسم بصلاة العصر وهي الصلاة الوسطى »[٣].

ولعل أقرب هذه التعريفات ما ذكره الطبري بأن العصر اسم للدهر فيدخل بالعصر كل ما لزمه اسم الدهر .

وقد وردت أحاديث كثيرة فيها لفظ (العصر) ، وهو بمعنى ما ذكرته في اللغة وفي القرآن ، فلا داعي للإطالة هنا .

وليس في الإسلام مصطلح العصرانية ، أو العصرية ، وإنما هو مصطلح غربي ، فالعصرية في تاريخ الكنيسة النصرانية : حركة ظهرت في القرن التاسع عشر الميلادي ، على اثر انتشار مذهب دارون في النشوء

---

(١) انظر : جامع البيان في تفسير القرآن ١٠/١٨٧.

(٢) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ٤/٥٤٩.

(٣) معالم التنزيل ٤/٥٢٢ ، ٥٢٣ .

والتطور ، ومحاولة تطبيقه على البشر ، مما يتعارض وتعاليم الكنيسة ، وأساس العصرية انكار الوحي ؛ لأنه على حد زعمهم يتعارض مع قوانين الطبيعة ، وبالتالي فقد رفضت هذه الحركة العصرية تعاليم الكنيسة ، وتمردت على نصوص كتابها المقدس عندها ، والكنيسة بدورها استنكرت الحركة العصرية وتعاليمها [١].

إلا أن هذه الحركة العصرية أو العصرانية كانت أخف وطأة على الكنيسة من الحداثة التي تنكرت للتراث ، وبخاصة الديني منه تماماً .

ثم انتقل مصطلح العصرانية إلى العالم الإسلامي وأصبح يطلق على كل من يدعو إلى إخضاع الدين لمفهومات العصر ، ويحاول إيجاد مواءمة بين الإسلام والفلسفات الغربية المعاصرة .

- العصرانية عند الحداثيين :

توظيف الحداثيين للعصرانية يشبه إلى حد كبير توظيفهم للتجديد، فالحداثيون لا يعدون أنفسهم (عصريين) أو (عصرانيين) ، إلا في مقابل دعاة الالتزام بالنصوص الشرعية من الكتاب والسنة ، وقد يوظفون الدعوة إلى العصرانية بوصفها مرحلة ممهدة للثورة الحداثية الكبرى المتمردة على النصوص الشرعية ومصادرها وما جاء عنها .

ولهذا فإن الحداثيين في كثير من كتاباتهم يفرقون بين الحداثة

(١) انظر: الموسوعة العربية الميسرة ١٢١٦/٢،والحقيقة أن العصرية بدأت ممهداتُها في أوروبا منذ القرن السادس عشر الميلادي ، ثم اتضحت معالمها في القرن التاسع عشر ، انظر : مجلة المجمع العلمي العراقي ع ٢ ، م ٤٠ ، ١٤١٠هـ ص ١٣٠ ، ومجلة فصول م ٤ ، ع ٣ ، ج ١، ١٩٨٤م ص١٢.

والعصرية أو العصرانية ، ليس العرب فقط ، وإنما الحداثيون الغربيون « يفرقون بين اصطلاح الحداثة للدلالة على هذا الاتجاه الفكري الذي يعم الحياة الإنسانية بمنهجه الحداثي الثائر على التراث ، والمتمرد على السائد والمألوف ، وبين العصرية أو العصرانية التي تعني إحداث تجديد وتغيير في المفاهيم السائدة المتراكمة عبر الأجيال ؛ نتيجة وجود تغير اجتماعي أو فكري أحدثه اختلاف الزمن .

وهذه الحركة العصرية بدأت في أوروبا مع عصر النهضة ، دون أية مخاصمة بينها وبين التراث ، بل لقد جعلت منه في اتجاهها الفكري أصلاً من أصولها ، أما الحداثة بمفهومها الاصطلاحي فاتجاه جديد يشكل ثورة كاملة على كل ما كان وما هو كائن في المجتمع »[1].

ويعّرف الحداثي محمدعابد الجابري العصرانية بقوله :

« عصرانية ، تدعو إلى تبني النموذج الغربي المعاصر ، بوصفه نموذجاً للعصر كله ، أي النموذج الذي يفرض نفسه تاريخياً كصيغة حضارية للحاضر والمستقبل »[2].

وتأمل قول الحداثي عبدالله الغذامي ، حين يفرق بين الحداثة والتجديد والمعاصرة ، فيقول :

« لم تعد مسألة الحداثة تقتصر على كونها (قضية) ، إنها تتجاوز ذلك لتصبح (إشكالية) على المستويات كافة : رؤية وإبداعاً وتلقياً ، وعلى مستويات الاستجابة رفضاً وقبولاً ؛ وذلك أن الحداثة كمفهوم قد

---

(١) دراسات في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق ص ٨ .

(٢) اشكاليات الفكر العربي المعاصر ص ١٥ .

انفصلت تماماً عن مفهوم التجديد أو المعاصرة ، وهو انفصال يتفق عليه كل المتجادلين حول الحداثة ؛ لأن الجميع يرضون بالتجديد ، ويقبلون المعاصرة ، لكنهم يختلفون حول الحداثة .

من هنا تتميز الحداثة ، وإن لم تتحدد ، وما دامت الحداثة قد استقلت عرفياً من مفهومي التجديد والمعاصرة ، فهذا يعني بالضرورة أنها فوق الآنية ، وهذا يطلقها من حدود الوقت الذي هو جزئي ومرحلي ، ويجعلها زمنية ، أي كلية وشمولية ، ويتساوى فيها الماضي مع المستقبل ؛ لأنهما معاً مادة الزمن الذي لا يفصمه (الآن) بوقتيته وحدوده المرحلية .

هذه مصادرة أولى نفك بها الحداثة من علاقات الآن والجدة والوقت ، ونهيؤها لمداخلة علاقات أكثر تسامياً ، وهي العلاقات الكلية الشاملة زمانياً وبالضرورة حضارياً »[1].

ويؤكد الحداثي المصري محمود أمين العالم أن الحداثة تختلف عن المعاصرة ؛ وذلك لأن من شروط الحداثة أن تكون « خروجاً على المألوف » بخلاف المعاصرة أو العصرانية[2].

ويفرّق عبدالمجيد زراقط بين الحداثة والمعاصرة والجِدّة ، فيقول :

« تعني الحداثة إيجاد مالم يكن موجوداً من قبل ، ويظل هذا حديثاً ما بقي فتياً غير مألوف ، أي ما بقي في منأى عن فعل العادة والقدم، محتفظاً بجدّة دائمة .

والحداثة بهذا المعنى أعم من المعاصرة ؛ ذلك أن الأخيرة ترتبط

---

(١) تشريح النص ، مُقاربات تشريحية لنصوص شعرية معاصرة ص ٧ .

(٢) انظر : في قضايا الشعر العربي المعاصر ، دراسات وشهادات ص ٢٨ .

بالعصر ، أي بالزمن فحسب ، غير أنها قد تقرب من الأولى إن عُني بها تمثّل القيم السائدة في العصر الحديث ، والصدور عنها في تعبير جديد لم يكن موجوداً من قبل .

وتأسيساً على هذا الفهم للحداثة والمعاصرة تكون (الجدّة) صفة الحديث أو المعاصر ، من دون أن ترتبط مثلهما بزمان ومكان محدّدين ، فالجديد إذاً يتضمن معياراً فنياً لا يتضمنه الحديث أو المعاصر بالضرورة .

وهكذا قد تكون الجدّة في القديم كما تكون في المعاصر ، كما أن المعاصر يمكن أن يكون سلفياً وقديماً في ميزاته الفنية ، وبهذا لا يكون معاصراً إلا من حيث الزمن ، وليس من حيث القيم المعاصرة والصدور عنها تعبيراً جديداً يحمل خصائص العصر وميزاته » .[1]

ويقول الحداثي المصري غالي شكري :

« والحداثة ليست دعوى شبيهة بالعصرية ، فهذه الأخيرة دعوة شكلية سطحية ، تتعلق بمظاهر الأشياء ، فلا يكون الشاعر معاصراً بمجرد أن يصف الصاروخ أو التلفزيون أو عظمة الاشتراكية ، مثل هذا الشاعر بالنسبة للمفهوم الحديث للشعر هو رجعي عظيم الرجعية ؛ لأن الحداثة تنفي الوصف من أدوات الشعر ... .

الشعر الحديث { أي الحداثي } موقف من الكون كله ؛ لهذا كان موضوعه الوحيد (وضع الإنسان في هذا الوجود) ؛ ولهذا أيضاً كانت أداته الوحيدة هي (الرؤيا) ، التي تعيد صياغة العالم على نحو جديد ، وأصبحت وظيفة الشعر هي الكشف عن عالم يظل أبداً في حاجة إلى

---

(١) الحداثة في النقد الأدبي المعاصر ص ١٥ .

الكشف » .[١]

هكذا يصرح هذا الحداثي الجلد بأن الحداثة اتجاه فكري وعقدي وفلسفي شامل ناسف ، مغاير للاتجاه العصراني .

وقد قال قبل ذلك :

« فالحداثة والمعاصرة متمايزتان ، خاصة في النقد الأوروبي الحديث ، لم تعد الحداثة عند نقاد الغرب في المرحلة الزمنية التي يعيشونها، فقد اختاروا (المعاصرة) تعبيراً موفقاً لهذا المعنى ...» [٢].

ولهذا اشترط أدونيس للشاعر المعاصر أن « يتخطى قيم الثبات في تراثه الثقافي » وأن « لا يلتمس ينابيعه في تراثه وحده ، وإنما يلتمسها في هذا الكل الحضاري الشامل ... » [٣].

مما سبق يتبين أن « الحداثة » مصطلح فكري لمذهب معين له قواعده وأسسه ، من الثورة على مصادر المعرفة والقيم ، والدعوة إلى تجاوز المألوف والسائد ، وغير ذلك ، ولا يمكن أن يختلط بمفهوم العصرانية التي قد تعني اخضاع التراث لمفاهيم العصر ونظرياته .

ولهذا فإن الحداثيين لا يدعون إلى العصرانية إلا إذا عنوا بها الصدور عن مصادر معرفية معاصرة ؛ مخالفة للقديم والمألوف عند الناس ، فهي إذن حداثة وليست معاصرة ، إلا أنهم قد يعبرون بالمعاصرة أو العصرانية ، تدرجاً في ثورتهم ، ومحاولة تقريب العقلانيين والعصرانيين إلى

---

(١) شعرنا الحديث إلى أين ص ١١٤، وانظر ص ١١٧.

(٢) المصدر السابق ص ٧ .

(٣) زمن الشعر ص ٤٢ .

مذهبهم ، مقابل المنهج الشرعي القويم .

وبخاصة أن العصرية في أول نشأتها في الفكر الغربي كانت تقوم على « أساس انكار الوحي ؛ لأنه خارج على القوانين الطبيعية » على حد زعمهم الكاذب ، وكانت نشأتها « على أثر انتشار مذهب دارون في النشوء والتطور ومحاولة تطبيقه على التطور البشري »[١].

فهذه العصرانية الغربية تخدم الفكر الحداثي الثوري في بعض جوانبه ؛ ولذلك قد يوظفونها ، مع تميزهم عنها .

---

(١) انظر : الموسوعة العربية الميسرة ١٢١٦/٢.

٥- التنوير :

- التنوير في اللغة :

النور هو الظاهر به كل ظهور، والظاهر في نفسه المظهر لغيره.

وقيل النور هو الضوء ، أيّاً كان ، وقيل : هو شعاعه وسطوعه ، والجمع أنوار ونيران .

وقد نارَ نَوْراً وأنارَ واستنار ونَوَّرَ ، بمعنى واحد ، أي أضاء .

واستنار به : استمدّ شعاعه ، ونوّر الصبح: ظهر نُورُه

والتَّنْوِير : وقت إسفار الصبح ، يقال : قد نَوَّر الصبحُ تَنْوِيراً.

والتنوير : الإنارة ، والتنوير : الإسفار ، والمنار والمنارة : موضع النُّور.

والمَنَار : العَلَم وما يوضع بين الشيئين من الحدود .

هكذا ذكر ابن منظور [١].

- في الشرع :

وفي الشرع يطلق النور على الإيمان ، كما في قوله تعالى :

﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفرو أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ [٢].

فالظلمات هنا هي الكفر ، والنور هو الإيمان [٣]، وقوله تعالى :

﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ [٤].

---

(١) انظر لسان العرب ٣/٧٣٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥٧ .

(٣) انظر جامع البيان في تفسير القرآن ٣/١٥ .

(٤) سورة المائدة ، الآية ١٥ .

يقول الطبري في تفسير هذه الآية :

« يقول جل ثناؤه لهؤلاء الذين خاطبهم من أهل الكتاب قد جاءكم يا أهل التوراة والإنجيل من الله نور ، يعني بالنور محمداً - ﷺ -، الذي أنار الله به الحق ، وأظهر به الإسلام ، ومحق به الشرك ، فهو نور لمن استنار به ، يبين الحق »[١].

وكذلك قوله تعالى : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾[٢].

« يقول تعالى ذكره يريد هؤلاء القائلون لمحمد - ﷺ - هذا ساحر مبين ، ليطفئوا نور الله بأفواههم : يقول يريدون ليبطلوا الحق الذي بعث الله به محمداً - ﷺ - بأفواههم ، يعني بقولهم إنه ساحر وما جاء به سحر ، والله متم نوره يقول : والله معلن الحق ومظهر دينه وناصر محمدا- عليه السلام - على من عاداه ، فذلك إتمام نوره ، وعني بالنور في هذا الموضوع الإسلام »[٣].

والنصوص الشرعية من القرآن والسنة في هذا المعنى كثيرة ، اكتفي بما ذكرته اختصاراً .

ومما سبق يتبين أن أهل الإنارة والتنوير هم الملتزمون بالشرع الحنيف ، فالإسلام هو نور ، ومن تحلى به والتزمه فهو مستنير ، بنوره ، أما من انحرف عنه أو عارضه بهواه أو آراء عقله أو أفكار وفلسفات وضعية فهو

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ٤/١٠٤ .

(٢) سورة الصف الآية ٨ .

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن ١٠/٥٧.

مظلم وليس مستنيراً .

فالمسلم المستنير هو المتبع للنصوص الشرعية ، فلا يجد في نفسه حرجاً منها ، ويسلم تسليماً كاملاً ، وهو المؤمن المنقاد لكل ما جاء به الرسول - ﷺ - .

- التنوير عند الحداثيين

القول في (التنوير) عند الحداثيين ، قريب من القول في التجديد والعصرانية عندهم .

وذلك أن « التنوير » أو « الفكر المستنير » ونحو ذلك من المصطلحات تطلق في العالم العربي ، في أغلب استعمالاتها على بعض الاتجاهات العقلانية التي تدعو إلى إخضاع النصوص الشرعية لما يقرره العقل ، أي يقدمون العقل على النقل ، وبخاصة أولئك الذين يريدون التوفيق بين الإسلام والحضارة الغربية ، أو بعبارة أخرى ينادون بإخضاع كثير من أحكام الشريعة الإسلامية للفكر الغربي وحضارته ، بحجة التوفيق أو التقريب بينهما .

فأصحاب « التنوير » في العالم العربي ، في الغالب منتسبون إلى الإسلام ، إلا أنهم تأثروا تأثراً عظيماً بالحضارة الغربية الحديثة ، فعطلوا كثيراً من قضايا العقيدة والشريعة ؛ لأنها - على حد زعمهم - لا تناسب الفكر الحضاري الحديث ؛ فرأوا أنها استثارت عقولهم ولم تنغلق على النصوص الشرعية وتجمد عليها !! .

أما الحداثيون فهم لا يدعون إلى الإسلام ، بل لا ينتسبون إليه في مذهبهم البتة ، بل يدعون إلى الثورة عليه وعلى مصادره وعلى كل قديم حق .

ولهذا فإن الحداثيين لا يصفون أنفسهم وأعمالهم بالتنوير ونحوه، وإنما قد يستعملون هذا الوصف في تشجيع تلك الاتجاهات العقلانية التي تمهد الطريق في العالم العربي للحركة الحداثية الثائرة على النصوص الشرعية تماماً [1].

تأمل قول الحداثي المصري نصر حامد أبو زيد :

« ... وفي مجال تاريخية الظاهرة الثقافية الفكرية الإبداعية ، وتاريخية الفكر الديني بصفة خاصة استطاع خطاب التنوير كما سبقت الإشارة أن يرفع غطاء القداسة عن الخطاب الديني القديم والحديث على السواء ، واستطاع بذلك أن يضع بذور التعامل مع التراث ، بكافة جوانبه ، بوصفه ظاهرة تاريخية متطورة ، والأهم من ذلك بوصفه قائماً على التعدد والصراع بين تيارات واتجاهات ، وكان هذا انجازاً حقيقياً ، لا سبيل إلى التراجع عنه ، لكنه لم يكن كافياً » [2].

ثم يأسف لأن « خطاب التنوير » لم يؤد مفعوله المطلوب لدى الحداثيين ، فيقول :

« لم يستطع التنويريون أن ينقطعوا عن السلفيين ، بإنتاج وعي تاريخي علمي بالنصوص الدينية ذاتها ، وظلت الرؤية اللاتاريخية للنصوص الدينية هي الرؤية المسيطرة ... ، ولا شك أن هذا القصور في الانجاز

---

(١) انظر : على سبيل المثال تعليق بعض الحداثيين على محاضرة محمد عمارة التي ألقاها في مهرجان الجنادرية ، في كتاب : الندوات الفكرية في المهرجان الوطني للتراث والثقافة السادس ص ٩١ – ١٣٦ .

(٢) قضايا وشهادات ٢/٣٨٦ .

التنويري ساهم – في اطار عوامل موضوعية اجتماعية اقتصادية – في تمكين الخطاب الديني من استعادة الأرض التي فقدها » .[1]

وهكذا يرى هذا الحـــداثي أن المشكلة عند التنويريين – مع استطاعتهم رفع القداسة عن الخطاب الديني – هي « الرؤية اللاتاريخية للنصوص الدينية » ، والتي ما زالت مسيطرة ، وكذلك مشكلتهم في عدم انقطاعهم « عن السلفيين » .

(١) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

٦- الإبداع :

- الإبداع في اللغة :

الإبداع مأخوذ من الفعل (بدع) .

الباء والدال والعين أصلان ، أحدهما ابتداء الشيء وصنعه ، لا عن مثال سابق .

والآخر الانقطاع والكلال .

فالأول قولهم ابدعت الشيء قولاً أو فعلاً إذا ابتدأته ،لا عن مثال سابق [١].

وتقول العرب : لست ببدع في كذا وكذا ، أي لست بأول من أصابه هذا ، وكل من أحدث شيئاً فقد ابتدعه والاسم البدعة والجمع البدع [٢].

وقال ابن منظور :

« بدع الشيء يبدعه بدعاً ، وابتدعه : أنشأه وبدأه ، والبديع والبدع الشيء يكون أولاً ، والبدعة : الحدث ، وما ابتدع في الدين بعد الإكمال، وأبدع وابتدع وتبدَّع : أتى ببدعة » [٣].

وذكر الزبيدي أن البدعة الحدث في الدين بعد الاكمال ، أو هي ما استحدث بعد النبي - ﷺ - من الأهواء والأعمال ، ويقال جئت بأمر بديع أي محدث عجيب لم يعرف قبل ذلك [٤].

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة ٢٠٩/١ .

(٢) انظر : جمهرة اللغة ٢٤٥/١ .

(٣) لسان العرب ١٧٤/١، ١٧٥ .

(٤) انظر : تاج العروس ٢٧٠/٥ ، ٢٧١ .

وقال الفيروز آبادي :

« البِدْعُ : بالكسر الذي يكون أولاً ... ، والبدعة بالكسر الحدث في الدين بعد الإكمال ، أو ما استحدث بعد النبي من الأهواء والأعمال »[١].

وقيل لا يكون الإبداع إلا بظَلَع ، يقال أبدعت به راحلته إذا ظَلَعَت، وأُبْدِعَ ، وأُبدِعَ به وأَبْدَعَ : كلت راحلته أو عَطِبتَ ، وبَقِيَ مُنْقَطعا ، يقال : أبدع فلان بفلان إذا قطع به وخذله ولم يقم بحاجته ، وأبدعوا به ضربوه[٢].

- الإبداع كما ورد في الشرع

جاء في الحديث قوله - ﷺ - : «« **إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة** »»[٣].

قال ابن حجر في تعريفه البدعة :

« هي كل شيء ليس له مثال تقدم فيشمل لغة ما يحمد ويذم ، ويختص في عرف الشرع بما يذم ، وإن وردت في المحمود ، فعلى معناها اللغوي »[٤].

وقال الشاطبي :

---

(١) القاموس المحيط ص ٩٠٦ .

(٢) انظر : لسان العرب ١/١٧٥ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤/١٢٦ ، ١٢٧ ، وأبو داود في السنن ، كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ٤/٢٠٠ - ٢٠١ ، رقم (٤٦٠٧) ، والترمذي : أبواب العلم: باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ٥/٤٤ ، رقم (٢٦٧٦) .

(٤) فتح الباري ١٣/٢٥٣.

« البدعة طريقة في الدين مخترعة ، تضاهي الشرعية ، يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية »[١] .

ويعرفها ابن تيمية بقوله :

« البدعة في الدين هي مالم يشرعه الله ورسوله ، وهو ما لم يأمر به ، أمر ايجاب ولا استحباب .

فأما ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب ، وعلم الأمر به بالأدلة الشرعية فهو من الدين الذي شرعه الله ، وإن تنازع أولو الأمر في بعض ذلك، وسواء كان هذا مفعولاً على عهد النبي – ﷺ – أو لم يكن »[٢] .

ويقول ابن رجب : « المراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة ، يدل عليه ، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعاً وإن كان بدعة لغة »[٣] .

هذا هو تعريف « البدعة » شرعاً ، أما ورود اللفظة في النصوص الشرعية ؛ فإن معناها يتفق مع المعنى اللغوي .

فمثلاً قوله تعالى :﴿ بديع السموات والأرض﴾[٤] .

قال الطبري :

« يعني – جل ثناؤه – بقوله ﴿ بديع السموات والأرض﴾ مبدعها، وإنما هو مفعل صرف إلى فعيل ، كما صرف المؤلم إلى أليم ، والمسمع إلى

---

(١) الاعتصام ٣٧/١.

(٢) مجموع فتاوى أحمد بن تيمية ١٠٧/٤،١٠٨ .

(٣) جامع العلوم والحكم ص ٢٣٣.

(٤) سورة البقرة ، الآية ١١٧ .

سميع ، ومعنى المبدع المنشيء والمحدث مالم يسبقه إلى انشاء مثله واحداثه أحد ؛ ولذلك سمي المبتدع في الدين مبتدعا ؛ لإحداثه فيه مالم يسبقه إليه غيره ، وكذلك كل محدث فعلاً أو قولاً لم يتقدمه فيه متقدم ؛ فإن العرب تسميه مبتدعا ... » [١] .

وقوله تعالى :

﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾[٢].

قال البغوي :

« أي بديعاً ، مثل نصف ونصيف ، وجمع البدع أبداع ، لست بأول مرسل ، قد بعث قبلي كثير من الأنبياء ، فكيف تنكرون نبوتي » [٣].

وقوله تعالى :

﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ [٤].أي « أحدثوها ما كتبناها عليهم » [٥].

وفي الحديث :

(كيفَ أصنعُ بما أُبدعَ عليَّ منها ، قال انحرها ...) [٦].

فالإبداع هنا هو العطب كما ذكر النووي [٧].، وقال ابن منظور :

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ٤٠٤/١ .

(٢) سورة الأحقاف ، الآية ٩ .

(٣) معالم التنزيل ١٦٤/٤.

(٤) سورة الحديد ، الآية ٢٧.

(٥) انظر جامع البيان في تفسير القرآن ١٣٨/٩.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الحج ، باب ما يفعل بالهدي إذا عطب في الطريق ، رقم (١٣٢٦) .

(٧) صحيح مسلم بشرح النووي ٧٧/٩.

« كأنه جعل انقطاعها عما كانت مستمرة عليه من عادة السير إبداعاً ، أي : إنشاء أمر خارج عما اعتيدَ منها »[(١)].

والخلاصة مما سبق أن البدعة هي إحداث وإيجاد ما لم يكن موجوداً في السابق ، إبداع شيء على غير مثال سابق .

فإن كان في الدين فهو « البدعة » وحكمه التحريم ، فلا يجوز الإبداع في الدين ؛ إذا كان بمعنى إحداث شيء في الدين لم يشرعه الله سبحانه وتعالى ورسوله - ﷺ - .

وإن كان في الأمور الدنيوية ، فالأصل الإباحة إلا لنفي يمنع من الشيء المبدع - ولا يسمى بدعة .

وأنبّه هنا أنه قد يوصف الإنسان أو العمل بالبِدْع والإبداع ، إذا كان غاية في كل شيء ، وهذا جائز في اللغة ، وعلى هذا فيجوز وصف العمل ، أي عمل بالإبداع ، بمعنى تمام الحسن والاتقان والجمال ، ونحو ذلك[(٢)].

وقد ذكرت تعريف البدعة هنا ؛ لأن الإبداع عند الحداثيين يريدون به ما يقارب معنى البدعة في مفهومها الشرعي ، بل يتطابق معها عند أكثرهم ، كما سيتضح في هذا البحث - إن شاء الله تعالى - .

فإبداع الحداثيين زيادة في الدين ، ونقصان منه ، وتحريف له ، وليس تجديداً في الوسائل والأساليب ، أو العلوم الأدبية ونحوها ، كما يتستر بعضهم .

فالإبداع في الوسائل أوسع من غيرها ، إذ أن « الوسائل تختلف

---

(١) لسان العرب ١/١٧٥.

(٢) انظر : لسان العرب ١/١٧٥ .

باختلاف الأمكنة والأزمنة ، ومن القواعد المقررة أن الوسائل لها أحكام المقاصد ، فوسائل المشروع مشروعة ، ووسائل غير المشروع غير مشروعة ، بل وسائل المحرم حرام ، والخير إذا كان وسيلة للشر كان شراً ممنوعا ...» [١].

- الإبداع عند الحداثيين :

الإبداع عند الحداثيين قرين البدعة في مفهومها الشرعي ، إذ أنهم يعنون بالإبداع التجاوز والتغيير ونقد التراث ،فكل عمل أو فكر يدعو إلى ما تدعو إليه الحداثة فهو إبداع .

وهو الإتيان بما لم يكن موجوداً من قبل من مبادىء وأفكار عقدية، وأخلاقية ونحو ذلك ، إلا أنهم يشترطون له أن يأتي المبدع بنقيض الماضي ، وبما يخالف السائد والمألوف .

وقد يريدون بالإبداع إنشاء تأويل - أي تحريف - جديد للنصوص الشرعية ، يخالف ما كانت عليه القرون الأولى المفضلة .

يقول أدونيس :

« .... ، فكل إبداع يتضمن نقداً للماضي الذي تجاوزناه ، والحاضر الذي نغيره ونبنيه ...

وكل إبداع هو إبداع عالم ، فالشاعر الحق هو الذي يقدم لنا شعره عالماً شخصياً ، خاصاً ، لا مجموعة من الانطباعات والتزيينات .

إذن كل إبداع تجاوز وتغيير ...

وكثيراً ما يتداخل الإبداع والبدعة ... والإبداع نبوة » [٢].

---

(١) الإبداع في كمال الشرع وخطر الابتداع ص ١٨ .

(٢) مقدمة للشعر العربي ص ١٠٠ .

ويعرِّف الحداثي محمد عابد الجابري الإبداع الحداثي بأنه « نوع من استئناف النظر ، أصل في المشاكل المطروحة ، لا يقصد حلها حلاً نهائياً – ففي الفلسفة والفكر النظري ليس هناك حلول نهائية – بل من أجل إعادة طرحها طرحاً جديداً ، يدشن مقالاً جديداً ، يستجيب للاهتمامات المستجدة ، أو يحث على الانشغال بمشاغل جديدة .

وبعبارة أخرى إن الإبداع في مجال الفكر النظري عامة هو تدشين قراءة جديدة أصيلة لموضوعات قديمة ... » [1].

وفي موضع آخر يعرِّف الإبداع بقوله :

« إن الإبداع هو بالتعريف ، خلق جديد ، خروج عما هو غريزي ومألوف وسائد ، وتمرد عليه ، أو تجاوز له ، وسمو به ، وهو في جميع الأحوال نتيجة عملية جدلية ، تحتدم في ذات المبدع ، تحركها أسئلة ، أو انفعالات ، أو تطلعات ... والاختلاف في الرأي هو الآخر لحظة ضرورية للتقدم ... »[2].

ويعرف الحداثي العراقي عبدالوهاب البياتي الإبداع بقوله :

« الإبداع يعني التخطي والتجاوز والثورة » [3].

ويعرف الحداثي المغربي محمد بنيس الإبداع بأنه « القدرة على تركيب نص مغاير ، يخترق الجاهز المغلق المستبد »[4] .

ويقول الحداثي عبدالله الغذامي :

---

(١) اشكاليات الفكر العربي المعاصر ص ٥٣ .

(٢) التراث والحداثة ، دراسات ومناقشات ص ١٢٦، ١٢٧.

(٣) أسئلة الشعر ، في حركة الخلق وكمال الحداثة وموتها ص ٢٢٧.

(٤) حداثة السؤال ، بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة ص ١١.

« من شرط الإبداع أن يكون فوق السائد والمألوف ، وهو يرتقي بمقدار تجاوزه لظروفه، مثلما أنه يتناقض بمقدار تماثله مع تلك الظروف»[1].

ويؤكد الحداثي جابر عصفور أن «الإبداع هو نقيض الاتباع»[2].

هكذا يصرّح الحداثيون بأن الإبداع هو التمرد على المألوف والسائد والمعروف ، وأنه نقيض الاتباع ، وأعظم مألوف وسائد هو الدين والخلق والفضيلة .

وتأمل قول جبرا إبراهيم جبرا في تعريفه الإبداع :

« الإبداع من صفته أن يكون غير متوقع ، كلمة (الإبداع) هي أصلاً من البدعة ، شيء جديد... الإبداع يجب أن يكون فيه هذا العنصر غير المتوقع ، الذي يفتح عينيك ، ويدعك تعيد النظر في ما تقرأ ....

الإبداع يجب أن يبقى شيئاً غير مألوف أصلاً ، سيبقى الإبداع ميزة المتفرد بين القلائل ... ، الصفة هي الجرأة في رؤية المستقبل أو الماضي ، الجرأة في تناول المحرمات .

أنا أقول : إن العقل العربي لألف سنة درب على أن تسعين بالمائة من أشياء الحياة محرم، يجب ألا يمسه، ألا يفكر فيه ، ألا يحاول أن يفهمه.

أنا أقول : لا ، كل شيء قيل لك إنه محرم حاول أن تفهمه ، وحاول أن تمسه ، اخترقه ، حينئذ قد تأتي بشيء يكون إضافة إلى إبداعنا الذي نبحث عنه ، ولكن بدون حرية لا إبداع ، والإبداع لا يأتلف مع الخوف ...»[3].

---

(١) صحيفة عكاظ ع ٧٥٦٦، ١٦-٦-١٤٠٧هـ ، ص ٧ .

(٢) قضايا وشهادات ٢/٣٦٦.

(٣) قضايا الشعر الحديث ص ١٩٠ ، ١٩١.

ويقرر أدونيس أن ما أطلق عليه المسلمون « البدعة » هو الإبداع الذي يجب تشجيعه ، وأن من أطلق عليهم « أهل الابتداع والأهواء » في تاريخ المسلمين هم أصحاب « الاتجاه المبدع» ؛ ولهذا فإن قمعهم من قبل « الفئات السائدة » كان « إيذاناً بانطفاء التوهج الجدلي داخل المجتمع ، وسيطرة الواحدية الاتباعية ، أي أنه كان بداية الانحلال من داخل ؛ مما كان مقدمة طبيعية للانحطاط »[1] !! .

---

(١) انظر : الثابت والمتحول ١/٢٦ ، ٢٧ .

٧- البنيوية :

يقول الحداثي السوري كمال أبو ديب في تعريفه « البنيوية » :

« ليست البنيوية فلسفة ، لكنها طريقة في الرؤية ، ومنهج في معاينة الوجود ؛ ولأنها كذلك فهي تثوير جذري للفكر وعلاقته بالعالم ، وموقعه منه وبإزائه ... ، تغيّر الفكر المعاين للغة والمجتمع والشعر ، وتحوله إلى فكر متسائل ، قلق ، متوثب ، مكتنه ، متقصّ ، فكر جدلي شمولي في رهافة الفكر الخالق ، وعلى مستواه من اكتمال التصور والإبداع ... .

بهذا التصور ، وبالاصرار عليه يكون هذا الكتاب ... طموحاً... إلى تغيير الفكر العربي في معاينته للثقافة والإنسان والشعر ، إلى نقله من فكر تطغى عليه الجزئية والسطحية والشخصانية إلى فكر يترعرع في مناخ الرؤية المعقدة ، المتقصية ، الموضوعية ، والشمولية والجذرية في آن واحد »[١].

ويقول عبدالفتاح الديدي :

« البنيوية من الاتجاهات الفكرية الفرنسية ، التي حلّت محل الوجودية ، وشاعت على ألسنة المفكرين في كل مكان .

وهي تهتم بدراسة البناء ، الذي تعتمد عليه العمليات الفكرية ، سواء من ناحية البناء النفسي ، أو البناء اللغوي .

والبنيوية من الفلسفات التي استطاعت أن تغزو المجالين الجامعي وغير الجامعي »[٢].

---

(١) جدلية الخفاء والتجلي ، دراسات بنيوية في الشعر ص ٧، ٨ .

(٢) مجلة الفيصل ع ١٥٨ ، شعبان ١٤١٠هـ ، ص ٥٣ .

ويعرف الحداثي المصري صلاح عبدالصبور البنيوية بقوله :

« البنيوية ... مذهب فكري معاصر ، يحاول رؤية المجتمعات والأعمال الفنية واللغة والأدب من خلال الأبنية التي يتألف منها »[١].

والبنيوية من المناهج الحداثية لدراسة النصوص ، والظواهر، ويتشدق بها الحداثيون في العالم العربي كثيراً ، ويختفي بعضهم خلف شعارها خوفاً من الوصف بالحداثة ، الذي انكشف أمرها ، كما صرح بذلك الحداثي السعودي عبدالله الغذامي [٢].

والذي أشير إليه هنا أن « البنيوية » منهج مرتبط بالماركسية ، بل هي منهج من مناهج الماركسية في نقد التأريخ وتحليل أحداثه .

يقول محمد خضر عريف :

« إن ارتباط البنيوية ارتباطاً عضوياً بالماركسية نظرياً وتطبيقياً لا يخفى على أحد من النقاد العرب والغربيين »[٣].

وقد يدعي بعض الحداثيين أنهم يأخذون من البنيوية تطبيقاتها المجردة ، دون التأثر بفلسفتها الفكرية الماركسية ، وهذا الادعاء غير صحيح؛ إذ البنيوية تأخذ من الماركسية تطبيقاتها التحليلية ، وليس الفلسفية فقط.

يقول جوناثان كولر ، الناقد الامريكي :

« إن من أهم الانتقادات التي توجه إلى البنيوية هي أنها تستعمل باستمرار مفاهيم وأفكاراً من حقول أخرى كثيرة من أجل الهيمنة

---

(١) المصدر السابق ع ٤٧ ، ص ٥٩ .

(٢) انظر : مجلة اقرأ ، ع ٦٦٦ ، ١٤٠٨/٨/٢٧هـ ، ص ١٧ .

(٣) الحداثة مناقشة هادئة لقضية ساخنة ص ٦٧ .

على الأدب ، من هذه الحقول : الألسنية ، الفلسفة ، علم الإنسان ، التحليل النفسي ، والماركسية »[1].

ومن مفاهيم البنيوية ، (إعداة كتابة القارىء للنص)، أو ما يعبرون عنه بالنص المفتوح ، أو « موت المؤلف » ، وهو أن لكل قارىء للنص الواحد أن يفهمه كما يشاء ، فالنص الواحد له من المعاني بعدد قارئيه ، فليس لأحد أن يجبر القراء على فهم واحد للنصوص ، سواء كانت شرعية أو وضعية .

وهذا منهج ماركسي كما صرح بذلك الناقد الامريكي جوناثان كولر[2].

يقرر الحداثي عبدالسلام المسدّي ، وزير التعليم العالي بتونس ، «أن النص الواحد يمكن أن يفهم بوجوه مختلفة ومتعددة ، بعيداً عن مراد قائله » .

وحاول إثبات فكرة « أن الانسان لا يفكر إلا من خلال اللغة ، فلولا الأداة اللغوية لم يكن للإنسان فكر ...، وذكر أن المخالفين يرون أن الأبكم يفكر ولو لم تكن لديه الأداة اللغوية ، ثم رفض مقولة هؤلاء ، وأثبت صحة أن اللغة موجودة أولاً ، ثم يفكر الإنسان في ظلالها ، وكانت هذه الفكرة تمهيداً لإطلاق المقولة الحداثية ، التي يقول فيها دعاتها : إن النص الواحد ينبغي أن يكون له من المعاني بعدد قرائه »[3].

يقول عبدالرحمن حبنكة الميداني بأن « هذه الفكرة الحداثية أخطر من فكرة الباطنية ... ، التي تجعل للنص ظاهراً وباطناً ، فالظاهر ما يفهم من النص ... ، والباطن ما يفهمه الباطني ، حسب أهواء المكر الباطني .

---

(١) النظرية والنقد بعد البنيوية ص ١٩ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٣٨ .

(٣) انظر : صحيفة الندوة ع ٩٤٥٢ ، ١٤١٠/٧/٢٦هـ ، ص ١٥ .

هذه الفكرة الحداثية ... تطلق لكل ذي هوى أن يفهم النص على ما يريد ، ويفضي هذا إلى التلاعب الخطير بالنصوص ...، وقد يصل إلى التلاعب بالنصوص الدينية في كلام الله ، وأقوال رسول الله - ﷺ - بدعوى أن النص تراث قائم بذاته ، قابل لأن يكون له مفاهيم مختلفة باختلاف ادراكات الناس ، وتعدد أشخاصهم »[1].

وكذلك ذكر محمد عبدالله مليباري أن الحداثيين يدّعون « أن لكل قارئ من القراء ، سواء كان ناقداً ، أو عادياً ، قراءته للأثر الحداثي ، وهو قول يعطي مجالاً كبيراً لكشف الانهيار القيمي في أي تجربة من تجاربهم كما يعطي مجالاً للمكبرين والمهللين لآثارهم ، ولإعطاء التجربة أكثر مما تستحقها ، من هيول وتعظيم وإشادة ، وهو ما يمارسه الآن قراء الحداثة النقاد ، وما قصة (انتهت) الكلمة التي وضعها عامل المطبعة في ذيل نص حداثي ، وتركيز ناقد من نقادهم عليها ، عنا ببعيد »[2].

ويقول الناقد الامريكي جوناثان كولر ، أثناء حديثه عن مفهوم (النص المفتوح) :

« إن لهذا المفهوم أبعاده وتأثيراته الكبيرة ، وذلك للتباين الفكري بين قارئ وآخر في قراءة نص ما ، واعتماد ذلك على اختلاف التقاليد والأعراف بين قارئ وآخر ، مما يثير بالضرورة تساؤلات سياسية وعقدية ، فإذا كان القارئ يعيد كتابة النص (حيث يبنيه بالطريقة التي تحلو له) ، وإذا كانت المحاولات لإعادة كتابة ما يعنيه المؤلف تعتبر فقط نوعية خاصة

---

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) المرجع نفسه ، ع ٨٤٨٧ ، ١٤٠٧/٥/٢٨هـ ، ص ٣.

من إعادة الكتابة لنص ما ؛ فإن أي قراءة ماركسية لأي نص (يعيد بناءه القارىء) لا تصبح بعد ذلك تحريفاً غير شرعي ، بل عملية شرعية جداً ، ومظهراً أدبياً عادياً »[1].

إذن لا شك في خطورة هذا المنهج البنيوي الحداثي ، الذي يتلاعب بالنصوص ، حسب الأذواق والأهواء والاتجاهات المختلفة ، والخطر أعظم إذا علمنا أنهم لا يفرقون في ذلك بين النصوص الشرعية والوضعية .

لا سيما وأنهم يغفلون المعنى الأول المراد من تلك النصوص [2].

وصدق الميداني حين قال عن هذه النظرية :

« إنها مقولة ساقطة ، ذات هدف معين ، يقصد منه في المكر العالمي ، تدمير المبادىء والقيم والمفاهيم ، ودلالات النصوص الدينية ، وإشاعة الفوضى الفكرية في فهم النصوص التراثية »[3].

وممن عُرف بهذه النظرية ، ودعا إليها الحداثي المصري صلاح فضل ، فهو يقول في أحد كتبه :

« يتصل بمشكلة الشخصية في القصة مشكلة الذي يقدمها ، فمن هو خالق القصة : هناك سلسلة من الإجابات المتعددة عن هذا السؤال ، أقربها إلى المألوف ما يقوله الناس عادة من أن خالق القصة هو المؤلف ، هو هذا الشخص بالذات المسمى بكذا ، والذي يمسك بالقلم ويكتب قصة كذا... ، ومن هنا يجيء الخلط بين شخص المؤلف وفنه ، الذي لا يعتبر في

---

(١) النظرية والنقد بعد البنيوية ص ٣٨ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ١٩، ٢٠.

(٣) صحيفة الندوة ، ع ٩٤٥٢ ، ١٤١٠/٧/٢٦هـ ص ١٥ .

هذه الحالة سوى تعبير عن (الأنا) ، أو عن الذات الخارجة على القصة والمستقلة عنها ... .

ولا يُخفي البنائيون ضيقهم من جميع هذه التصورات ، ويرمونها بالخلط والتشويش ، فهم يعمدون أولاً إلى التمييز بين راوي القصة ومؤلفها ؛ فإذا كانت كل التصورات السابقة تحيل إلى الواقع ، وتتخذه مقياساً للتحليل ؛ فإن هذا ما ينبغي استبعاده بالذات في رأيهم ... فالذي يتحدث في القصة ليس هو الذي يكتب سطورها ، وليس هو الشخص الموجود خلف المكتب ممسكاً بالقلم ، وإنما تخضع لقوانين الرمز السميولوجية »[1].

وهذه النظرية من النظريات الحداثية المعروفة بين الحداثيين ، فلا يكاد يسلم منها أحد منهم ؛ إذ هي منهج من أهم المناهج الحداثية .

يقول عبدالله الغذامي :

« الكاتب هو أم (أبو) النص ، وهذه وظيفته ، وهي وظيفة لا يجوز أن تمتد إلى أبعد من ذلك لتصبح ضربة لازب على النص ، بحيث لا يكون له وجود مستقبلي إلا بها ، طبعاً لا ، فالنص بعد إنشائه يستقل بوجود خاص به ، ويستطيع أن يكون حراً تام التحرر عن صاحبه ... ، ومن هنا نلمس مدى استطاعة النص على الاستقلال في وجوده ، وهذا ما يقضي على مفهوم (نية المؤلف) ؛ لأن نية المؤلف قيمة ثانوية لا تقل على ملاحقة النص إذا ما أراد النص الشرود عنها »[2].

---

(١) نظرية البنائية في النقد الأدبي ص ٢٣٤-٢٣٦.

(٢) الموقف من الحداثة ومسائل أخرى ص ٨٧ .

المطلب الثاني

التجديد الصحيح وضوابطه

لا بد عند الحديث عن التجديد الصحيح أن نستعرض ما ورد في القرآن الكريم والسنة الشريفة ، ثم أقوال السلف الصالح حول هذا الموضوع، ومن ثَمّ نصل إلى مفهوم التجديد الصحيح وضوابطه .

التجديد كما ورد في القرآن الكريم

كلمة (التجديد) بهذا اللفظ لم ترد في القرآن الكريم ، وإنما ورد لفظ (جديد) ، وهو لفظ قريب من التجديد في لفظه ومعناه .

وهذه الآيات هي :

١- قال تعالى :﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أءذا كنا تراباً أءنا لفي خلق جديد ﴾ [١] .

قال الطبري : « يقول تعالى ذكره وإن تعجب يا محمد من هؤلاء المشركين المتخذين مالا يضر ولا ينفع آلهة يعبدونها من دوني فعجب قولهم : أئذا كنا تراباً وبلينا فعدمنا أئنا لفي خلق جديد ، إنا لمجدد إنشاؤنا وإعادتنا خلقاً جديداً كما كنا قبل وفاتنا ؛ تكذيباً منهم بقدرة الله ...» [٢].

٢- قال تعالى : ﴿ ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ [٣] .

---

(١) سورة الرعد ، الآية ٥ .

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن مج ٦ ج١٣/٦٩ .

(٣) سورة ابراهيم ، الآية ١٩ .

أي إن الذي تفرد بخلق ذلك وإنشائه من غير شريك إن شاء أذهبكم وأفناكم وأتى بخلق آخر سواكم مكانكم فيجدد خلقهم [1].

٣- قال تعالى: ﴿ وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتاً أءنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ [2].

قال الطبري : « قالوا إنكاراً منهم للبعث بعد الموت :إذا لمبعوثون بعد مصيرنا في القبور عظاماً غير منحطمة ، ورفاتاً منحطمة ، وقد بلينا فصرنا فيها تراباً ، خلقاً منشأ كما كنا قبل الممات جديداً نعاد كما بدئنا ... » [3].

٤- قال تعالى : ﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أءذا كنا عظاماً أءنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ [4].

قال الطبري : « يقولون : أئذا كنا عظاماً بالية ورفاتاً قد صرنا تراباً ، أنبعث بعد ذلك خلقاً جديداً كما ابتدأناه أول مرة في الدنيا » [5] .

٥- قال تعالى : ﴿ وقالوا أءذا ضللنا في الأرض أءنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ [6] .

قال ابن كثير : « يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا : (أئذا ضللنا في الأرض) أي تمزقت أجسامنا وتفرقت

---

(١) انظر جامع البيان في تفسير القران مج ٦ج١٢/١٣٢.

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٤٩ .

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن مج ٧ ج ١٥/٦٨.

(٤) سورة الإسراء ، الآية ٩٨.

(٥) جامع البيان في تفسير القرآن مج ٧ج١٥/١١٣.

(٦) سورة السجدة ، الآية ١٠.

في أجـزاء الأرض وذهبت (أئنا لفي خلق جديد) أي أئنا لنعـود بعـد تلك الحـال ؟ ؛ يستبـعدون ذلك ، وهذا إنما هو بعيـد بالنسبـة إلى قـدرهم العاجزة، لا بالنسبة الى قدرة الذى بدأهم وخلقهم من العدم ...» [١].

٦- قـال تعـالى : ﴿ وقـال الذين كـفـروا هـل ندلكم على رَجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ﴾[٢].

قـال الشـوكاني : « أي تـخلقـون خلقـاً جديداً ، أو تبعـثـون من قبوركم أحياء ، وتعودون إلى الصور التي كنتم عليها » [٣].

٧- قـال تعـالى : ﴿ يا أيـهـا النـاس أنـتـم الـفـقـراء إلى الله والله هو الغـني الحـميـد ، إن يشأ يذهبكـم ويأت بخلق جديـد ﴾[٤] .

أي إن يشــأ الله – عـزوجل – يفنكم ويأت بدلكم بخلق جـديد يطيعونه ولا يعصونه [٥].

٨- قال تعالى :﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هـم في لبس مـن خلق جديـد ﴾ [٦] .

أي أفـعـجـزنا بالخلق حين خلقناهم أولاً ولم يكونوا شيـئـاً،فكيف نعـجـز عن بعـثـهم ؛ بل إن منكري البـعث في شك وحـيـرة من خلق جـديد

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٤٥٧.

(٢) سورة سبأ، الآية ٧.

(٣) فتح القدير ٤/٣١٣ .

(٤) سورة فاطر ، الآيتان ١٥، ١٦ .

(٥) انظر فتح القدير ٤/٣٤٥ .

(٦) سورة ق، الآية ١٥.

مستأنف وهو بعث الأموات [١].

يقول محمد الأمين الشنقيطي : « هذه الآية الكريمة من براهين البعث ؛ لأن من لم يعي بخلق الناس ولم يعجز عن إيجادهم الأول لا شك في قدرته على إعادتهم وخلقهم مرة أخرى ؛ لأن الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من البدء ... » [٢].

هذه هي الآيات التي ورد فيها لفظ (جديد) ، وكما هو واضح من كلام المفسرين - الذي نقلت بعضه - ؛ فإن معناه في الآيات : البعث والإعادة ، إعادة الأجساد بعد ما خلقت وبليت وتمزقت إعادة وخلقاً منشأ كما كانت قبل الممات .

وقريب من لفظ (جديد) وردت كلمة (جُدَد) في القرآن الكريم ، قال تعالى :﴿ ... ومن الجبال جُدَدٌ بيض وحُمْرٌ مختلف ألوانها وغرابيب [٣] سود﴾ [٤].

ومعنى (جُدد) : طرائق ، وهي الخطط تكون في الجبال بيض وحمر وسود واحدتها جدَّة [٥] .

وكذلك كلمة (جَدّ) ، قال تعالى :﴿ وأنه تعالى جَدُّ ربنا ما

---

(١) انظر : فتح القدير ٧٣/٥ .

(٢) أضواء البيان ٦٤٧/٧ .

(٣) غرابيب : جمع غِرْبيب وهو شديد السواد .
انظر : المفردات في غريب القرآن ص ٣٥٩ .

(٤) سورة فاطر ، الآية ٢٧.

(٥) انظر : جامع البيان في تفسير القرآن مج ١٠ج ٨٦/٢٢ .

اتخذ صاحبة ولا ولدا ﴾[1].

ومعنى (جَدّ) : العظمة والقدرة والسلطان [2].

قال الراغب الأصفهاني :

« الجَدُّ قطع الأرض المستوية ، ومنه جَدَّ في سيره يَجِدُّه جَدّاً ، وكذلك جَدَّ في أمره ... .

وثوب جديد أصله المقطوع ، ثم جُعل لكل ما أحدث إنشاؤه ، قال تعالى :﴿ بل هم في لبس من خلق جديد ﴾.[3] إشارة إلى النشأة الثانية، وذلك قولهم : :﴿ أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد ﴾[4]وقوبل الجديدُ بالخلقلما كان المقصود بالجديد القريب العهد بالقطع من الثوب ، ومنه قيل الليل والنهار : الجديدان والأجَدَّان ، قال تعالى : :﴿ ...ومن الجبال جُدَدٌ بيض ... ﴾[5].جمع جُدَّة أي طريقة ظاهرة ، ومن قولهم طريق مجدود أي مسلوك مقطوع ... .

قال تعالى :﴿ وأنه تعالى جَدُّ ربنا .. ﴾،[6]قيل عظمته ... ، وسمي ما جعل الله تعالى للإنسان من الحظوظ الدنيوية جَدّاً ...، والجَدُّ أبو الأب وأبو الأم » .[7]

---

(١) سورة الجن ، الآية ٣ .

(٢) انظر جامع البيان في تفسير القرآن مج ١٢ ج ٦٦/٢٩ .

(٣) سورة ق ، الآية ١٥ .

(٤) سورة ق ، الآية ٣ .

(٥) سورة فاطر ، الآية ٢٧.

(٦) سورة الجن ، الآية ٣ .

(٧) معجم مفردات ألفاظ القرآن ص ٨٦ ، ٨٧ .

التجديد كما ورد في السنة

السنة الشريفة هي التي حددت المفهوم الشرعي للتجديد الصحيح وضوابطه ، وقد وردت أحاديث كثيرة حول موضوع التجديد ، ولمعَان عدة .

لذا سأستعرض في هذا المقام بعض المعاني الواردة وأدلتها في السنة وأقوال بعض السلف الصالح ثم انتهي إلى مفهوم التجديد الصحيح.

ومن تلك المعاني مايلي :

١- البعث والإحياء والإعادة

عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله - ﷺ - :

«إن الإيمان ليَخلَقُ في جَوفِ أحدكم كما يَخلقُ الثوب : فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم»(١).

فالإيمان يبلى ويضعف في قلب المرء من أثر الشبهات والشهوات، كما يبلى الثوب ويخلق ، فمن الواجب عند ذلك أن يسأل الله إحياء الإيمان وبعثه وإعادته جديداً في قلبه .

قال المناوي : « إن الإيمان ليخلق : أي يكاد أن يبلى في جوف

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ، كتاب الإيمان ، باب الأمر بسؤال تجديد الإيمان، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص . وقال الحاكم : رواته مصريون ثقات ، ووافقه الذهبي، انظر : المستدرك ٤/١ .
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥٢/١ : « واسناده حسن » وعزاه إلى الطبراني في الكبير عن عبدالله بن عمر بن الخطاب . وقال المناوي في فيض القدير ٣٢٤/٢ : قال العراقي في أماليه حسن من طريقيه ،
ورمز له السيوطي بالصحة ، انظر الجامع الصغير ص ٧٨ .
وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ح ١٥٨٥ ، ١١٣/٤ .

أحدكم أيها المؤمنون كما يخلق الثوب ، وصفه على طريق الاستعارة ، شبه الإيمان بالشيء الذي لا يستمر على هيئته ، والعبد يتكلم بكلمة الإيمان ثم يدنسها بسوء أفعاله ، فإذا أعاد واعتذر فقد جدد ما أخلق ، وطهر ما دنس »[١].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال:قال رسول الله – ﷺ – :

«« لا تسبوا الدهر ؛ فإن الله – عز وجل – قال : أنا الدهر ، الأيام والليالي لي أجددها وأبليها وآتي بملوك بعد ملوك »»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه – عن النبي–ﷺ – قال: **««إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»»[٣].**

---

(١) فيض القدير ٢/٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند من طريق هشام بن سعد عن زيد بن أسلم ٢/ ٤٩٦ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٧١ : رجاله رجال الصحيح . وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ح ٥٣٢ ، ٢/٥٨ ، والحديث في صحيح البخاري برواية (قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار) .في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى (يريدون أن يبدلوا كلام الله) ٨/١٩٧ ، وفي صحيح مسلم كتاب الألفاظ ، باب النهي عن سب الدهرح (٢) (٢٢٤٦) ٤/١٧٦٢.

(٣) رواه أبو داود ، أول كتاب الملاحم ، باب ما يذكر في قرن المائة ٤/٤٨٠ . ورواه الحاكم في المستدرك ٤/٥٢٢ ، ورواه الخطيب في تاريخ بغداد ٢/ ٦١، ٦٢ . وكذلك ابن عساكر في تبيين كذب المفترى ص ٥١ ، ٥٢ ، وقال المناوي في فيض القدير ٢/٢٨٢ : رواه الطبراني في الأوسط بسند رجاله ثقات . ورمز له السيوطي بالصحة في الجامع الصغير ص ١٤٣ . وقال السخاوي في المقاصد الحسنة ص ١٢١ . ١٢٢ : وقد اعتمد الأئمة هذا الحديث ،ورواه البيهقي في معرفة السنن والآثار ١/١٣٧.
وانظر : كشف الخفاء ١/٢٤٣ . وطبقات الشافعية للسبكي ١/١٠٥ – =

وتجديد الدين هو إحياؤه وبعثه وإعادته جديداً بعد أن بلي وضعف في القلوب ، « والتجديد إنما يكون بعد الدروس »[(١)].

وقال ابن مسعود – رضي الله عنه – « كونوا ينابيع العلم ، مصابيح الهدى ، أحلاسَ[(٢)] البيوت ، سرج الليل ، جدد القلوب ، خلقان الثياب ، تعرفون في أهل السماء وتخفون على أهل الأرض »[(٣)].

وحينما احترق البيت الحرام زمن يزيد بن معاوية ، استشار عبدالله بن الزبير – رضي الله عنهما – الناس في بناء الكعبة فأشار عليه عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – أن يصلح ما احترق منها ، فقال عبدالله بن الزبير : « لو كان أحدكم احترق بيته ما رضي حتى يُجِدَّه فكيف بَيْتُ ربكم »[(٤)] .

و (يجده) : أي يجدده بأن يعيده إلى حالته الأولى قبل أن يحترق .

قال النووي : « هكذا هو في أكثر النسخ يُجِدُّه بضم الياء وبدال واحدة ، وفي كثير منها يجدد بدالين وهما بمعنى »[(٥)].

= ١٠٧ . وتوالي التأسيس ص ٤٧ ، ٤٨ ، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ح ٥٩٩ ، ١٥٠/٢ .

(١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٩٧/١٨ .

(٢) أحلاس : جمع حلس ، وهو كساء يوضع على ظهر البعير ، ووجه الشبه الملازمة والمداومة ، ويقال فلان حلس بيته إذا لزمه ولم يبرحه ، والمراد الزموا بيوتكم عند الفتن ولا تفارقوها .
انظر : لسان العرب ٦٩٥/١ .

(٣) أخرجه الدارمي في سننه ، المقدمة ، باب العمل بالعلم وحسن النية ٨٠/١ .

(٤) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الحج ، باب نقض الكعبة وبنائها ح ٤٠٢ (١٣٣٣) ٩٧٠/١ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ٩٣/٩ .

٢- الجد والاجتهاد والاهتمام

عن زيد بت أسلم عن أبيه قال : (سألني ابن عمر عن بعض شأنه - يعني عمر - فأخبرته فقال : ما رأيت أحداً قط بعد رسول الله - ﷺ - من حين قبض كان أجدُّ وأجودَ حتى انتهى من عمر بن الخطاب) [(١)].

قال ابن حجر : « قوله (أجَدّ) بفتح الجيم والتشديد أفعل من جد إذا اجتهد ، وأجود أفعل من الجود ، وقوله (بعد رسول الله - ﷺ -) : يحتمل أن يكون المراد بالبعدية في الصفات ، ولا يتعرض فيه للزمان ، فيتناول زمان رسول الله - ﷺ - وما بعده ، فيشكل بأبي بكر الصديق وبغيره من الصحابة ممن كان يتصف بالجود المفرط ، أو بعد موت رسول الله - ﷺ - فيشكل بأبي بكر الصديق أيضاً ، ويمكن تأويله بزمان خلافته .

وأجود أفعل من الجود ، أي لم يكن أحد أجد منه في الأمور ولا أجود بالأموال ، وهو محمول على وقت مخصوص وهو مدة خلافته ليخرج النبي - ﷺ - وأبو بكر من ذلك » [(٢)].

وعن ابن عمر قال : (إن رسول الله - ﷺ - كان إذا جدُّ به السير جمع بين المغرب والعشاء) [(٣)].

قوله (إذا جدّ به) : أي اهتم به وأسرع فيه ، يقال جدّ في الأمر وأجد : إذا اجتهد [(٤)].

---

(١) رواه البخاري ، كتاب فضائل الصحابة ، باب (٦) مناقب عمر ٤/٢٠٠ .

(٢) فتح الباري ٧/٤٩.

(٣) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب (٥) جواز الجمع بين الصلاتين في السفر ١/٤٨٨ ح ٤٣ (٧٠٣) .

(٤) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٢٤٤.

٣- توثيق العهد وتوكيده

عن ابن عباس رضي الله عنهما – عن النبي – ﷺ – قال : (لا حلف في الإسلام ، وما كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة وجدّه) [١].

قال النووي : « وأما المؤاخاة في الإسلام والمحالفة على طاعة الله تعالى ، والتناصر في الدين والتعاون على البر والتقوى ، وإقامة الحق ؛ فهذا باق لم ينسخ ، وهذا معنى قوله – ﷺ – في هذه الأحاديث : (وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة) ، وأما قوله – ﷺ – (لا حلف في الاسلام) فالمراد به حلف التوارث ، والحلف على ما منع الشرع منه » [٢].

٤- الحظ والغنى والعظمة

كان الرسول – ﷺ – يقول في دبر كل صلاة مكتوبة : «« لا إله **إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدُّ »** [٣].

أي لا ينفع ذا الغنى والعظمة منك غناه وعظمته ، وإنما ينفعه الإيمان والطاعة [٤].

---

(١) رواه الدارمي في سننه ، كتاب السير ، باب لا حلف في الإسلام ٢٤٣/٢. ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب فضائل الصحابة ١٩٦٠/٤، ١٩٦١، بدون زيادة (وجدة)، ورواه أبو داود ، كتاب الفرائض ، باب في الحلف ٢٣٨/٣.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٨٢/١٦ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الأذان ، باب (١٥٥) الذكر بعد الصلاة ٢٠٥/١،ورواه مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ح١٣٧(٥٩٣) ، ٤١٤/١.

(٤) انظر:النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٤٤/١، وانظر فتح الباري ٣٣٢/٢.

وقوله – ﷺ – : «« قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين وأصحاب الجد محبوسون ... »»[١].

وأصحاب الجد هم ذوو الحظ والغنى[٢].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب (٥١) صفة الجنة والنار ٧/ ٢٠٠، ورواه مسلم ، كتاب الذكر ، باب (٢٦) أكثر أهل الجنة الفقراء ح ٩٣ (٢٧٣٦) ، ٢٠٩٦/٤ .

(٢) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٤٤/١ ، وانظر فتح الباري ٤٢٠/١١ .

أقوال أهل العلم في تعريف التجديد الصحيح

اختلفت عبارات السلف وتباينت ألفاظهم في تعريف التجديد ، والمجدد ؛ وذلك بناء على فهمهم لأوفى وأشمل وأدق الأحاديث في هذا الباب ، وهو قوله – ﷺ – :«« **إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها** »»[١].

على أن تلك العبارات والألفاظ تتفق في المقصود والمراد من التجديد .

وأقوالهم في تعريف التجديد كثيرة ، أجملها فيما يلي :

الأول : – تعليم الدين وإحياء السنن ، ونفي الكذب عن النبي – ﷺ –.

قال الإمام أحمد بن حنبل : « إن الله يقيض للناس في كل رأس مائة سنة مَنْ يعلم الناس السنن وينفي عن النبي – ﷺ – الكذب »[٢].

وعن عبدالملك الميموني[٣]، قال : « كنت عند أحمد بن حنبل فجرى ذِكر الشافعي فرأيت أحمد يرفعه وقال : روى عن النبي – ﷺ – يقول : «« **إن الله – تعالى – يقيض في رأس كل مائة سنة من يعلم الناس دينهم** »» فكان عمر بن عبدالعزيز على رأس المائة الأولى ، وأرجو أن يكون الشافعي على رأس المائة الأخرى »[٤].

الثاني : – تصحيح الدين ، والمناضلة عن عقيدة الموحدين ،

---

(١) سبق تخريجه ، ص٧٤ .

(٢) انظر : تاريخ بغداد ٦٢/٢. وتوالي التأسيس لمعالي محمد بن أدريس ص ٤٧.

(٣) هو الإمام العلاّمه الحافظ ، الفقيه أبو الحسن عبدالملك بن عبدالحميد الميموني ، تلميذ الإمام أحمد ، مات في شهر ربيع الأول سنة ٢٧٤ هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ٨٩/١٣ ، ٩٠ .

(٤) توالي التأسيس ص ٤٧ ، وتبيين كذب المفتري ص ٥٢ .

وتبيين السنة ونصرة أهلها ، وقمع البدعة وإذلال أهلها .

قال المناوي : « أي يبين السنة من البدعة ، ويكثر العلم ، وينصر أهله ، ويكسر البدعة ويذلهم ، قالوا : ولا يكون إلا عالماً بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة »[1].

وقال السيوطي في وصف المجدد :

« يشار بالعلم إلى مقامه وينصر السنة في كلامه »[2].

وقال ابن عساكر عند ذكره للمبعوث على رأس المائة الثالثة :

«وقول من قال : إنه أبو الحسن الأشعري أصوب لأن قيامه بنصرة السنة إلى تجديد الدين أقرب فهو الذي انتدب للرد على المعتزلة وسائر أصناف المبتدعة المضللة ، وحالته في ذلك مشتهرة ، وكتبه في الرد عليهم منتشرة»[3].

وقال السبكي :

« وقال آخرون إنما المبعوث على رأس المائة الثالثة أبو الحسن الأشعري ؛ لأنه القائم في أصل الدين ، المناضل عن عقيدة الموحدين ، والسيف المسلول على المعتزلة المارقين المغبر في أوجه المبتدعة المخالفين ... »[4].

وعن الامام أحمد بن حنبل قال :

« يروى في الحديث أن الله تبارك وتعالى يبعث على رأس كل مائة سنة من يصحح لهذه الأمة دينها » .[5]

---

(١) فيض القدير ٢/٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٢) التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة ص ٧٤ .

(٣) تبيين كذب المفترى ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ١/١٠٥ .

(٥) صفة الصفوة ٢/١٣، ٢٥٠.

الثالث :- إحياء ما ضعف واندرس من معالم الدين ، وما ذهب من أمور السنة ، وما خفي من علوم العقيدة والعبادة .

« ولولا ضمان الله بحفظ دينه ، وتكفله بأن يقيم له من يجدد أعلامه ، ويحيي منه ما أماته المبطلون ، وينعش ما أخمله الجاهلون ؛ لهدمت أركانه ، وتداعى بنيانه ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » (١).

يقول المناوي :

« يجدد لهذه الأمة أمر دينها : أي ما اندرس من أحكام الشريعة وما ذهب من معالم السنن ، وخفي من العلوم الدينية الظاهرة والباطنة حسبما نطق به الخبر ... » (٢).

ويقول أبو سهل الصعلوكي عن التجديد :

« أعاد الله هذا الدين بعدما ذهب يعنى أكثر بأحمد بن حنبل ... » (٣).

وقال بعضهم : « تجديد الدين يعنى إعادة نضارته ورونقه وبهائه وإحياء ما اندرس من سننه ومعالمه ، ونشره بين الناس » (٤).

الرابع :- إحياء العلم بنقله عن السلف من جيل إلى جيل نقياً سليماً وحفظه من التحريف والانتحال (٥).

جاء في الحديث : (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) (٦).

---

(١) مدارج السالكين ٧٩/٣ .

(٢) فيض القدير ١٠/١، وانظر بذل المجهود ٢٠١/١٧ ، ٢٠٢ ، وعون المعبود ١٧٨/٤ .

(٣) انظر : تبيين كذب المفتري ص ٥٣ .

(٤) التجديد في الإسلام ٣٩/١ .

(٥) انظر : شمائل الرسول ودلائل نبوته ﷺ ص ٤٩٥ .

(٦) انظر: شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي ص ١١ ، ومشكاة =

وأشار الكرماني إلى أن التجديد هو تصحيح الدين والقيام بأمره [١].

وقال غيره بأن التجديد هو الانتصاب لنشر الأحكام والتصدي لنفع الأنام .[٢]

الخامس :إحياء العمل بالكتاب والسنة في جميع شؤون الناس ومجالات الحياة ، وإخضاع المستجدات لما جاء فيهما .

قال العلقمي :

« معنى التجديد: إحياء العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما » [٣].

ويقول ابن الأثير في معرض كلامه عن التجديد :

« .. ، إذ الأصل في حفظ الدين حفظ قانون السياسة ، وبث العدل والتناصف الذي به تحقن الدماء ويتمكن من إقامة قوانين الشرع » [٤] .

ويقول المناوي :

« وذلك لأنه سبحانه لما جعل المصطفى - ﷺ - خاتمة الأنبياء والرسل ، وكانت حوادث الأيام خارجة عن التعداد ، ومعرفة أحكام الدين لازمة إلى يوم التناد ، ولم تف ظواهر النصوص ببيانها ؛ بل لا بد من طريق واف بشأنها اقتضت حكمة الملك العلام ظهور قوم من الأعلام في غرة كل قرن ليقوم بأعباء الحوادث إجراء لهذه الأمة مع علمائهم مجرى بني اسرائيل مع أنبيائهم ...» .[٥]

= المصابيح ٨٢/١ . وقال الألباني « الحديث مرسل ... ، وقد روى موصولاً من طريق جماعة من الصحابة ، انظر : حاشية مشكاة المصابيح ٨٢/١ ، ٨٣ .

(١) انظر: فيض القدير ١٢/١ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) فيض القدير ٢٨١/٢ وانظر عون المعبود ١٧٨/٤ .

(٤) جامع الأصول ٣٢٠/١١ ، ٣٢١ .

(٥) فيض القدير ١٠/١ .

السادس : تأصيل العلم الشرعي ، ودعوة الناس إلى أخذ الدين من مصادره الأصلية عن طريق العلماء العاملين مع تربيتهم على الفهم الصحيح لنصوصه .

قال فضيلة الشيخ صالح الفوزان :

« ....؛ فإن التجديد للدين مطلوب من أهل الاختصاص بأن يعيدوا للدين جدته وإشراقه ، ويميطوا عنه الحجب التي اصطنعها الجهال والمغرضون أو الضلال الملحدون ....، ولا يقوم به إلا العلماء العاملون والمجاهدون الصابرون »[1].

إنه لا بد للمجدد من أن يغير المفاهيم المنحرفة عن الدين والعالقة في أذهان وعقول كثير من الناس وأن يغرس محلها المفهوم العقدي الصحيح ، ويتبع ذلك تغيير لجميع العبادات والمعاملات والسلوكيات الخاطئة إلى أخرى حسب ما جاءت به النصوص الشرعية في الكتاب والسنة.

هذه بعض أقوال أهل العلم حول تعريف التجديد الصحيح ، وإن كان لي أن ألخّصها في تعريف واحد مجمل فأقول :-

التجديد هو : إحياء ما اندرس أو ضعف من أصول الدين وفروعه، قولاً وعملاً ، وإعادته إلى حالته الصحيحة التي جاء بها الكتاب والسنة ، وإزالة ما علق به في عقول الناس وأعمالهم من البدع والخرافات .

---

(١) مجلة الدعوة ع ١٢٢٥، ١٤١١/١١/٢١، ص ١٧ .

مجالات التجديد إجمالاً

المجالات التي يشرع تجديدها واضحة بينة لمن التزم هدي الرسول – ﷺ – ، أما الجهلة والمغرضون فقد تخبطوا في هذا الباب .

فقد أدخل أهل الكلام والفلاسفة والعقلانيون في مسمى الإسلام ما ليس منه ، وأخرجوا منه ما هو ثابت فيه، باسم التجديد والتطوير والتحديث ، ونحو ذلك .

ومثل هؤلاء وأعظم منهم الحداثيون ، كما سيتبين لنا في هذا البحث ، إن شاء الله تعالى .

ولهذا فلا بد أن أذكر – في هذا المقام – المجالات التي يشرع تجديدها ، ولو اجمالاً ؛ خشية الإطالة .

جاء في الحديث – السابق ذكره – قوله – ﷺ – : «« **إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها** »» ، فهذا الحديث يدل على أن أصول الدين وفروعه يشرع تجديدها ، إذا ما انطمست ، واندرست ، وضعفت في قلوب الناس وأعمالهم .

فما هي الأمور التي ينالها التجديد ، والأمور التي هي ثوابت لا يمكن أن تتغير أو تتبدل .

إن أهم مجالات التجديد الصحيح ما يلي :

أولاً – تجديد أصول الدين

إن قوله – ﷺ – : «« **... من يجدد لها دينها** »» يدل على أن أصول الدين تجدد كلما احتاجت إلى ذلك .

ومن تجديد أصول الدين مايلي :

١- تنقية أصول الدين وأركان الإيمان وتصفيتها مما أدخله في مسماها أهل الكلام ، والفلاسفة ، وأصحاب التجديد المنحرف ، ومَنْ سار

على نهجهم ، من انحرافات وشبه وأفكار ضالة .

٢- إبراز العقيدة الإسلامية السليمة وفق ما جاء في كتاب الله وسنة رسلوه - ﷺ - وسار عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، عقيدة صحيحة نقية ، صافية من فلسفات البشر وآرائهم ، ونشرها بين الناس ودعوتهم إليها .

٣- محاربة البدع والخرافات والضلالات التي دخلت على أصول الدين باسم الإسلام ، والتصدي لأهلها وفضح مبادئهم ومناهجهم .

٤- أن يربط بكل أصل من أصول الدين ما يترتب على الإيمان به من آثار علمية وعملية ؛ إذ لا يكفي الاعتقاد المجرد دون أن تظهر آثار ذلك الأصل في الأقوال والأعمال .

٥- إحياء ما اندرس عند كثير من الناس من أصول الدين ، وخاصة أعمال القلوب كالحب والبغض والخوف والرجاء والولاء والبراء ... ، وما يترتب على هذه الأمور العقدية من أعمال الجوارح .

٦- التصدي للتيارات العقدية الوافدة المنحرفة والتي يصدرهاأصحاب الملل والنحل والمذاهب الفكرية الكافرة ، وقد تتسمى بالإسلام كذباً وزوراً .

٧- إحياء عقيدة الحكم بما أنزل الله والمطالبة بالعمل بها في الواقع ، والوقوف في وجه القوانين الوضعية وفضحها ، وبيان فشلها وفسادها .

فمن أهم مجالات التجديد العمل بالإسلام وحده في جميع شؤون الناس ، في الحكم والسياسة والاقتصاد والإعلام والاجتماع ، وغير ذلك .

٨- تجديد منهج التلقي ، بمعنى إحيائه وإعادته صحيحاً مستقيماً من منابعه الأصلية ، وذلك بعدما تخبطت كثير من الفرق المنتسبه

للإسلام في مناهج إستدلالها .

٩- إحياء الفهم الصحيح للإسلام ، وعدم إخضاع فهم الإسلام للواقع ، فالواقع لا يحكم على الإسلام ، بل الإسلام هو الذي يحكم على الواقع ، ويتضمن هذا الأمر نفي جميع الأشياء التي دخلت في فهم الناس للإسلام.

ثانياً : تجديد أحكام الشريعة

ويشمل هذا التجديد عدة أمور منها :

١- تجديد العلم الشرعي

فالعلم الشرعي ضعف طلبه عند كثير من المسلمين ، بل إنه انطمس واندرس في كثير من المجتمعات ، فلا بد من إحيائه وإعادته إلى أصوله ومصادره ، ودعوة الناس إلى طلب العلم الشرعي ، الذي يهدف إلى دراسة جميع قضايا المسلمين دراسة مبنية على الدليل الشرعي الصحيح ، ودعوة الناس إلى التفقه في دينهم بأخذ العلم الشرعي من مصادره الأصلية عن طريق العلماء العاملين ، بعيداً عن التعصب المذهبي ، « وأضحان سير منهج التفقه والاستنباط سيراً سليماً بعيداً عن الانحراف أو الفوضى التشريعية فلا بد من صياغة المنهج السليم للتفقه من خلال استقراء طريقة السلف الصالح – رضوان الله عليهم أجمعين »[١].

٢- تجديد الجانب الاجتماعي

لا بد لهذا التجديد من ابراز الأحكام الشرعية التي تضبط سلوكيات الأفراد والجماعات ، وتوضيح المفاهيم الشرعية التي تحدد علاقة الناس فيما بينهم ، ومن ثمَّ صياغة حياة الناس بجميع جوانبها صياغة شرعية إسلامية ، وتربيتهم على المفاهيم الصحيحة والتصورات السليمة .

وكذلك تحذير الناس من كل ما يخدش أخلاقهم من تيارات شهوانية أو فكرية تثير الشكوك والشبهات والشهوات حول أعراض المسلمين، والوقوف في وجه كل مغرض يريد إثارة الفتنة بين المسلمين ، وفضح كل اتجاه يسعى إلى نشر الرذيلة بينهم .

وأيضاً إحياء الأحكام الشرعية لتحكمَ في جميع أحوال المسلمين .

---

(١) التجديد في الإسلام ٤٨/١ .

٣- تجديد الجانب الاقتصادي

ويكون ذلك بإحياء حكم الله ورسوله في نظام المعاملات الاقتصادية ، وإيجاد الحلول الشرعية لجميع ما يحتاجه المسلمون في تنظيم أموالهم .

وهكذا القيام بمحاربة جميع المعاملات المحرمة كالربا والغش والرشوة وغيرها وبيان حكم الله فيها ، وإعادة أحكام الكتاب والسنة - الصالحة لكل زمان ومكان - صافية نقية تحكم في أموال المسلمين ومصادر خيراتهم .

٤- تجديد الجهاد

ويكون ببث روح الجهاد بين المسلمين وإعادتهم إلى العز بعد الذل، والهيبة والكرامة بعد الإهانة .

وإحياء عقيدة الولاء والبراء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بها في محاربة الفساد والمفسدين .

ضوابط التجديد الصحيح

تجديد الدين عمل إسلامي مشروع ؛ ولكن ليس لكل أحد أن يدعى التجديد إلا من انطبقت عليه شروط المجدد ؛ وكذلك العمل التجديدي لا بد أن يكون مضبوطاً بضوابط معينة ومحددة .

وضوابط التجديد هنا أعني بها ما يتعلق بالمجَدد نفسه ، وكذا ضوابط العمل التجديدي .

فمن أهم ضوابط التجديد ما يلي :

أولاً : – أن يكون المجدد من أهل السنة والجماعة والفرقة الناجية السالمة من البدع المحدثة ، سائراً في جميع أموره على منهج الرسول – ﷺ – وأصحابه ؛ ولهذا لا يجوز أن يُعَد مجدداً من هو من أصحاب الفرق الضالة كالرافضة والشيعة والصوفية والمشبهة والمعطلة وأهل الكلام والفلسفة ، وكل من انحرف عن منهج أهل السنة والجماعة وعقيدة الفرقة الناجية .

ومهما اجتهد في نصرة وتجديد مذهبه الباطل أو المنحرف فلا يعدُ مجدداً للإسلام .

قال شمس الحق العظيم أبادي :

« فالعجب كل العجب من صاحب جامع الأصول ،[1] إنه عدَّ أبا جعفر الإمامي الشيعي [2]،والمرتضى [3]،أخا الرضا الإمامي الشيعي من

---

(١) انظر : جامع الأصول ٢٢٢/١٢ .

(٢) هو أبو جعفر محمد بن يعقوب الرازي الكُلِيني ، مات سنة ٣٢٨ هـ ، قال عنه الذهبي « شيخ الشيعة ، وعالم الإمامية » سير أعلام النبلاء ٢٨٠/١٥ ، والنظر لسان الميزان ٤٣٣/٥ .

(٣) هو عليّ بن حسين بن موسى الموسوي ، من ولد موسى الكاظم توفي سنة =

المجددين ٠٠٠ ، ولا شبهة في أن عدَّهما من المجددين خطأ فاحش وغلط بيِّن؛ لأن علماء الشيعة وإن وصلوا إلى مرتبة الاجتهاد ، وبلغوا أقصى مراتب من أنواع العوم واشتهروا غاية الاشتهار لكنهم لا يستأهلون المجددية ؛ كيف وهم يخربون الدين فكيف يجددون ، ويمتون السنن فكيف يحيونها ويروجون البدع فكيف يمحونها ، وليسوا إلا من الضالين المبطلين الجاهلين ، وجل صناعتهم التحريف والانتحال والتأويل ، لا تجديد الدين ، ولا إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة ٠٠٠» [١].

ولهذا لابد أن يكون المجَدِّدُ متبعاً في عقيدته وعمله وتجديده ما كان عليه المصطفى – ﷺ – وأصحابه ؛ وذلك في جميع أبواب العقيدة : كأنواع التوحيد والإيمان والقدر وغيرها من أصول العقيدة ، بعيداً عن التشبيه والتأويل والتحريف والتعطيل ؛ سالماً من آثار علم الكلام والفلسفة .

قال شمس الحق العظيم آبادي عن المجدد :

«٠٠٠ ، من كان عزمه وهمته آناء الليل والنهار إحياء السنن ونشرها ، ونصر صاحبها ، وإماتة البدع ومحدثات الأمور ومحوها ، وكسر أهلها باللسان ، أو تصنيف الكتب أو التدريس أو غير ذلك ، ومن لا يكون كذلك لا يكون مجدداً البتة ، وإن كان عالماً بالعلوم ، مشهوراً بين الناس مرجعاً لهم » [٢].

ثانياً :- صحة منهج الاستدلال ، وسلامة المصادر التي يتلقى

= ٤٣٦ هـ . قال عنه الذهبي « من المتبحرين في الكلام والاعتزال لكنه إماميٌّ جلد ٠٠٠ ، وفي تواليفه سبُّ أصحاب رسول الله – ﷺ – ، فنعوذ بالله من علم لا ينفع » سير أعلام النبلاء ١٧/٥٨٨ – ٥٩٠ ، وانظر لسان الميزان ٤/٢٢٣.

(١) عون المعبود ٤/١٨٠ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

عنها العلم ؛ وذلك بأن يكون منهجه في التفقه والاستنباط مبنياً على الوحي المنزل وهو الكتاب والسنة ، وما أحال عليه الوحي من أدلة التشريع الثابتة الصحيحة ، وهي الإجماع الثابت والقياس الصحيح والمصلحة الراجحة التي لا تعارض أي نص من النصوص الشرعية .

ثالثا: -العلم الشرعي الصحيح؛ وذلك أن من أعمال المجدد تعليم الناس الدين وإحياء العلم الشرعي ، ونصرة السنة وأهلها ، وقمع البدع.

وهذه الأمور وغيرها كثير من أعمال المجدد لا يمكن أن يتصدى لها إلا من كان على جانب كبير من العلم .

قال السيوطي في وصف المجدد :

« يشار بالعلم إلى مقامه ... وينصر السنة في كلامه

وأن يكون جامعاً لكل فن ... وأن يعم علمه أهل الزمن» .[1]

وقال المناوي في وصف المجدد أيضاً :

«.... قائماً بالحجة ، ناصراً للسنة ، له ملكة رد المتشابهات إلى المحكمات وقوة استنباط الحقائق والدقائق والنظريات من نصوص الفرقان ، وإشاراته ودلالاته واقتضاءاته من قلب حاضر وفؤاد يقظان » [2].

وقال في موضع آخر :

« .... قالوا : ولا يكون إلا عالماً بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة » .[3]

وقد اشترط الاجتهاد في المجدد .

قال السيوطي :

---

(١) التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة ص ٧٤ .

(٢) فيض القدير ١/١٠ .

(٣) المصدر السابق ٢/٢٨١ ، ٢٨٢ .

« بأنه في رأس كل مائة يبعث ربنا لهذى الأمة
منّاً عليها عالماً يجدد دين الهدى لأنه مجتهد »[١].

وقال المناوي :

« ... ، أي مجتهداً واحداً أو متعدداً »[٢].

رابعاً :- ومع العلم الشرعي الصحيح لا بد أن يتحلى بحسن الخلق ، ويكون محباً للناس متودداً إليهم ، ساعياً في مصالحهم ، حريصاً على حل مشكلاتهم ، زاهداً بما عند الناس ، متعففاً ، قانعاً باليسير .

خامساً :- أن يكون عاملاً بعلمه ، ملتزماً بالأوامر والنواهي ، محافظاً على الواجبات والسنن ، قدوة صالحة وأسوة حسنة ؛ فإن من صفات أهل السنة والجماعة والطائفة المنصورة أنهم أهل العلم ، المحافظون على شرع الله ، الحريصون على اجتناب نواهيه .

والمجدد لا شك أنه من الطائفة المنصورة الذين قال فيهم الرسول - ﷺ - **«« لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون »»**[٣].

قال الإمام البخاري في صحيحه :

« باب قول النبي - ﷺ - لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون ؛ وهم أهل العلم »[٤] .

وقال أبو عثمان الصابوني عن هذه الطائفة :

---

(١) التنبئة ص ٧٤ .

(٢) فيض القدير ١/١٠ .

(٣) رواه البخاري ، كتاب الاعتصام ، باب (١٠) لا تزال طائفة من أمتي ١٤٩/٨ . واللفظ له. ورواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى عليه السلام ١٣٧/١.

(٤) صحيح البخاري ١٤٩/٨ .

« .... ويرون المسارعة إلى أداء الصلوات وإقامتها في أوائل الأوقات أفضل من تأخيرها إلى آخر الأوقات ، ويحبون قراءة فاتحة الكتاب خلف الإمام ، ويأمرون بإتمام الركوع والسجود حتما واجباً ، ويعدون إتمام الركوع والسجود بالطمأنينة فيهما والارتفاع من الركوع والانتصاب منه والطمأنينة فيه ، وكذلك الارتفاع من السجود والجلوس بين السجدتين مطمئنين فيه من أركان الصلاة ، التي لا تصح إلا بها ، ويتواصون بقيام الليل للصلاة بعد المنام ، وبصلة الأرحام ،وإفشاء السلام ، وإطعام الطعام ، والرحمة على الفقراء والمساكين والأيتام ، والاهتمام بأمور المسلمين ، والتعفف في المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمصرف ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والبدار إلى فعل الخيرات أجمع ، ويتحابون في الدين ، ويتباغضون فيه ، ويتقون الجدال في الله والخصومات فيه ، ويتجانبون أهل البدع والضلالات ، ويعادون أصحاب الأهواء والجهالات ويقتدون بالنبي – ﷺ – وبأصحابه ... ويقتدون بالسلف الصالحين » [(١)].

ومن أهم الأعمال التي يجب أن يتولاها المجدد بث العلم ، ونشر السنة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ودعوة الناس إلى العقيدة الصحيحة والأعمال الصالحة ، وتنقية عقول الناس مما علق فيها من بدع وانحرافات ومفاهيم خاطئة عن الإسلام .

ومن الأعمال أيضاً مواجهة القضايا التي تطرأ على الناس ووضع الحلول لها على ضوء الشرع الإسلامي الحنيف .

ولفظ (يجدد) في الحديث يدل على كل ذلك وإلا فكيف يُعدّ العالم مجدداً وهو لا يعمل بعلمه .

سادساً : الحرص الشديد على المحافظة على أصول الدين

---

(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث ص ٩٧ – ١٠٠ .

وفروعه،وعدم التساهل بأي أمر من أمور الشرع سواء من الواجبات أم من السنن، والحذر من الوقوع في المحرمات أو المكروهات أو التهاون في أمرها.

وفي هذا رد على من يفسر العقيدة ويصور الشريعة بما يلتقي مع تفسيرات الفلاسفة والصوفية الاتحاديين الذين يرون الخلق مظهراً يتجلى فيه الخالق .

وردّ على الذين يجددون الإسلام . على زعمهم – مبدلين لكثير من حقائقه استجابة للواقع ومسايرة للعصر ؛ فيرفضون – تعض أمور العقيدة ويحرفون بعضها ، ويطالبون بتغيير الفقه وأصوله .

يقول فضيلة الشيخ صالح الفوزان :

« نحن لا ننكر وجود قضايا مستجدة تحتاج إلى دراسة ومعالجة، لكن ليس علاجها بأن نحدث فقهاً جديداً ، ونرفض الفقه القديم ؛ وإنما علاجها بأن نعرضها على الفقه القديم بقواعده ومرونته وشموله ، وهو قادر – بإذن الله – على إعطاء الحل الناجح لهذه القضايا المشكلة إذا تولى ذلك أهل الاختصاص من علماء الشريعة »[١] .

سابعاً – أن يكون المجرد : « صاحب إرداة في التغيير فاعلة وثابه ، فهو ينطلق بالأمه من واقعها المرفوض المنحرف صعداً في طريق الصلاح والنجاح ، أما أولئك الذين يرتضون الواقع السيء ويباركونه ويرون أنه من أزهى عصور الأمة فهيهات أن يكونوا من التجديد في شيء ؛ ولذلك سمى الرسول – ﷺ – الفئة المتمسكة بالطائفة المنصورة ؛ وفي هذا إشارة إلى أنها تجاهد في سبيل الله ، وتناضل عن السنن ، وتقارع المبتدعة الضالين فيعينها الله وينصرها ؛ ولذلك فهي منصورة ...»[٢] .

---

(١) مجلة الدعوة ع ١٢٤٥ ، ٢١/١١/١٤١١هـ ، ص ١٧ .

(٢) التجديد في الإسلام ١/٥٥ ، ٥٦ .

فالمجدد لا بد أن يكون ذا صلابة وقوة جريئاً في بيان الحق ، صادعاً بدعوته ، حريصاً على معالجة واقعه ، مربياً للمسلمين على الجهاد ، حريصاً على إحيائه ؛

ولأنه (يبعث لهذه الأمة) فهو يشغل وقته لخدمة الأمة بإيقاضها وردها إلى المنهج الصحيح .

ثامناً :- أن يكون إماماً في الدين ، متحلياً بالصبر واليقين ، قال تعالى : ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ (٢).

وكما هو واضح في الآية : فإن الإمامة لا تنال إلا بالصبر واليقين ، وكذلك المجدد لا بد أن يتحلى بالصبر على ما يلاقيه ويقابله من فتن ومصائب واعتراضات ، وأن يوقن تمام الإيقان بالله عز وجل - وآياته .

ولا يكون كذلك إلا إذا كان ذا بصيرة فاهماً لواقعه ، عارفاً بحال زمانه وما نشأ فيه من فرق ومذاهب ومبادىء وملل ونحل .

ومن الضروري أن يتميز المجدد بملكات عقلية وقدرات فكرية ونظرات ثاقبة ، حتى تكون له الأهلية والقدرة على قيادة الناس .

تاسعاً :- ومن أهم ضوابط التجديد هو التفريق بين الثوابت وبين ما يقبل التغيير .

فأصول العقيدة وأركان الإسلام ونصوص الكتاب والسنة، كل هذه ثوابت لا يمكن أن تغير،أو يتبدل الحكم فيها ، وإنما المراد بتجديدها هو

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٧٤.

(٢) سورة السجدة ، الآية ٢٤.

إحياء الفهم الصحيح لها ، وإزالة ما علق في أذهان الناس من شبهات وشوائب حولها ، وإعادتها لتحكم بين الناس .

أما المستجدات فإنها تخضع لنصوص الشرع لتحكم فيها ، وليس العكس كما يفعله بعض أدعياء التجديد .

يقول ابن حزم :

« إذا ورد النص في القرآن أو السنة الثابتة في أمر ما على حكم ما صح أنه لا معنى لتبدل الزمان ، ولا لتبدل المكان ، ولا لتغير الأحوال ، وأن ما ثبت فهو ثابت أبداً في كل زمان وفي كل مكان ، وعلى كل حال ، حتى يأتي نص ينقله عن حكمه في زمان آخر أو مكان آخر أو حال أخرى »[١].

ومما يجب أن نعلمه أن الأحكام الشرعية نوعان :

النوع الأول – هو ما جاءت الشريعة لتثبيته بالنصوص الأصلية الصريحة ، وهذا النوع ثابت عبرالأزمنة وفي جميع الأمكنة ، لا يعتريه تبديل.

النوع الثاني – الأحكام الاجتهادية التي يكون مصدرها قياس أو عرف أو مصلحة سكتت عنها النصوص ، أو عادة لم ينشئها حكم شرعي .

وهذا النوع هو الذي تجري عليه قاعدة : « لا ينكر تغير الأحكام بتبدل الزمان » ، فقد يتبدل الحكم – في هذا النوع – نظراً لطروء أحوال تغيرت فيها الأعراف ، وتبدلت فيها المصالح .

يقول الشاطبي :

« العوائد المستمرة ضربان :

(أحدهما) : العوائد الشرعية التي أقرها الدليل الشرعي أو نفاها ؛ ومعنى ذلك أن يكون الشرع أمر بها ايجاباً أو ندباً ، أو نهى عنها كراهة أو تحريماً ، أو أذن فيها فعلاً وتركاً .

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام ٧٧٤/٥ .

(والضرب الثاني) : هي العوائد الجارية بين الخلق بما ليس في نفيه ولا إثباته دليل شرعي .

(فأما الأول) : فثابت أبداً ، كسائر الأمور الشرعية... ، {وهي} إما حسنة عند الشارع أو قبيحة ؛ فإنها من جملة الأمور الداخلة تحت أحكام الشرع ، فلا تبديل لها ...، فلا يصح أن ينقلب الحسن فيها قبيحاً ، ولا القبيح حسناً ... ، إذ لو صح مثل هذا لكان نسخاً للأحكام المستقرة المستمرة ، والنسخ بعد موت النبي - ﷺ - باطل ، فرفع العوائد الشرعية باطل .

(وأما الثاني) : فقد تكون العوائد ثابتة ، وقد تتبدل ، ومع ذلك فهي أسباب لأحكام تترتب عليها ... »[1].

إذن الضرب الثاني عند الشاطبي : هي العوائد المتبدلة التي لم تنشئها الشريعة أصلاً ، ولم تتعرض لها لا بمدح ولا بذم ، فهذه هي التي يؤثر تغيرها في أحكام الشريعة[2].

والثوابت هي :

١- أصول العقيدة : كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

٢- أصول الشريعة وأركان الإسلام وجميع شعائر التعبد كالصلاة والزكاة والصيام والحج .

٣- الواجبات المنصوص عليها كَبِرّ الوالدين ، وصلة الأرحام ... وغيرها كثير .

٤- قيم السلوك والأخلاق كالصدق والوفاء والأمانة ونحوها .

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة ٢/٢٨٣ ، ٢٨٤ ، وللاستزادة انظر : أعلام الموقعين ٣/٣ وما بعدها .

(٢) انظر : المرجع السابق ٢/ ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

٥- المحرمات كالزنا والربا والخمر ونحوها .

وتبقى دائرة المعاملات التي جاءت فيها النصوص عامة متسعة لعلاج كل مشكل . واستيعاب كل طارئ ، ووضع الفقهاء من القواعد الكلية والأصول العامة ما يستوعب المستجدات مدركين أن النصوص متناهية ، والحوادث متجددة والتجارب في اضطراد ، فكانت القواعد العامة مثل رفع الحرج ، ودفع المشقة ، ودرء أعظم المفسدتين ، وتقديم دفع المفاسد على جلب المصالح وفق المسالك التي أرشد إليها الشارع فلا تبقى بعد ذلك حجة لمعتذر، أو قول لمتشكك إلا اتباع الهوى .

ومن هنا فلا مجال لاعتبار الظروف والمتغيرات إلا بما ذكرته من رعاية الشريعة للمصالح والمستجدات ، فما كان النص فيه ثابتاً فالمصلحة باتباعه ، وما لم يرد فيه نص ففي القواعد الكلية والأصول العامة ما يستوعب كل جديد ، ويقبل كل طارئ .

عاشراً :- أن يكون مبعوثاً على رأس المائة ، والمراد أن يبعث مجدداً على رأس المائة وليس المراد وفاته ولا ولادته على رأسها .

يقول المناوي :

« وهنا تنبيه ينبغي التفطن له وهو أن كل من تكلم على حديث :«« إن الله يبعث ...»» إنما يقرره بناء على أن المبعوث على رأس القرن يكون موته على رأسه ، وأنت خبير بأن المتبادر من الحديث إنما هو أن البعث وهو الإرسال يكون على رأس القرن ... ، ومعنى إرسال العالم تأهله للتصدي لنفع الأنام ، وانتصابه لنشر الأحكام ، وموته على رأس القرن أخذ لا بعث فتدبر بإنصاف .

ثم رأيت الطيبي قال : المراد بالبعث من انقضت المائة وهو حي عالم مشهور مشار إليه ..

والكرماني قال: قد كان قبيل كل مائة أيضاً من يصحح ، ويقوم بأمر الدين ، وإنما المراد من انقضت المائة وهو حي عالم مشار إليه »[١].

وقال السيوطي :

« والشرط في ذلك أن تمضي المائة وهو على حياته بين الفئة
يشار بالعلم إلى مقامه وينصر السنة في كلامه »[٢].

أما تخصيص رأس المائة فلأنه مظنة انتهاء علمائها غالباً وظهور البدع والمبتدعة [٣].

معنى (رأس كل مائة سنة)

اختلف في المقصود بـ(رأس المائة) على أقوال هي :

الأول – رأس المائة أولها .

قال المناوي : « على رأس : أي أول ، ورأس الشيء أعلاه . ورأس الشهر أوله » [٤] . ، وقال في موضع آخر : « البعث وهو الارسال يكون على رأس القرن : أي أوله » [٥] .

وجاء في لسان العرب : « رأس كل شيء أعلاه » [٦] .

الثاني – رأس المائة آخرها .

قال شمس الحق العظيم آبادي : « اعلم أن المراد من رأس المائة

---

(١) فيض القدير ١/١٢ .

(٢) التنبئة ص ٧٤ ، وانظر جامع الأصول ١١/٣٢١ ، وعون المعبود ٤/١٧٨، ١٨٠.

(٣) انظر فيض القدير ١/١٢، ١٣ .

(٤) فيض القدير ١/١٠ .

(٥) المرجع السابق ١/١٢ .

(٦) لسان العرب ٦/٩١ وانظر : تاج العروس ٤/١٥٦ .

في هذا الحديث آخرها »[١] .

وقبله قال ابن حجر : « أي عند انتهاء مائة سنة »[٢].

وقال الطيبي : « الرأس مجاز عن آخر السنة ...»[٣].

وقال السيوطي :

«والشرط في ذلك أن تمضي المائة وهو على حياته بين الفئة »[٤].

ومن الأدلة على أن رأس المائة آخرها قوله - ﷺ - : « أرأيتكم ليلتكم هذه فإن رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد»[٥].

والمراد في الحديث انتهاء مائة سنة ، قال ابن عمر : « يريد بذلك أن ينخرم القرن »[٦]، ومعنى ينخرم أي ينقطع وينقضي [٧] .

وكذا قوله - ﷺ - : « **ما من نفس منفوسة اليوم تأتي عليها مائة سنة وهي حية يومئذ** »[٨] .

الثالث:- المراد في (كل مائة) سواءً أكان يبعث في أولها أم في

---

(١) عون المعبود ١٧٨/٤ وانظر : قوله الآخر في ١٧٩/٤ .

(٢) فتح الباري ٢١٢/١ .

(٣) عون المعبود ١٧٩/٤ .

(٤) التنبيه ص ٧٤ .

(٥) رواه البخاري كتاب العم ، باب السمر في العلم ٣٧/١ ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب قوله- ﷺ - « لا تأتي مائة سنة ...» ح ٢٥٣٧، ١٩٦٥/٤، ١٩٦٦.

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي ٨٩/١٦ ، ٩٠ .

(٧) النهاية في غريب الحديث ٢٧/٢ ، وصحيح مسلم بشرح النووي ٩٠/١٦ .

(٨) رواه مسلم بكتاب فضائل الصحابة ، باب قوله - ﷺ - : « لا تأتي مائة سنة ...» ح ٢٥٣٨ ، ١٩٦٦/٤ .

وسطها أم في آخرها ، وأن التقييد بالرأس اتفاقي [١] .

الرابع :- أن رأس المائة يحتمل الوجهين أولها وآخرها . وذلك أن أصل مادة (رأس) في اللغة يدل على التجمع والارتفاع [٢].

وهذه المادة تستعمل في أول الشيء وآخره .

يقال:أعد عليّ كلامك من رأس، وأنت على رئاس أمرك ، بمعنى أوله [٣].

ورأس المال : أصله وأوله .[٤]

وجاء في الحديث عن المصطفى - ﷺ - قوله : « رأس الكفر نحو المشرق » [٥] .

ورأس الكفر : منشؤه ومبدؤه [٦] .

هذه العبارات السابقة تدل على أن رأس المائة بمعنى أولها ، ومما يدل على أنه يأتي بمعنى آخرها ما ذكرته في القول الثاني من أدلة .

ومن الأدلة أيضاً قوله - ﷺ - : « **قد كانت إحداكن ترمي بالبعرة عند رأس الحول ...** » [٧] .

---

(١) انظر عون المعبود ١٧٩/٤ .

(٢) معجم مقاييس اللغة ٤٧١/٢ .

(٣) الصحاح ٩٣٣/٢ .

(٤) القاموس المحيط ٢٢٦/٢.

(٥) رواه البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب (١٥) خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ٩٧/٤ ، ورواه مسلم ، كتاب الإيمان باب (٢١) تفاضل أهل الإيمان فيه ٨٥ (٥٢) ، ٧٢/١ .

(٦) انظر فيض القدير ٤/٤ .

(٧) رواه البخاري ، كتاب الطلاق ، باب (٤٦) تحد المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا ١٨٥/٦ ، ورواه مسلم ، كتاب الطلاق ، باب وجوب الإحداد في عدة الوفاة ح ١٤٨٨ ، ١١٢٤/٢.

ورأس الحول هنا بمعنى آخر الحول [١].

وفي اللغة يقال القافية رأس البيت بمعنى آخره [٢].

وعلى هذا فلعل المسألة محتملة للوجهين آخر المائة أو أول المائة، ولو وجد من تنطبق عليه صفات المجدد وشروطه ، ثم مات قبل تمام المائة بقليل أو بعدها بقليل فإنه يُعدّ مجدداً [٣].

أما اشتراط الطيبي والكرماني والسيوطي ،[٤] حياة المجدد وبقائه بعد انقضاء المائة فلا دليل عليه .

مبدأ المائة

اختلف في مبدأ المائة ، هل يكون من مولده – ﷺ – ، أو من بعثته ، أو من هجرته ، أو من وقت نطقه بحديث التجديد ، أو من وفاته ؟

قال المناوي :

« يحتمل من المولد النبوي ، أو البعثة ، أو الهجرة ، أو الوفاة ، ولو قيل بأقربية الثاني لم يبعد ، لكن صنيع السبكي وغيره مصرح بأن المراد الثالث »[٥].

والحق أنه لم يرد في تحديد مبدأ المائة نص شرعي صريح وللفائدة أنقل رأياً آخر حول هذا الموضوع يرى أن مبدأ المائة وكذا تحديد رأسها أُخفي ولم يحدد شرعاً لحكمة فقال :

« والظاهر – والله أعلم – أن عدم تحديد المقصود بالرأس ، وعدم تحديد المبتدأ ؛ كل ذلك أمر مقصود فيه أن المجدد يظهر كلما دعت الحاجة

---

(١) كما هو واضح من الحديث نفسه ، وانظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٠/١١٤،١١٥.

(٢) انظر : لسان العرب ٦/٩١ .

(٣) انظر : التجديد في الإسلام ١/٢٤ .

(٤) انظر فيض القدير ١/١٢ ، والتنبئة ص ٧٤ .

(٥) فيض القدير ١/١٠ .

إليه لبعد الناس عن عهد النبوة ، أو لبعدهم عن عصر المجدد السابق .

وهذا ينسجم مع الأحداث التاريخية كلها... ، ومما يبين ذلك ويجليه أن الأحداث والمصائب النازلة بالمسلمين في دينهم ودنياهم ، والتي يفتقر المسلمون خلالها إلى ذلك المجدد، هي غير مسلسلة ولا موقوفة بأزمنة خاصة .

وفي تلك النكبات تتجلى رحمة الله بأمة محمد - عليه الصلاة والسلام - حيث ينقذها بفضله من الهلكة ، بمن يبعثه يحمل النور في ظلمة الديجور ... » [١].

المجدد على رأس المائة فرد أو جماعة ؟ .

ثم هنا مسألة أخرى ، وهي هل الذي يبعثه الله على رأس المائة فرد واحد أو جماعة ؟ في المسألة قولان :

أحدهما - قول الجمهور على أنه لا يلزم أن يكون المجدد على رأس المائة واحداً ، وإنما قد يكون واحداً، وقد يكون أكثر منه ؛ فإن لفظة (مَنْ) تقع على الواحد والجمع .

قال ابن الأثير :

« فالأحسن والأجدر أن يكون ذلك إشارة إلى حدوث جماعة من الأكابر المشهورين على رأس كل مائة سنة يجددون للناس دينهم ... » [٢].

وقال بهذا القول الذهبي والمناوي جاء في فيض القدير :

« (مَنْ) أي مجتهداً واحداً أو متعددا ... ، فقد يكون المجدد أكثر من واحد ، قال الذهبي : (مَنْ) هنا للجمع لا للمفرد » [٣].

---

(١) التجديد في الإسلام ٢٤/١ ، ٢٥ .

(٢) جامع الأصول ٢٢٠/١٢ وانظر: ص ٢١٩

(٣) فيض القدير ١١/١ .

وقال به ابن حجر كما جاء في فتح الباري ،[١]:« نبّه بعض الأئمة على أنه لا يلزم أن يكون في رأس كل قرن واحد فقط بل الأمر فيه كما ذَكَر [٢] في الطائفة وهو متجه ؛ فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا تنحصر في نوع من الخير ، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد إلا أن يُدعى ذلك في عمر بن عبدالعزيز فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها ، ومن ثَمّ ذكر أحمد أنهم كانوا يحملون عنه الحديث ، وأما مَنْ بعده فالشافعي ؛ وإن اتصف بالصفات الجميلة ، والفضائل الجمة ، لكنه لم يكن القائم بشأن الجهاد والحكم بالعدل .

فعلى هذا كل من اتصف بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد تعدد أم لا » .

وقال ابن كثير : « الصحيح أن الحديث - { حديث التجديد} يشمل كل فرد من آحاد العلماء من هذه الأعصار ممن يقوم بفرض الكفاية في أداء العلم عمن أدرك من السلف إلى من يدركه من الخلف » [٣].

وقال السهارنفوري :

---

(١) ٢٩٥/١٣ وانظر : توالي التأسيس ص ٤٩ .

(٢) أي النووي في شرحه لصحيح مسلم ٦٦/١٣، ٦٧ حيث قال عند حديث (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك) - سبق تخريجه -: « ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين منهم شجعان مقاتلون ، ومنهم فقهاء ، ومنهم محدِّثون ، ومنهم زهاد ، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين ، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض ...» .

(٣) شمائل الرسول ودلائل نبوته ص ٤٩٥ ، والبداية والنهاية ٢٦٢/٦ ، وانظر : فيض القدير ٢٨٢/٢ .

« والأظهر عندي – والله أعلم – أن المراد بمن يجدد ليس شخصاً واحداً بل المراد به جماعة يجدد كل واحد في بلد، في فن أو فنون من العلوم الشرعية ...» [١].

وثانيهما – من يرى أن لكل مائة سنة مجدداً واحداً ، وقد ادّعى السيوطي أن هذا قول الجمهور فقال :

« وكونه فرداً هو المشهور قد نطق الحديث والجمهور » [٢].

وقد تبين لنا في القول الأول أن الجمهور على خلاف ما ذكره السيوطي - رحمه الله تعالى .

---

(١) بذل المجهود ١٧/٢٠٢ .

(٢) التنبئة ص ٧٥ .

المطلب الثالث
التجديد المنحرف وخطورته

التجديد المنحرف : هو الاستجابة للضغوط الواقعية والمتغيرات الاجتماعية والدولية والفلسفات البشرية - غربية أو شرقية - ومن ثَمَّ استبعاد بعض القضايا العقدية والشرعية المسلمة ؛ وذلك بإعادة النظر في أصول الفقه والحديث وعلم الجرح والتعديل ، بل إعادة النظر في كثير من قضايا العقيدة وإخضاعها للعقلية المعاصرة .

وهو الذي يحاول تفسير النصوص الشرعية وفق مقتضايات الفلسفة البشرية ، ويلوي عنق النص لياً ليتفق معها [١].

وعرّفه فضيلة الشيخ صالح الفوزان فقال :

« معناه الابتداع وإحداث في الدين ما ليس منه ، إن التجديد الذي ينادون به هو التجديد في الدين بإحداث فقه جديد معاصر، كما يسمونه ؛ لأن الفقه القديم - بزعمهم - لا يناسب هذا العصر بشكله ومضمونه » [٢].

وبعبارة أخرى :

فالتجديد المنحرف هو :

الأخذ بالمناهج الغربية ، والتقريب بينها وبين الإسلام مع إذابة الفوارق بينهما .

والخلاصة أن التجديد المنحرف هو الابتداع في الدين بالإحداث فيه ما ليس منه ، أو نفي وإلغاء ما هو منه ، إما مباشرة أو عن طريق التأويل والتحريف ، وتفسير النصوص تفسيراً لا تحتمله .

---

(١) انظر : التجديد في الإسلام ١/٤٠ .

(٢) مجلة الدعوة ع ١٢٤٥ ، ٢١/١١/١٤١٠هـ ، ص ١٧ .

فالمجدد المنحرف يسعى إلى إخضاع الإسلام للواقع واعتباره حاكماً عليه ، فما كان موافقاً للواقع ومسائراً له أخذ به ، وما خالفه لم يعمل به – على حد زعمه – .

فالمقياس هو الواقع ، وما يسوده من أفكار وماديات فما وافقه وسايره من العقائد والأحكام عمل به ، وما لم يوافقه تركه وعمل بما في الواقع .

يقول عبدالله العلايلي في شرحه لحديث التجديد :

« والحديث الكريم هذا هو في نظري دستور كامل لحركية الشريعة ... في مجال صيرورة الزمن فهي تجدد دائم يدوس أصنام الصيغ في مسار طويل .... إذاً فلا قوالب ولا أنماط ولا مناهج ثابتة بل تبدلية عاملة دائبة .... وكل توقف في التكيف داخل أطر، يصيب الأفراد والجماعات بتحجر ، يؤول إلى حتمية تخلف ، بل انحدار ذريع ...، وقد أحسّ القدامى بدواعي التغير ، فلا ينبغي أن يؤخذ الخلف والسلف جميعاً بالمقتضى الواحد (فقد خلقوا لزمان غير زمانكم) ... .

ثم نقع في الحديث الشريف على عبارة (يجدد دينها) وهي أمضى في الدلالة على التشكل والتكيف بحسب الموجب أو المقتضى ؛ لأنها تتجاوز الترميم إلى الابداء والإنشاء ، إنشاء آخر، فلم يخص التجديد بشأن دون شأن ، أو بأمر دون أمر ؛ بل أحياناً في أمورها مجتمعة ، وهذا واضح بكلمة دينها ، الذي هو هنا بمعنى الأقضية والنظم »[1].

وبناء على ما تقدم أعرف التجديد المنحرف تعريفاً مختصراً ، فأقول هو : إخضاع الإسلام للعقل والواقع .

---

(١) أين الخطأ ، تصحيح مفاهيم ، ونظرة تجديد ص ١٤-١٦ .

خطورة التجديد المنحرف

تتضح لنا خطورة التجديد المنحرف من خلال معرفتنا لأسسه التي يقوم عليها ، ومبادئه التي يدعو إليها .

ومن أهم ما يقوم عليه التجديد المنحرف ، وأخطر ما يتبناه أدعياء التجديد ما يلي :

١- نظرية التطور والتغير

ينادي أصحاب التجديد المنحرف بتطوير الدين كله عقيدة وشريعة ، ولم تقتصر دعواهم على الأمور المستجدة والطارئة ، أو حتى الفروع الفقهية ؛ وإن كان ذلك غير جائز أيضاً ، بل تعدى ذلك إلى الأصول العقدية ، فهي تحتاج إلى تبديل وتغيير -على حد زعمهم - حتى تتطور؛ لتصبح مسايرة للواقع ، ومواكبة لما يأتينا من الشرق أو الغرب .

أ- فهم ينادون بتطوير أصول الدين وتغييرها يقول محمد فتحي عثمان في وصف أحد كتبه بأنه « محاولة لمناقشة قابلية الإسلام في أصوله للتطور ، ولرصيد المسلمين التاريخي في التطور وللواقع المعاصر ، واحتياجنا للوعي بحقيقة التطور عندنا ، وعند غيرنا »[١].

ثم يصف نظريتهم في تطوير الدين ، فيقول بأنها « حقيقة فلسفية ربما أفزعت الكثير ممن يقدسون الدين كمفاهيم جامدة ثابتة ... .

إن الحقيقة الثابتة تختلف الأنظار إليها باختلاف زاوية سقوط الشعاع الفكري ، وهذه النظرية الجزئية تكون حاجزاً عن إدارك الحقيقة الكلية الشاملة المحيطة ، وقد يتسنى أن يتسع أفق النظر ، ولكن بمزيد من العمل ومزيد من تعاقب الأجيال على العلم والعمل »[٢].

---

(١) الفكر الإسلامي والتطور ص ٧٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٨.

ويقول أمين الخولي :

«إننا ننتهي باطمئنان إلى أن التجديد الديني إنما هو تطور ، والتطور الديني هو نهاية التجديد الحق ... ، فليست فيه أحكام تبقى على بقاء الزمن ولا ينالها أي تغيير »[1].

ومحمد أحمد خلف الله وهو أحد أصحاب التجديد المنحرف يقول :

« وهنا سؤال يطرح نفسه : ألا يزال العقل البشري مقيداً بسلطان الله الواحد الأحد ،الذي يدعو الإسلام إلى عبادته إتقاء غضبه { ثم يتحدث عن التوحيد فيقول } .. أرجو أن يطمئن القارىء إلى الأساس الذي بني عليه التوحيد وكيف كان ؟ تحريراً للعقل البشري من سلطة الآلهة مما فيهم الله» [2].

وبعضهم باسم التجديد يدعو إلى فصل الدين عن الدولة فيقول .

« إن الدين الإسلامي بريء من تلك الخلافة التي تعارفها المسلمون ، وإنها ليست في شيء من الخطط الدينية ... كلا ولا القضاء ولا غيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة ، وإنما تلك خطط سياسية صرفة لا شأن للدين بها ، فهو لم يعرفها ولم ينكرها ، ولا أمر بها ، ولا نهى عنها، وإنما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل ، وتجارب الأمم ، وقواعد السياسة » [3].

ب – وتتجلى خطورة أدعياء التجديد من خلال نظريتهم التطورية في منهجهم في تفسير القرآن الكريم ؛ إذ يرون أن في القرآن آيات متشابهات ، قابلة لأكثر من تفسير، فهي تفَسَّر في كل طور حسب معارف

---

(١) المجددون ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) الأسس القرآنية للتقدم ص ٣٦ .

(٣) الإسلام وأصول الحكم ص ١٨٢ .

علوم العصر، وما ينتشر في البيئة من أفكار ومبادىء ٠

يقول عبدالعزيز جاويش :

« إن من الممكن أن تصل العقول البشرية بالبحث والتنقيب والتجارب إلى ما تصبو إليه النفس الإنسانية من مراتب الكمال في الأحكام والتصورات والنظم الاجتماعية والمسائل العلمية والآداب الخلقية ... ٠

إن القرآن لم يترك وسيلة تؤدي إلى إنعاش العقل وتحرير الفكر إلا تذرع بها، فهو إذا تحاكم فإلى العقل ، وإذا حاجّ فبحكم العقل ، وإذا سخط فعلى معطلي العقل ، وإذا رضي فعلى أولي العقل ....

إن أول ما بدأ به القرآن في التحاكم إلى العقل الإيمان بوجود الله ؛ فإن القرآن ومن ورائه علماء الكلام وأصول الدين كلهم مجمع على ضرورة طلب تلك العقيدة عن طريق النظر والاستدلال ، حتى إن منهم من لم يقبل الإيمان التقليدي بالله »[1] ٠

ويقول عن القرآن : « ... ، إذاً فوظيفته في البشر رسم أقرب الطرق إلى الهداية ، وحفظ العباد عن مواطن الهلاك ، التي يغشاها طلاب الحق والحقيقة لا من طريق الوحي ، بل من طرائق التجارب »[2]٠

ويقول محمد فريد وجدي بعد أن ذكر بعض الآيات :

« .... كل هذه الآيات تتناولها القاعدة الأصولية ، التي انفرد بها هذا الدين ، وهي أنه لو تعارض نص وعقل ، أو علم صحيح ، أوّل النص وأخذ بحكم العقل أو العلم ، وقد أوّل آباؤنا من هذه الآيات ما خالف عقولهم، أو ناقض العلم الصحيح ، ونحن نجري على سنتهم فنئول ما يخالف عقولنا منها ٠

جرى المسلمون على هذا السمت فكان تطورهم العلمي يمدهم

---

(١) الإسلام دين الفطرة والحرية ص ١٣٧ ، ٤١ - ١٤٢ ٠

(٢) المرجع السابق ص ١٤٥ ٠

بالمعلومات ، وعلماؤهم يؤولون الآيات حتى تآخى العلم والدين وسارا كفرسي رهان ، لا يسبق أحدهم الآخر ... .

فلم ينقسم الناس إلى فريقين ، فريق للدين يَقلّ كل يوم عددا ، وفريق للمدنية يزداد كل يوم مددا ، ولكن كانوا في وحدة ، لا انفصام لها ، فبلغوا إلى مالم تبلغه أمة قبلهم من بسطتي الدنيا والدين » [١].

جـ - ويطعنون في السنة ويشككون في مصادرها ، وقد ينكرونها كما أنكر كثير منهم حجية أحاديث الآحاد ، كل هذا باسم تطوير السنة وتجديدها .

يقول أحدهم : « ولا أعرف فائدة ذات اعتبار للاصرار في بعث كتب الحديث ، ولا يكفي سلامة سندها لدرء ما تثيره من عجب لدى مفكر عصري ، وأظن أنه ليس مما يزهى به المسلمون أن يروى عن النبي حديث الذبابة ...[٢]، مثل هذا الحديث يجب بالذوق والعلم أن ينزه عن نسبته إليه ، لا أن يزعم أن العلم الحديث قد أثبت صحته » [٣] .

وقريب من هذا قال حسن الترابي ،[٤] و إحسان عبدالقدوس[٥].

ويقول محمود أبو ريه في انكاره لحجية السنة :

« إن الأحاديث التي أوردها في سياق كلامي للإستدلال بها على

---

(١) الإسلام دين الهداية والإصلاح ص ٩٠ .

(٢) حديث الذبابة هو قول الرسول - ﷺ - : « إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فَلْيَغْمِسْهُ كُلَّه ثم لِيَطْرَحْهُ فإن في أحد جناحيه شفاءً وفي الآخر داءً » رواه البخاري - كتاب الطب - باب إذا وقع الذباب في الإناء ٧/٣٣ .

(٣) عبدالله غزالي في كتابه نظرات في الدين ص ١٠ .

(٤) انظر: مجلة الدعوة المصرية ع ٣٢ يناير ١٩٧٩م ، ص ٢٢ .

(٥) انظر: صحيفة الأهرام ١٩٧٨/١١/٩م ص ٧.

ما أريد في كتابي ، إنما أسوقها لكي نقنع من لا يقنع إلا بها، على اعتبار أنها عنده من المسلّمات التي يصدقها ولا يماري فيها ....

واعلم أن ذلك ليس عاماً في كل ما أورده من أحاديث في كتابي ؛ فإن منها ما يبدو عليها علائم الصحة ، كأن يكون بياناً للقرآن الكريم ، أو متفقاً مع العقل السليم ... ، أو أتنور خلال معانيه شعاعاً من نور النبوة ، ولو كان خافتاً ضئيلاً ...

فما كان من مثل ذلك مما يطمئن به القلب ، ويسلم به العقل ، فأنا آخذ به وأرويه وأنا مطمئن ...، وإن كنت على ثقة بعد ذلك كله من أنه أحاديث آحاد ، وأنه ظني الدلالة ، بحيث لا يبلغ منزلة القطع الذي يفيد اليقين ، وأن روايته جاءت بالمعنى ، لا بأصل اللفظ الصحيح الذي نطق به النبي - ﷺ - »[١] .

د- ومصادر التشريع الأخرى لم تسلم من أدعياء التجديد، فقد خاضوا فيها ودعوا إلى تفسيرها باسم التجديد والتطوير.

يقول حسن الترابي :

« الشروط التي وضعت للاجتهاد ابتداء مما رآه الشافعي ، من العلم بالعربية،والعلم بالقرآن ناسخه ومنسوخه ، والعلم بالسنة ، ومعرفة مواقع الإجماع والخلاف ، ومعرفة القياس ، ومقاصد الأحكام ، هي شروط حادثة كحدوث تدوين علم أصول الفقه نفسه » .[٢]

ويقول عبدالله العلايلي :

« إن العقوبات المنصوصة ليست مقصودة بأعيانها حرفياً ، بل بغاياتها ، وليس معنى هذا الرأي أن عقوبة القطع في السرقة ليست هي

---

(١) أضواء على السنة المحمدية ص ٢٣- ٢٥ .

(٢) رسالة في أصول التشريع الإسلامي ص ١٣ .

الأصل ، وأنها لا تطبق ، بل أعني أن العقوبة المذكورة غايتها الردع الحاسم، فكل ما أدى مؤداها يكون بمثابتها » [١] .

ويقول رئيس تحرير مجلة المسلم المعاصر :

« الدعوة إلى الاجتهاد وبمعناه المعروف في أصول الفقه تنطلق من ضرورة الاجتهاد ، وتتخذه طريقاً فكرياً ، ولا تكتفي بالبحث في ضرورة فتح باب الاجتهاد في فروع الفقه ، بل تتعداه إلى بحوث الاجتهاد في أصول الفقه » [٢] .

٢- التقارب بين الأديان وإلغاء الفوارق بينها .

يقوم هذا الأساس الباطل على القول بأن التوحيد هو حرية الاعتقاد ، وأن التفرقة بين الأديان ، والتعصب لدين بعينه شرك .

يقول أحدهم :

« الإسلام هو أن تسلم وجهك لله وأنت محسن ، وأي امرىء كان هذا حاله؛ فإنه مسلم سواء كان مؤمناً بمحمد أو كان من اليهود أو النصارى أو الصابئين ؛ وإذن فإن له أجره عند ربه ولا خوف عليه ولا هو يحزن ....

لماذا يعتقد أتباع كل دين أن الله يختصهم بالجنة ، ويذر غيرهم ، وأكثر الناس في النار؟ ....، إن إلهاً هذا شأنه – إن صح وحاشا أن يصح – لا يكون إلا إله طائفة قليلة بالنسبة لسائر الناس ؛ لأنه ليس ثمة دين يضم أكثر البشرية » [٣] .

ويقول غيره :

« نحن في منطقة الشرق الأوسط نؤمن بالتوحيد بطريقة أو

---

(١) أين الخطأ ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) مجلة المسلم المعاصر ، العدد الافتتاحي ص ٧ في ١١/١٩٧٤.

(٣) عبدالله غزالي في كتابه نظرات في الدين ص ١٦ ، ٢٣ ، ٢٤.

بأخرى ، وأقوالها واضحة يستوي في هذا الإسلام مع المسيحية مع اليهودية، حتى الإيمان بالأقانيم الثلاثة يختم بإله واحد، هذه منطقة التوحيد والصور تختلف » [١] .

وأقوالهم في ذلك كثيرة ، ولعله يكفي ما نقلته منها ، والمقصود أن أدعياء التجديد يرون أن جميع أهل الأديان المحرفة مؤمنون ما داموا يعتقدون بخالق لهذا الكون ، وأن اليهود والنصارى الآن - أي بعد التحريف - يُعدّون مسلمين ، وأن من الواجب أن يقترب المسلمون منهم ويقرّبوهم ، ويلغون ما بينهم من الفوارق ، ومن ثَمّ فإن من حق كل واحد أن يعتقد ما يشاء فهو حر في دينه ، وهذا هو التوحيد بعينه عند أدعياء التجديد ، أما التعصب لدين واحد ، حتى ولو كان الإسلام فهو شرك يجب أن يحارب .

٣- الاستفادة من المناهج الغربية وأساليبها واخضاع الإسلام لحكمها .

ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي - تقريباً - الدعوة إلى وضع مدونة فقهية واضحة المعالم مقننة على نمط المدونات القانونية الأوروبية ، وأبدت اعجابها بالنظم الاقتصادية الغربية وتساءلت عن امكانية الاستفادة منها .

ثم ظهرت الدعوة إلى تنظيم أحكام المعاملات بشكل يلائم العصر، وإلى الأخذ من القوانين الاجتماعية الأجنبية ، مثل اختلاط الجنسين، وتحديد الطلاق ، ومنع تعدد الزوجات .

ومن أوائل من اشتهر بتلك الدعاوى رفاعة الطهطاوي في كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » ، حيث قرر فيه أن مدنية أوروباالحديثة التي تقوم على العقل تحقق النتائج نفسها التي تهدي إليها مدنية الدين [٢] .

---

(١) عبدالعزيز كامل في كتابه الإسلام والعصر ص ١٩٤ .

(٢) انظر : الإسلام والحضارة الغربية ص ١٨ ، ١٩ .

لقد بدأ هذا الاتجاه المنحرف بالمطالبة بإيجاد قوانين مناسبة تواجه القضايا المستجدة ، واشتهر في ذلك رفاعة الطهطاوي نفسه ، في كتبه ، لا سيما كتاب « مناهج الألباب » مطالباً بتنقيح الأحكام الشرعية لتتناسب – على حد زعمه – مع المعاملات والقضايا العصرية ، بما يوافق البنية المعاصرة بدون شذوذ ، وسار على نهج الطهطاوي زميله خير الدين التونسي.

ثم تحول الاجتهاد عندهم إلى المطالبة بتطوير الشريعة لتتناسب مع قوانين الحضارة الغربية وتسايرها ، أو تقترب منها على أقل تقدير [(١)].

ولم يقف أدعياء التجديد عند هذا الحد ، بل جاءوا بالمطالبة بالوطنية الاقليمية والعناية بالتاريخ الفرعوني ، والدعوة إلى الحرية ، والتشكيك في صلاحية الإسلام للحكم ، والشبهات الكثيرة التي أثيرت حول مكانة المرأة في الإسلام والدعوة إلى تحريرها ، بالأخذ بما عند الغرب من قوانين في تلك الشؤون .

وقد اجتهد في هذا العمل لطفي السيد وسعد زغلول وطه حسين وعلي عبدالرازق وقاسم أمين وغيرهم [(٢)] .

وهذه الفكرة التجديدية التي تسعى إلى تطوير الدين وتقريبه من الحضارة الغربية ومسايرته لها، كانت من أعظم الوسائل الاستعمارية التي تعمل من أجل تمييع عقيدة المسلمين ومن ثَمّ تفتيت وحدتهم .

ومن أشهر من أشاد بالاتجاهات التجديدية المنحرفة التي تسعى إلى تمييع وتمزيق الدين الإسلامي بإخضاعة للتعاليم الغربية الوضعية ، من أشهر أولئك المستشرق (سمث) في كتابه (الإسلام في التاريخ الحديث) ، الذي يدعو فيه المسلمين إلى تحريف دينهم وتمزيق قضاياه ، باسم التطور

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٤٩ – ٥١ .

(٢) انظر : المرجع نفسه ص ٧٨ .

والتحضر ، ويدعو أبناء جنسه ودينه إلى مراقبة تلك الحركات التجديدية وتشجيعها ؛ لأنها هي الوحيدة الكفيلة بتفتيت وحدة المسلمين واندماجهم في الحضارة الغربية [١].

ومن أولئك المستشرقين المدعو (جب) في كتابه (إلى أين يتجه الإسلام) ، الذي يدعو فيه – وبكل صراحة – القادة والزعماء في العالم الإسلامي والشباب بوجه خاص إلى تغيير وتحريف أصول الإسلام ، باسم التجديد والتطوير والتغيير؛ليخضع للحضارة الغربية ، ويصبح تابعاً لها مقلداً لأفكارها وعاداتهاوقوانينها الوضعية ، وبهذا يضعف المسلمون ويتشتت المجتمع الإسلامي وتتحطم وحدته [٢].

مما سبق يتبين جلياً أن للتجديد المنحرف أخطاراً عظيمة على فهم المسلمين لدينهم في أصوله وفروعه ، وتتضح الخطورة أكثر عندما نعرف الحقائق التالية :-

١- التجديد المنحرف هو فصل لحاضر الأمة عن ماضيها ؛ بل يعني نسبة النقص إلى الصحابة ، وأنه نَقَصهم من الدين شيء ، وهذا مخالف لقوله – ﷺ – : « .... فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ » [٣].

---

(١) انظر : المرجع نفسه ص ١٠٩ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص١٠٨ . والاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/٢١٥، ٢١٦ .

(٣) رواه أبو داود كتاب السنة ، باب (٦) لزوم السنة ، ح ٤٦٠٧ ، ٥/١٣، ١٤ والترمذي ، كتاب العلم ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ١٠/ ١٤٣، ١٤٤ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ١٠/١٤٥ ، والإمام أحمد في مسنده ٤/١٢٦ ، والدارمي في سننه المقدمة ، باب اتباع السنة ١/٤٤ ، ٤٥ ، وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير ح ٢٥٤٦ ، ٢/٣٤٦ .

قال ابن رجب :

« وفي أمره – ﷺ – باتباع سنته، وسنة الخلفاء الراشدين بعد أمره بالسمع والطاعة لولاة الأمور عموماً ، دليل على أن سنة الخلفاء الراشدين متبعة كاتباع السنة ، بخلاف غيرهم من ولاة الأمور »[١].

٢- التجديد المنحرف هو إحداث في الدين ما ليس منه ، ونفي وإلغاء ما هو منه ؛ وهذا مخالف للكتاب والسنة ، وتنكر للرصيد العلمي العظيم للأمة الإسلامية .

قال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾[٢].

« أقسم تعالى في هذه الآية الكريمة بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم رسوله – ﷺ – في جميع الأمور ، ثم ينقاد لما حكم به ظاهراً وباطناً ويسلمه تسليما كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة ، وبين في آية أخرى أن قول المؤمنين محصور في هذا التسليم الكلي ، والانقياد التام ظاهراً و باطناً لما حكم به – ﷺ – ، وهي قوله تعالى :

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾[٣] »[٤].

وقال – ﷺ – : « ... وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة »[٥].

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٢٣١ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٦٥.

(٣) سورة النور ، الآية ٥١.

(٤) أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن ٢٩٦/١ ، ٢٩٧ .

(٥) سبق تخريجه في الصفحة السابقة .

في شرحه لهذا الحديث قال ابن رجب :

« تحذير للأمة من اتباع الأمور المحدثة المبتدعة ...، فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين ، ولم يكن له أصل في الدين يرجع إليه فهو ضلالة ، والدين بريء منه ، سواء في ذلك مسائل الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة »[١].

وقال - ﷺ - : « **فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد - ﷺ - وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة** »[٢].

والمراد بالبدعة ما أحدث في الدين مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه[٣].

وقال - ﷺ - : « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** »[٤].

قال ابن رجب : « وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، ...، وهو ميزان للأعمال في ظاهرها ، فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله - تعالى - فليس لعامله فيه ثواب ،فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله ، وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٢٣٣ .

(٢) رواه مسلم ، كتاب الجمعه ، باب تخفيف الصلاة والخطبة (١٣) ح ٤٣ (٨٦٧) ٥٩٢/١ ، والإمام أحمد في مسنده ٣١٩/٣ ، ٣٧١ ، وغيرهما .

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم ص ٢٣٣ .

(٤) رواه البخاري ، كتاب الصلح ، باب (٥) إذا اصلحوا على صلح جور فالصلح مردود ١٦٧/٣ ، ومسلم ، كتاب الأقضية ، باب (٨) نقض الأحكام الباطلة ، ورد محدثات الأمور ح ١٧ (١٧١٨) ١٣٤٣/٣ .

الله ورسوله فليس من الدين في شيء »[١].

« نعم من حقهم { أدعياء التجديد } أن يقولوا : إن واقع بعض المسلمين يحتاج إلى علاج ، وأن يطلبوا من العلماء النظر فيما يجد من مشكلات ، لكن ليس من حقهم أن يطالبوا بإحداث فقه جديد وترك الفقه القديم »[٢].

٣- والتجديد المنحرف يعني زيادة في الدين ، أو نقصاً منه ، أو تحريفاً له ؛ وهذا مخالف لقوله تعالى :﴿ ... اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[٣] .

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي :

« اليوم أكملت لكم دينكم : بتمام النصر وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة ، الأصول والفروع ؛ ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية في أحكام الدين ، وأصوله وفروعه ، فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة ، من علم الكلام وغيره ، فهو جاهل مبطل في دعواه قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه ، وهذا من أعظم الظلم ، والتجهيل لله ورسوله .

﴿ وأتممت عليكم نعمتي﴾ : الظاهرة والباطنة ، ﴿ ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ : أي اخترته واصطفيته لكم دينا كما ارتضيتكم له ، فقوموا به شكراً لربكم ، واحمدوا الذي مَنَّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها »[٤].

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٥٢ .

(٢) قاله الشيخ صالح الفوزان في مجلة الدعوة ع ١٢٤٥في ٢١/١١/١٤١٠هـ ص ١٧.

(٣) سورة المائدة ، الآية ٣.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٢/٢٤٣ .

٤- والتجديد المنحرف يفتح الأبواب لأعداء الإسلام ، والمتطفلين على العلم والمعرفة ، بأن يغيروا ويبدلوا تحت مسمى التجديد ٠

والواجب أن لا يتولى التجديد إلا أهله الذين سبق ذكر أوصافهم وشروطهم ، قال تعالى : ﴿ ٠٠٠ ولو رَدُّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ٠٠٠﴾ [١].

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي :

« لَعَلِمَه الذين يستنبطونه منهم : أي يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة ، وفي هذا دليل لقاعدة أدبية ، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ، ينبغي أن يولّى من هو أهل لذلك ، ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم ؛ فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ ٠٠٠» [٢].

وهذا فضيلة الشيخ صالح الفوزان يؤكد هذه المسألة فيقول :

« إن في فتح المجال { مجال التجديد} لغير ذوي الاختصاص مصدراً لأن يتلاعب بدين الله أنصاف المتعلمين ، والمتعالمون الذين ملؤوا الدنيا بالاجتهادات الخاطئة مما يسمونه الفقه الجديد » [٣].

---

(١) سورة النساء ، الآية ٨٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٢/١١٤ ٠

(٣) مجلة الدعوة ع ١٢٤٥ في ٢١/١١/١٤١٠هـ ، ص ١٧ ٠

الباب الأول

مفهوم الحداثة ونشأتها ومصادرها

الفصل الأول

مفهوم الحداثة

مفهوم الحداثة :

من أجل تأصيل مفهوم الحداثة لا بد من استقراء أقوال منشئيها ودعاتها الغربيين ومن ثَمَّ أنتقل إلى بيان مفهومها عند أتباعها في العالم العربي ؛ لأن الحداثة في العالم العربي ما هي إلا امتداد للحداثة في العالم الغربي ، وسيتبين لنا ذلك جلياً عند الحديث عن نشأة الحداثة وتأريخها .

مفهوم الحداثة عند الغربيين :

١- يتفق الغربيون المهتمون بدراسة الحداثة على أسسها وأصولها وإن اختلف بعضهم حول طبيعة هذا المصطلح وتفاصيله فهم يجمعون على أن الحداثة منهج تغييري ومذهب انقلابي في المفاهيم والأفكار، يختفي تحت شعار التطور والتقدم ، ويقبع أحياناً تحت ستار الأدب والفن .

٢- ويقرر أولئك الغربيون أن هذا المنهج التغييري جاء نتيجة لمناهج تغييرية سبقته ، وهي ما يعبرون عنها بالهزات الحضارية التي غيرت وبدلت في المفاهيم والأفكار والمبادئ حتى أنتجت الحداثة بصفتها منهجاً لا بد منه للتقدم والتحضر ،الذي يقوم على التطور والتغير الدائمين ، ويرون:«أن الهزات الحضارية التي تحدث بصورة منتظمة في تأريخ الفن والأدب والفكر هي أقرب ما تكون إلى الهزات الزلزالية التي يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع رئيسة :

النوع الأول – هو ما يمكن تسميته بالهزات البسيطة التي تتعلق بالمودة أو التقليعة ، والتي غالباً ما تأتي بها الأجيال المتعاقبة، تستمر هذه التقليعة مدة لا تزيد عن عشر سنوات .

والنوع الثاني – هو ما يمكن نعته بالإزاحات الكبيرة التي تمتاز بالتحولات العميقة والواسعة التي تخلفها وراءها ، وغالباً ما يستمر تأثيرها مدة طويلة تقاس بالقرون .

والنوع الثالث – هو ذلك النوع المدمر الكاسح الذي يقوض مساحات واسعة من البناءالحضاري والفكري ، ويتركها أكواماً من الأنقاض، والتي نعلل النفس بنعتها بالأطلال النبيلة ، تثير الهمم لبناء البديل ... .

إننا نعتقد بأن هذا الفن الجديد [الحداثة] جاءنتيجة لهذا النوع من الهزات الكاسحة ، أو ربما هو هزه كاسحة بحد ذاته »[١].

٣– والحداثة عندهم ثورة فنية وفكرية ضد ما تخلفه الأحداث التأريخية في عالمهم الغربي من أزمات فكرية وعقدية لا ضابط لها ، فهم لا يلتزمون بدين حق ، ولا بشرع صحيح ، يستمدون منه العلاج الناجح لمشكلاتهم ، فأزماتهم لذلك دائمة ، وحوادثهم الفكرية متكررة ومتقلبة ، وعقائدهم متغيرة ومتبدلة ؛ لذا فلا بد –عندهم – من الحداثة التي تعني الإيمان الراسخ بالتطور الفكري والإجتماعي ، والتنكر للعقائد والأفكار والتقاليد القديمة من أجل الإتيان بواقع فكري وأخلاقي واجتماعي أفضل ، ونظم وقوانين متقدمة مناسبة للعصر الحديث .

وتلك الهزات الحداثية المدمّرة لا بد أن تشمل الأمور الدينية والسياسية والقيم الأخلاقية ، بل هي المعنية بالتحديث في الدرجة الأولى ، أما الأدب والفن فما هي إلا لباس تتستر به هذه الهزات ؛ لذا فإن الحداثة لم تظهر للناس في بداياتها إلا على أنها حركة نقدية أنعشت النقد الأدبي الحديث بما جاءت به من تساؤلات ودعت إليه من إزالة الحدود والفوارق الدينية والأدبية بين الأقطار [٢].

يقول هربرت ريد :

«إننا نلمس الآن ابتعاداً عن كل أنواع التراث ولا يمكن أن ندعو

---

(١) الحداثة ص ٢٢ جيمس ماكفارلن ومالكم برادبري .

(٢) انظر : المصدر السابق ص ١٤ .

هذا الابتعاد بالتطور المنطقي لفن الرسم في أوروبا ؛ لأنه ليس هناك ما يوازيه تاريخياً ، لقد وجدنا أنفسنا فجأة نكفر بجهود خمسة قرون من الإبداع الفني »[١].

٤- إن الحداثة تعني عند الغربيين حتمية الصراع مع القديم – كل قديم ما عدا الظواهر الفلسفية والباطنية والثورية – ، وبالتالي رفضه ونفيه وضرورة التحول والتطور إلى فكر جديد يقوم على أنقاض القديم ويختلف معه في المضمون ، ثم تأتي المرحلة الزمنية التي بعد هذه المرحلة فتتغير وتتطور المفاهيم والأفكار لتناسب العصر الجديد ، وهكذا فالمبادئ والعقائد والقيم في تطور مستمر ولكل زمن وعصر حداثته .

إن الحداثة في مفهوم قادتها من مفكري الغرب، كما يقول أحدهم :«تحتوي على الكثير من ظلال المعنى الذي قد لا ننجح في استخدامه بصورة دقيقة ، يتطور مفهوم الحداثة بتطور الزمن فما كان حديثاًفي السنة الماضية لا يكون حديثاً في هذه السنة ....

إننا لا ننكر ماللحداثة من صلة بحياتنا وبالمواقف التي نتخذها، لكننا يجب ألا ننكر أن هذه المواقف قابلة للتغيير ، لقدمرّ مصطلح الحداثة بمراحل من التغيير السريع ... .

نحن نستخدم هذا المصطلح لتحديد فترة انتهت منذ أمد طويل ،أو فترة انتهت تواً ،كاستعمالنا مصطلحات مثل : الحداثة الأولية ، والحداثة البدائية ، والحداثة الجديدة ، وما بعد الحداثة .

ونستعمله كذلك لإيجاز نشاط الإنسان في ظروف معينة، وما يتمخض عنه من وجهات نظر »[٢].

---

(١) في كتابه (الفن الآن) ، انظر : المصدر السابق ص ٢٠ .

(٢) الحداثة ص ٢٢ ، ٢٣ .

إن العمل الحداثي لا بد أن يتصف بسرعة التغيير والتبديل في عقائد الناس ومفاهيمهم ، من أجل مواكبة حركة الزمن ، التي تسير بسرعة متناهية .

يقول نور ثورب فراي عن مفهوم الحداثة بأنه :

« ذلك النمط من وعي الإنسان المعاصر أهمية اللحاق بحركة الزمن ، هذا الوعي الذي غالباً ما ينتهي باليأس لتزايد سرعة هذه الحركة » .[١]

فالحداثة في كل عصر هي خلاصة ما توصل إليه البشر من أفكار وقوانين بواسطة عقولهم وأمزجتهم ثم صاغوها بقوالب فنية وأدبية .

ويقول مالكم براد بري وجيمس ما كفارلن في كتابهما عن الحداثة:

«يبقى لهذا المصطلح تأثيره من حيث ارتباطه بمشاعرنا التي تجعلنا نتصور أننا نعيش في زمن حديث كل الحداثة ، وأن التاريخ المعاصر هو منبع أهميتنا وأننا أيضاً نتاج (سيناريو).[٢] الحاضر وليس الماضي .

وإن الحداثة هي حالة طارجة من حالات الفكر الإنساني حالة تلمسها واكتشفها الفن الحديث ونفر منها أحياناً ...» [٣].

٥- ويؤكد الحداثيون الغربيون على أن أخص مفاهيم الحداثة هو الثورة على كل ما هو قديم وثابت ، والنفور من كل ما هو سائد من أمور العقيدة والفكر والقيم واللغة والشؤون السياسية والأدبية والفنية ، فهي إذن ثورة على الواقع بكل ما فيه من ضوابط ، وهذا ما تدل عليه الحداثة في جميع مراحلها .

استمع إليهم وهم يتحدثون عن ميّزات الحداثة إذ يقولون بأنها :

«تمتاز بنزعتها التجريدية، وببراعتها الواعية في دراسة الواقع،

---

(١) القرن الحديث ص ٢٣.

(٢) السيناريو : مخطط المسرحية أو الفيلم السينمائي .انظر: المنجد ص ٨١٧.

(٣) الحداثة ص ٢٣.

وفي الثورة على التقاليد الشكلية واللغوية .

قد يقول قائل : إن هذا صحيح بالنسبة إلى المراحل الأولى للحداثة التي امتازت بالاقتحام ، ولا يصح على الحداثة عامة .

وقد يقول القائل نفسه : أصبحت للحداثة شخصيتها المتعارف عليها جمالياً ، في مجال الفنون التخطيطية والعمارة والتصميم ووسائل الإعلام كالأفلام السينمائية والتلفزيون .

إذا كان موقفنا من الحداثة بهذا الشكل : فإننا نكون قد أسأنا لمبادئها الأساسية ، التي يمكن تلخيصها بالاقتحام والنفور من كل ما هو متواصل » [١].

فالحداثة بهذا المفهوم هي حركة عبثية ، تدعو إلى الثورة على كل ما هو متواصل وسائد، سواء أكان من أمور العقيدة أم من غيرها من شؤون الحياة ، فلا ثوابت هناك ، بل كل شيء متغير ومتقلب من عصر إلى عصر ، فلكل عصر عقيدته وفكره وأخلاقه ، ولكل زمن تصوره الخاص عن الإله والكون والحياة والإنسان .

« لقد عُرفت الحداثة بأنها حركة ترمي إلى التجديد ودراسة النفس الإنسانية من الداخل معتمدة في ذلك على وسائل فنية جديدة .

في الحقيقة إن أغلب الحركات الفنية جاءت بما هو جديد، فأمامنا الثورة على ما هو مألوف ...، وأمامنا أيضاً تداعي الأفكار في الرواية .

في الواقع إن هذه الإتجاهات الفنية تتضمن تحطيم كل ما هو إنساني ، إنها هدم تقدمي لكل القيم التي كانت سائدة ...، على حد قول (أورتيكا كاسيت) ...» [٢].

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٦ .

تقول الحداثية خالدة سعيد زوجة أدونيس أحد كبار الحداثيين العرب عن الحداثة الأوروبية :

« تمثلت الحداثة الأوروبية منذ بداياتها في الصراع مع المؤسسات الدينية وقوانين الكنيسة والتقاليد الإجتماعية والمفهومات الموروثة، ثم في مرحلة متأخرة مع التقاليد الأدبيةلصالح مبادىء الحرية والفردية والابتكار والعفوية »(١).

إنها عندهم عبادة الجديد وتقديسه بشرط أن يكون مخالفاًللنمطي والسائد والثوابت القديمة يقول هنري لوفيفر :

«وقد ظهرت الحداثوية، أ ي عبادة الجديد، من أجل الجديد وارفاقه بنزوع صنمي ...مع ظهور فكرة الأسلوب الحديث » (٢).

ويؤكد على ثورية الحداثة فيقول :

«الحداثة تفكير بادىء وتخطيط أولى ، تتفاوت جذريته للنقد والنقد الذاتي ، إنها محاولة للمعرفة ...، ستكون الحداثة داخل المجتمع البورجوازي هي ظل الثورة الممكنة والمخطاة، هي باروديا الثورة » (٣).

فالحداثة تعني التطور التأريخي والتبدل الفكري الثائر على ما سبقه من ثقافات ومبادىء، إنها موقف معارض لجميع الحضارات السابقة القائمة على ثوابت ، وهذا الموقف يجب أن يكون كلياًشاملاً عالمياً بعد انطلاقه من الغرب .

يقول المفكر الغربي جان بودريار :

« ليست الحداثة مفهوماً سوسيولوجياً أو مفهوماً سياسياً أو

---

(١) مجلة فصول مج ٤ ، ج١ ، ع٣، ١٩٨٤م ، ص٢٧ .

(٢) ماالحداثة ص ١٥ .

(٣) مجلة فصول – مج ٤ ، ج١ ، ع٣، ١٩٨٤م ، ص١٣، ١٤ .

مفهوماً تاريخياً بحصر المعنى ، وإنما هي صيغة مميزة للحضارة تُعارض صيغة التقليد ، أي أنها تعارض جميع الثقافات الأخرى السابقة أو التقليدية ، فأمام النوع الجغرافي والرمزي لهذه الثقافات تفرض الحداثة نفسها وكأنها واحدة متجانسة مُشِعّةعالمياً انطلاقاً من الغرب .

ومع ذلك تظل الحداثة موضوعاً غامضاً ، يتضمن في دلالته إجمالاً الإشارة إلى تطور تاريخي بأكمله وإلى تبدُّل في الذهنية »(١).

وهذا التبدُّل الذهني ، وتلك الثورة المضادة ، لا تقف عند حد معين ، بل هي دائمة ومستمرة ، فالعقائد والقيم والأفكار لا يجوز أن تقوم على ثوابت مستقرة ، وإنما هي متغيرة ومتبدلة ، في صفة مستمرة ؛ لذا فإن من أبرز سمات الحداثة هو الثورة الأبدية في كل عصر وعند كل جيل .

يقول كالنيسكو :

« إن الحداثة الغربية في جوهرها ظاهرة تعكس معارضة جدلية ثلاثية الأبعاد :

– معارضة للتراث .

– ومعارضة للثقافة البرجوازية بمبادئها العقلانية والنفعية وتصورها لفكرة التقدم .

– ومعارضة لذاتها كتقليد أوشكل من أشكال السلطة أوالهيمنة .

أي أنها لا تمثل انفصالا عن الماضي ورفضاً لمقاييسه الثابته ، أوثورة على القيم البرجوازية السائدة فحسب ، بل تمثل ثورة دائمة أبدية في تطلعها المستمر إلى قيم جديدة ، وأشكال وأساليب تعبيرية جديدة »(٢).

ويشترط لهذه الحركة الثورية ألا تنتصر أبداً ؛ لأن ذلك قد يؤدي

---

(١) المصدر السابق ص ١٢ .

(٢) المصدر السابق ، ع ٤ ، عام ١٩٨٤م ص ١٤ .

بها إلى الثبات .

وهذا ما وضحه المفكر الغربي (إرفنج هاو) في قوله عن الحداثة: «إن عليها أن تكافح دائماً ، ولكن بدون أن تنتصر تماماً ، بل عليها أن تكافح من أجل أن لا تنتصر ؛ إذ أن انتصارها معناه أن تفقد سمة الحداثة ؛ وذلك بتكوين أسلوب أوتقليد ثابت لها ، تلتزم به وتسير عليه »[١].

ولا شك أن الدين وما يصدر عنه هو العدو اللدود الذي يجب أن تجابهه الحداثة ، وتقوم ثورتها الدائمة على نفيه وإبعاده .

يقول الحداثي الغربي جود دون :

« إن ما ينبغي أن يكون حديثاً لا ينبغي أن يساير أية نزعة أيديولوجية كهنوتية ، يعتنقها أي مجتمع آخر في الماضي أو الحاضر أو المستقبل »[٢].

٦- ومن أبرز سمات الحداثة الفوضى في كل شيء ، في الأفكار والمبادىء والآداب والفنون وغيرها .

يقول الحداثي الفرنسي فلوبير :

«كل ما أريد أن أفعله هو أن أنتج كتاباً حول لا شي ، وغير مترابط إلا مع نفسه ، وليس مع عوالم خارجية ، ويفرض نفسه بحكم قوة أسلوبه »[٣].

ويقول فرانك كيرمود :

«إنها { أي الحداثة } لا تعيد صياغة الشكل ، بل تأخذ الفن إلى ظلمات الفوضى واليأس »[٤].

---

(١) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

(٢) الثقافة والفكر ص ٤٠ .

(٣) الحداثة ص ٢٥ .

(٤) في كتابه مقالات حديثة ، انظر : الحداثة ص ٢٦ .

ويعلق أحد الغربيين على هذه العبارة فيقول :

« وهذا يعني أن الحداثة لا تأخذ بيد الفن إلى مواطن الإبداع ، وإنما إلى التهلكه ، وباختصار لا توحي النزعة التجريبية بالتكلف والغموض والتجديد في الفن حسب ، بل توحي أيضاً بالضبابية والغربة والتنكك ...»[١].

هؤلاءبعض أصحابها وقادتها يعترفون بالفوضى الفكرية التي مثلتها وتمثلها الحداثة .

وحين عللوا عدّ الحداثة من أبرز مظاهر الفن المعاصر قالوا :

«إن سبب عدّنا الحداثة سمة بارزة من سمات فننا المعاصر يكمن في كونها خير ما يمثل الفوضى الحضارية والفكرية ، التي تعم حياتنا المعاصرة ، والتي جاءت بها الحرب العالمية الأولى ... »[٢].

والحداثي الفرنسي الآخر (شارل بودلير) يرى أن نظرية الحداثة « تقوم على أساس أن كل ما هو مظلم بائس منحط في النظرة السائدة التقليدية يصبح في منظور الحداثة فاتناً مثيراً ، وأن الحداثة في الأدب قد تحددت منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر على أساس النظرية البودليرية، بحيث تتضمن استخدام علم جمال للقبح والبشاعة والإفلات من الواقع والوجود في حالة توتر مستمر ، وتذوق الغامض في حد ذاته ، وتعميم التجريد في شكل التعبير ، وإيجاد لغة جديدة لا تعترف بالدلالات والمواصفات على أساس ما يسمى بكيمياء اللغة »[٣].

يقول أحد الحداثيين الألمان : « الحداثة في اختلاطها وحيرتها كما تبدو عند بودلير : أن يكون معذباً حتى العصاب ؛ نتيجة لاحتياجه إلى

---

(١) الحداثة ص ٢٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٧ .

(٣) الحداثة والتراث ص ٢ .

الإفلات من الواقع ... ، وإذن فهي حداثة تقود الشاعر إلى دينامية من التوترات المستعصية ، وإلى تذوق الغامض في حد ذاته ... » [١].

ويصرّ دعاة الحداثة الغربيون على فوضويتها إذ يقولون :

« إذا عدّت الحداثة الماضي عبئاً ، فالواقع بالنسبة إليها أكثر إيلاماً ، هذا الواقع الذي تحيطه اللاجدوائية والفوضى » [٢].

ويعرف رولان بارت الحداثة بأنها : « انفجار معرفي لم يتوصل الإنسان المعاصر إلى السيطرة عليه ...

في الحداثة تنفجر الطاقات الكامنة ، وتتحرر شهوات الإبداع في الثورة المعرفية ، مولدة في سرعة مذهلة وكثافة مدهشة أفكاراً جديدة ، وأشكالاً غير مألوفة ، وتكوينات غريبة ، وأقنعة عجيبة ، فيقف بعض الناس منبهراً بها ، ويقف بعضهم الآخر خائفاً منها ، هذا الطوفان المعرفي يولد خصوبة لا مثيل لها ولكنه يغرق أيضاً » [٣].

يقول محمد مصطفى هدارة :

« يعرف باحث أوروبي الحداثة بأنها شغف بالمجهول يؤدى إلى تحطيم الواقع .

ويصف أحد المبشرين بها فتنتها، وخطر تأثيرها فيقول : إن فتنة الحداثة لا يمكن أن تقاوم حتى عندما تقود إلى السأم أو الانحطاط أو الموت البطيء » [٤] .

٧ – ويؤكد أحد الحداثيين الغربيين على أن الحداثة قوة ومغامرة

---

(١) مجلة فصول – مج ٤ ، ج١ ، ع٣، ١٩٨٤م ، ص١٢ .

(٢) الحداثة ص ٢٧ .

(٣) الحداثة والتراث ص ٢ .

(٤) المصدر السابق ص ٣.

تسعى لتدمير المعروف والمألوف وما عليه الناس من حقائق ، وأن الحداثة صراع وتضاد وغموض ، هدفه اختصار الحدود الدينية والعرقية ، إنها تفكك دائم .

يقول مارشال بيرمان – في تعريفه للحداثة :–

« ... ، فمعنى أن نكون مُحْدَثين هو أن نجد أنفسنا في مناخ يَعِدُنا بالمغامرة والقوة والبهجة والنماء وتغيير أنفسنا والعالم ، وفي الوقت نفسه يهددنا بتدمير كل ما لدينا ، كل ما نعرفه ، كل ما نحن عليه .

إن المناخات الحديثة تختصر كل الحدود الجغرافية والعرقية حدود الطبقة والقومية ، حدود الدين والأيديولوجيا .

بهذا المعنى يمكن أن تأتي الحداثة لتجمع البشرية كلها في وحدة ، ولكن هذه الوحدة وحدة اشكالية ، هي وحدة اللاوحدة ؛ لأنها تضعنا في معترك من التفكك الدائم والتجدد ، من الصراع والتضاد ، من الغموض والمعاناة ، فأن تكون حديثاً هو أن تكون جزءاً من عالم (كل ما هو صلب يذوب في الهواء) كما قال ماركس »[١].

وفي عام ١٩٩٠م نظم مركز « ساونث بانك » الثقافي مهرجاناً ثقافياً تحت عنوان : (عالم جديد شجاع) ، وكان من المحاضرات التي ألقيت هناك محاضرة بعنوان (صعود ما بعد الحداثة في الأدب الفرنسي)، للحداثي (مايكل ورتون) ومما قاله في محاضرته :

« إن تعريف ما بعد الحداثة بأسئلتها لا يتم إلا بمقارنتها بأسئلة ما قبلها، أي الحداثة .

أسئلة الحداثة هي : ماهذا العالم ؟ وما أنا ؟ ، أما أسئلة ما بعد الحداثة فهي : أي العوالم هذا ؟ وأي إنسان أنا ؟».

---

(١) مجلة إبداع ، ع ٤ ، رمضان ١٤١١هـ ص ٢٨ .

إن مابعد الحداثة لا تهدف ككل ما سبقها إلى الوصول لحقيقة ، بل هي تعترف بوجود الأنا والآخر ، الشيء ونقيضه ، وتجعل لكل هذه المتناقضات أصواتها الخاصة داخل النص .

مابعد الحداثة هو الاحتمالية اللانهائية »[١].

هذه هي الحداثة عند الفرنسيين ، ظاهرة فكرية فوضوية رفضت كل ما جاءت به الكنيسة من تعاليم وأفكار وثنية ، ومفاهيم منحرفة عن الإله والإنسان والكون والحياة .

هذه التعاليم فرضتها الكنيسة بالقوة على المجتمعات الغربية ، وفي الوقت نفسه حاربت أي أمر يخالف هذه التعاليم ، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك فحرمت جميع العلوم التجريبية ، وحاربت أهلها ، مما أدى إلى ظهور المناوئين لها ولتعاليمها فجاء صنف منهم بالفكر الحداثي الثوري .

٨- وكذلك الانجليز والأمريكان ينهجون الحداثة على أنها ظاهرة فكرية متطورة جاءت ثائرة ضد حالات من التأزم العقدي والاجتماعي والتأريخي ، فهي حركة تغييرية لكل ما هو ثابت وسائد ، تسعى نحو الفوضوية في جميع المجالات الفكرية والاجتماعية وغيرها .

ويجمع النقاد الانجليز والامريكان على أن الحداثة عندهم ما هي إلا امتداد ونتيجة للحداثة الفرنسية ، والتي كان وراءها حداثيان فرنسيان بارزان هما : (فلوبير) و (بودلير) .

إن الحداثة في نظر قادتها لها : « القدرة على الاتيان بكل ما هو مدمر ، إنها رحلة إلى عوالم فنية مجهولة،لا يمكن أن يكتب لها التوفيق ، إنها أيضاً تصور عوالم تكتنفها المخاطر والكوابيس »[٢].

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط ع ٤٤١٤ في ٢٩/١٢/١٩٩٠م ، ص ٢٠ .

(٢) هذا تفسير هاري لفن ، انظر : الحداثة ص ٢٧ .

هذه نماذج لآراء الغربيين حول مفهوم الحداثة ، ولو تتبعنا مفهومها عند الغربيين ، وعند الحداثيين في العالم العربي لوجدنا المعنى واحدا ، والمفهوم متطابقاً ، ولا عجب في ذلك ، فالحداثة في العالم العربي مستورد من المستوردات الغربية .

مفهوم الحداثة في العالم العربي

الحداثة عند أتباعها العرب هي : « مذهب فكري يسعى لهدم كل موروث والقضاء على كل قديم { إلا المظاهر الثورية والباطنية والفلسفية}، والتمرد على الأخلاق والقيم والمعتقدات »[١].

إذن ليست الحداثة مقتصرة على الأشكال الأدبية والفنية الظاهرة فقط ، بل هي في الحقيقة ثورة فكرية ، وعقيدة جديدة ، لها تصورها الخاص عن الإله والكون والانسان والحياة .

وإليك الشواهد من كلام دعاتها في عالمنا العربي :

يقول أدونيس : « ٠٠٠، فالكتابة الإبداعية هي التي تمارس تهديماً شاملاً للنظام السائد وعلاقاته ، أعني نظام الأفكار »[٢] .

وفي موضع آخر يقرر أدونيس نفسه أن الحداثة في المجتمع العربي إشكالية معقدة ، لا من حيث علاقاته بالغرب وحسب ، بل من حيث تأريخه الخاص أيضاً ، ثم يقسم الحداثة إلى ثلاثة أقسام : الحداثة العلمية، وحداثة التغيرات الثورية ؛ الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، والحداثة الفنية [٣].

وتشترك هذه الأنواع الثلاثة في : « خصيصة أساسية هي أن الحداثة رؤيا جديدة ، وهي جوهرياً رؤيا تساؤل واحتجاج ، تساؤل حول الممكن واحتجاج على السائد »[٤].

---

(١) الحداثة في ميزان الإسلام ص ١٢.

(٢) زمن الشعر ص ٢٩٦.

(٣) فاتحة لنهايات القرن ص ٣٢١ .

(٤) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

إذن من شروط الحداثي أن يخالف السائد والمألوف ، ويثور على الثابت من المبادىء والأفكار والأخلاق وغيرها .

يقول أحد كبار الحداثيين في العالم العربي ، وهو الحداثي اليمني عبدالعزيز المقالح في معرض ثنائه على شباب الحداثة،مؤيداً فيهم ثورتهم على الثوابت :

« وما يلفت الانتباه في تجربة هؤلاء الشبان أنهم لا يخضعون للثوابت » [١].

ويدعو إلى مغادرة المألوف والمعهود من الأفكار والقيم - فيقول :

« والحقيقة أن العالم يخرج من جلده تدريجياً ... ، ويكتسب كل يوم أبعاد ثقافة جديدة ووسائل تعبير وأساليب حياة تختلف كثيراً أو قليلاً عن المعهود والمألوف ... ، وعبارة الخروج هذه عبارة شعرية استعارية تعني مغادرة المألوف والنزوع نحو التجديد ، وهذا النزوع لا يكتفي بخلع الجلد ولا بتلوينه ، ولكنه يصر على اختراق القشرة الخارجية للجسد ، للوثوب إلى مناطق الإحساس واحداث التعبير المنشود المتكامل » [٢].

وهذا عبدالله الغذامي ، وهو حداثي من أرض الجزيرة العربية يشترط على الحداثي أن يخالف السائد والمألوف فيقول :

« من شرط الإبداع أن يكون فوق السائد والمألوف ... » [٣].

ويؤكد هذا الشرط الحداثي العراقي نصيف الناصري فيقول :

« ... ، فما معنى أن نتحدث عن الحداثة ونحن نكتب وفق المفاهيم السائدة ونظم التأليف الموروثة .

---

(١) صحيفة الرياض ع ٦٧٩٤ في ١٤٠٧/٥/٢٩هـ ، ص ١٢ .

(٢) الخروج من دوائر الساعة السليمانية ص ٥، ٦ .

(٣) صحيفة عكاظ ع ٧٥٦٦ في ١٤٠٧/٦/١٦هـ ، ص ٧ .

عندما نكون مرفوضين شعرياً ، نكون حداثيين شرط أن تكون مبررات الرفض لعنة إبداعية ، إننا الآن مطالبون بإيجاد أشكال جديدة ونظم تأليف جديدة تنأى عن ما هو سائد ، ... » [١].

والحداثي السوري يوسف الخال كذلك يرى أن الحداثة هي نظرة للأشياء على غير ما سلف فيقول :

« الحداثة في الشعر ابداع وخروج به على ما سلف ، وهي لا ترتبط بزمن ، وكل ما في الأمر أن جديداً ما طرأ على نظرتنا إلى الأشياء فانعكس في تعبير غير مألوف » [٢].

ومن أبرز معاني الحداثة النقيض والضدّية ، فهي ثورة ضد الثابت من الأفكار والثقافات والسياسات ، يقول الحداثي المغربي محمد بنيس : « وتختار حداثة الضد في العالم العربي حداثة الضد في الغرب ، وهي حداثة فكرية سياسية بالدرجة الأولى ... هذه الحداثة الضد تهب الفكري مداه السياسي ، الاجتماعي ، الثقافي ، الإبداعي ، ونحن جميعاً متورطون في الغرب ؛ متورطون في الحداثة » [٣].

ويقول الحداثي المصري ادوار الخراط :

« التعريف الأول للحداثة أنها نفي وأنها نقيض نظام من التقاليد التي رسخت ... الحداثة تنطوي إذن على قلق لا يريم ، دائم لا يعفو عليه الزمن ؛ تنطوي على نوع من الهدم المستمر في الزمن ، دون أن يتحول إلى بنية ثابته ، تنطوي على سؤال مفتوح ، لا تأتي السنوات بإجابة عنه ، وهذه

---

(١) مجلة الطليعة الأدبية ع١/٢ في ١٩٨٧م . ص ٣٩ .

(٢) الحداثة في الشعر ص ١٥ .

(٣) حداثة السؤال ، بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة ص ١١٧.

هي القيمة الإيجابية التي تنطوي على النفي وتجاوزه في نفس واحد »[١].

ثم يبين ذلك النقيض والنفي بقوله :

« الحداثة تتحدى نظم القيم الراسخه والسائدة في كل العصور لا لإقامة نظام قيمي جديد ؛ بل بحثاً عن نظام قيمي – شكلي ومضموني معاً – مقذوف به – دائماً – في المستقبل ، نظام ... يفلت من التقنين باستمرار؛ لأنه دائماً موضع شك ، ودائماً موضع سؤال ، ودائماً متناقض في داخله ، ومتناقض مع إطاره الاجتماعي ، ودائماً قابل للمراجعة بلا انتهاء الى حل قطعي »[٢].

ويقول الحداثي فيصل درّاج :

« إن الدعوة إلى الحداثة الأدبية زائفة أو فقيرة ، إن لم تستند إلى وعي يربط بين حداثة المستوى الأدبي ، وحداثة المستويات الاجتماعية كلها »[٣].

---

(١) مجلة فصول مج ٤ ، ع ٤ ، ١٩٨٤ ص ٥٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٨ .وانظر: ما ذكره الحداثي المصري محمود أمين العالم في كتابه : مفاهيم وقضايا اشكالية ص ٧٧ – ٨٠ .

(٣) قضايا وشهادات ٢/٩٣ .

الحداثة عقيدة مغايرة لما سبقها

إن الحداثة - كما ذكرت سابقاً - رؤية جديدة مخالفة للاعتقاد الصحيح ، إنها تصور إلحادي ، إنها تمرد ورفض للعقيدة الإسلامية وما جاء به الوحي من الله تعالى .

يقول الحداثي المصري غالي شكري : « مفهوم الحداثة عند شعرائنا الجدد مفهوم حضاري ، هو تصور جديد للكون والإنسان والمجتمع .

والتصور الحديث وليد ثورة العالم الحديث في كافة مستوياتها الاجتماعية والتكنولوجية والفكرية »[١].

ويؤكد هذا المعنى الحداثي السعودي محمد العلي ويقول :

« فالحداثة هي ذلك الافراز الجدلي الذي يتم بين السياقات ، ووفق صراع لا يدرك بالعين المجردة ، ذلك الافراز الجدلي المتقدم إلى الأجمل والأعمق في رؤية الإنسان والحياة هو ما أسميه وأعتقد بأنه الحداثة »[٢].

فالحداثيون يرون أنه لا بد من الصراع مع ما هو ثابت في أمور العقيدة والشريعة والأخلاق ، هذا الصراع الجدلي بين المتناقضات يولد - على حد زعمهم - المنهج المعرفي - السليم المغاير لمنهج التلقي في الإسلام والذي يسمونه بالمنهج التقليدي القديم .

يقول الحداثي السوري أدونيس :

« الحداثة هي موقف معرفي أدى إلى تغيير نظام الحياة ، وهذا الموقف المعرفي يقوم على أن الإنسان هو مركز العالم ومصدر القيم ، وعلى أن المعرفة اكتشاف للمجهول الذي لا ينتهي ، وعلى أن مصدر القيم ليس غيبياً ، وإنما هو إنساني ، وهذا ما يتناقض مع الموقف المعرفي الإسلامي

---

(١) شعرنا الحديث الى أين ص ١٤ .

(٢) صحيفة عكاظ ع ٧٤١٢ في ١٤٠٧/٢/١٠هـ ص ٠٩.

بدون تأويل جديد، أو قراءة جديدة له ، هذا والقراءة لما تبدأ بعد ... » [١].

وفي موضع آخر يصرح أدونيس بأن الحداثة تقوم على مبدأ الصراع من أجل تغيير النظام الإسلامي فيقول :

« ومبدأ الحداثة هو الصراع بين النظام القائم على السلفية والرغبة العاملة لتغيير هذا النظام ...» [٢].

ومرة أخرى يصرح بأن الحداثة ثورة ضد الدين ، والسياسة ، والمجتمع ، والأسرة فهو يقول :

« إن القصيدة أو المسرحية أو القصة التي يحتاج إليها الجمهور العربي ليست تلك التي تسليه أو تقدم له مادة استهلاكية ، ليست تلك التي تسايره في حياته الجارية ، وإنما هي التي تعارض هذه الحياة أي تصدمه ، تخرجه من سباته ، تفرغه من موروثه ، وتقذفه خارج نفسه .

إنها التي تجابه السياسة ومؤسساتها الدين ومؤسساته ، العائلة ومؤسساتها ، التراث ومؤسساته ، وبنية المجتمع القائم كلها بجميع مظاهرها ومؤسساتها ، وذلك من أجل تهديمها كلها ... ، يلزمنا تحطيم الموروث والثابت ...» [٣] .

هذا مفهوم الحداثة عند أدونيس ، وهو المفهوم الذي دعت إليه زوجته الحداثية خالدة سعيد في قولها :

« الحداثة ثورة فكرية وليست مجرد مسألة تتصل بالوزن والقافية أو بقصيدة النثر ...، وما إلى ذلك من تفصيلات ... .

الحداثة وضعية فكرية ، لا تنفصل عن ظهور الأفكار والنزعات

---

(١) مجلة المنتدى ع ٨٧ ، ربيع الأول ١٤١١هـ ، ص ٦ .

(٢) الثابت والمتحول ٣/٩ .

(٣) زمن الشعر ص ٧٦ .

التاريخية التطورية ، وتقدُّم المناهج ، وهي تتبلور في اتجاه تعريف جديد للإنسان عبر تحديد جديد لعلاقته بالكون .

إنها إعادة نظر شاملة في منظومة المفهومات والنظام المعرفي ، أو ما يكوِّن صورة العالم في وعي الإنسان ، ومن ثَمَّ يمكن أن يقال : إنها إعادة نظر في المراجع والأدوات والقيم والمعايير ؛ وهذا بالضبط – على وجه التحديد – هو معنى الشعارات التي أطلقها بعض رواد الشعر الحديث في الخمسينات من قبيل : (رؤيا جديدة) ، (إعادة خلق العالم) ...» [١].

فالحداثة إذن عند أدونيس وزوجته ، وهما من كبار منظريها ، ثورة معرفية ضد مصادر التلقي للمعرفة عند المسلمين ، وإعادة النظر في المراجع والأدوات والقيم والمعايير الشرعية الثابتة التي تحدد علاقة الإنسان بالكون ، وذلك من أجل أن ينتقل مصدر المعرفة من الوحي إلى العقل البشري المجرد ، وهذا ما تتضمنه العبارات الحداثية الجديدة من قبيل : (رؤيا جديدة) ، (إعادة خلق العالم) ، وغير ذلك مما بينَّه أدونيس وزوجته وغيرهما .

وبهذا المفهوم يصرِّح الحداثي السوري كمال أبو ديب قائلاً :

« الحداثة انقطاع معرفي : ذلك أن مصادرها المعرفية لا تكمن في المصادر المعرفية للتراث ، في كتب ابن خلدون الأربعة ، أوفي اللغة المؤسساتية ، والفكر الديني ، وكون الله مركز الوجود ، وكون السلطة السياسية مدار النشاط الفني ، وكون الفن محاكاة للعالم الخارجي .

الحداثة انقطاع ؛ لأن مصادرها المعرفية هي اللغة البكر ، والفكر العلماني ، وكون الإنسان مركز الوجود ، وكون الشعب الخاضع للسلطة مدار النشاط الفني ، وكون الداخل مصدر المعرفة اليقينية ، إذا كان ثمة

---

(١) مجلة فصول ، مج ٤، ع٣ ، عام ١٩٨٤م ص ٢٥ ، ٢٦ .

معرفة يقينية ، وكون الفن خلقاً لواقع جديد ....»[١].

لعل هذا التعريف الذي ذكره كمال أبو ديب لا يحتاج إلى شرح وبيان ؛ وذلك لصراحته ، في اعترافه بمخالفة الحداثة للمصادر المعرفية عند المسلمين ومصادمتها إياها .

ثم يصرِّح أكثر – بعد ذلك – ويقول :

« قلت في فقرة سابقة : إن الحداثة العربية انقطاع معرفي ، وهذه نقطة جديرة بالمتابعة .

الحداثة ليست انقطاعاً نسبياً فقط ، بل هي أعنف شرخ يضرب الثقافة العربية في تاريخها الطويل .

ليس في هذه الثقافة في أي مرحلة من مراحلها ما يعادل هذا الانشراخ المعرفي والروحي والشعوري ، الذي يكاد يكون انبتاتاً عن الجذر ، لا يبقى فيه من روابط سوى اللغة بأكثر دلالاتها أولية أي بكونها قاموساً مشتركاً للتواصل .

الحداثة المعاصرة تمثل انشراخاً عميقاً عمق الهاوية وانسلاخاً يكاد أن يكون كلياً ضمن بنية هذه الثقافة .

هكذا تتحدد الحداثة بموضعتها بين قطبين: قطب يقف إلى جانب هوة تفصل بينه وبينها،وقطب يكمن في مستقبل مبهم تسعى هي إليه .

الحداثة إذن ، هي أرض الضياع ، تيه دون علامات ، تيه جسده أدونيس في خلق مهيار الذي لا أسلاف له ، وفي خطواته جذوره ، كل خطوة تصنع جذراً منه يبدأ النمو .

الحداثة صراع بين الماهية والوجود ، فيه يصبح الوجود سابقاً

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧ .

على الماهية بمدلول معرفي كامل لافني بحت ...» [١].

وهذا عبدالعزيز النعماني يؤكد أن الحداثة موقف جديد من الكون والانسان والمجتمع وأنها موقف ثوري ، يؤذن بالتغيير للفكر الإنساني ، وذلك بقوله :

« إن المفهوم الحضاري الحديث يعنى ذلك التصور الجديد للعالم، الذي اقتحم نظرة الإنسان إلى الكون والإنسان والمجتمع في العقدين الأخيرين من هذا القرن .

ولئن كانت هناك إرهاصات متنوعة عرفها الفكر الإنساني في بداية هذا القرن ، ومع مقدمات الحرب العالمية الأولى ؛ فإنها لا تعدو كونها إرهاصات آذنت بالتغير الثوري الجديد ، ولم تكن التغيير نفسه » [٢] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٨ .

(٢) فن الشعر بين التراث والحداثة ص ٢٠٧ .

الحداثة نقيض الإسلام

لا شك أن الحداثة نقيض الإسلام ، فهي تعني الابتداع وإحداث فكر مغاير للعقيدة الإسلامية ، و« خلق فلسفة» حديثة ، يكون مصدرها الأرض لا السماء ، كما يعبرون .

ويُعَد الحداثي المصري جابر عصفور من كبار منظري الحداثة ، وقد صرّح بالهجوم على الإسلام والسنة النبوية المطهرة ، وسخر من علماء الجزيرة العربية ولمز دينهم ووصفه بإسلام النفط .

ومما قاله في ذلك :

« إن إسلام النفط يمتح من المخزون النقلي الاتباعي ، الذي ظل معادياً للحداثة طوال عصور التراث ، ويؤسس علاقة متميزة بفكر الحنابلة ، الذي تمثله كتابات ابن الجوزي وابن تيمية بوجه خاص ، وهي كتابات لها علاقاتها الأصولية التاريخية بالمذهب الوهابي ، أهم المذاهب النقلية السائدة في منطقة الجزيرة العربية .

إن إسلام النفط يكرر الأصوات السابقة في التراث النقلي ... ، ويجد التقليد الاتباعي ما يدعمه ويبرره في المأثور الذي تنطقه دوال من قبيل :

- قدم الإسلام لا تثبت إلا على قنطرة التسليم .
- إن الشيطان مع الواحد .
- الشيطان مع من .. يخالف الجماعة .
- قف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكف عما كفوا ، واسلك سبيل السلف الصالح .
- إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة

ضلالة، وكل ضلالة في النار .

- ما ازداد صاحب بدعة اجتهاداً إلا ازداد عن الله - عز وجل - بعداً .
- النظر الى الرجل من أهل السنة يدعو إلى السنة وينهى عن البدعة عبادة .
- البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، المعصية يثاب عنها ، والبدعة لا يثاب منها .

هذه الدوال تشير إلى أصول نقلية يتم تأويلها في الممارسة الأيديولوجية فتتحول إلى مخايلات تقرن التقليد بسلامة الدين ، وتصل أعمال العقل بالبدعة ، وتربط البدعة بالضلالة المفضية إلى النار ، وفي الوقت نفسه تتسع بمفهوم البدعة لتجعل منها قرينة كل فعل إنساني يسعى إلى اكتشاف أفق مغاير استناداً إلى ما يقوله الحنابلة : فالبدعة - (عبارة عن فعل لم يكن فابتدع ...) ...» [١].

ثم يبين جابر عصفور موقف الحداثة من الإسلام ونصوصه الشرعية فيقول :

« من الطبيعي أن يمثل خطاب الحداثة نقيضاً صارماً لكل ما ينطوي عليه خطاب إسلام النفط من دلالات ، فالحداثة تعني الإبداع الذي هو نقيض الاتباع ، والعقل الذي هو نقيض النقل ، وهي تؤكد أن المعرفة الدينية شأنها شأن إرادة الفعل الاجتماعي السياسي ، لا تتشكل إلا انطلاقاً من حرية الفرد، وقدرته على الاختيار ....

إن الفرد الحداثي يتأبى على التأويل النقلي الذي يجعل صورة الشيطان تلازم الواحد ، أو من يخالف الجماعة ، ويؤسس صورة الإنسان المغاير ، الذي يحركه وعي ضدي ، وتوتر معرفي ، لا تهدأ رغبته في البحث عن أفق مغاير واعد ... .

---

(١) قضايا وشهادات ٢/٣٥٩ .

كيف يستجيب الخطاب الأيديولوجي لإسلام النفط إلى الحداثة ؟، إن الصدام واقع لا محالة ، فالحداثة لا تمثل نقيضاً معرفياً للأسس القارة ، التي يتكون منها إسلام النفط ، بل تمثل نقيضاً وجودياً واجتماعياً وإبداعياً، ولا يتوقع المرء من الخطاب الأيديولوجي لإسلام النفط سوى الاستجابة العدائية إلى الحداثة وخطابها الضدي .... »[1].

ثم يضرب مثالاً من الحداثيين السعوديين الذين يصادمون - كما يقول - إسلامَ النفط ، ويعبثون بتصوراته النقلية .

فيقول :

« ومن اللافت للانتباه أن الخطاب المعادي للحداثة لا يصل إلى ذروته وأقصى عنفه إلا إزاء النص الشعري الذي يعبث بتصوراته النقلية عن الإنسان ؛ أعني النص الشعري الذي يحرك الرعب الاجتماعي من الحداثة... على نحو أقرب إلى ما يومئ إليه المقطع التالي من قصيدة {الحداثي السعودي} عبدالله الصيخان :

اصعد ياحبة قلبي اصعد

ستلاقي رهطاً يسترقون السمع على درجات الكون ، فحادثْهم

اسمع ما يعطيك مفاتيح الأشياء وما يمنح ساقك في الريح

مدى ويديك نهار

هذي آخر عتبات الكون الكامل

أنت الآن على لهب منها فادخل

وتيمّمْ بالنار وصلّ

تأمل ماحولك

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦٦ ، ٣٦٨ .

زواجٌ بين الرمل وبينك ، بين النار وبينك ، بين الماء وبينك
وادخل في جدل الأشياء
أنت الآن ترى   أنت الآن ترى [١] ... » [٢].

ثم يشرح جابر عصفور قصيدة الحداثي السعودي عبدالله الصيخان فيقول :

« إزاء هذا الإنسان المتطلع إلى امتلاك مفاتيح الأشياء وسر الحركة ، المتيم بنار الثورة ، الذي يدخل في جدل مع الأشياء ؛ ليرى ويكتشف ويندفع في التجربة الحية ، خطوة الريح ، إلى آخر عتبات الكون : حيث النار ، رمز المعرفة والتجدد ، والخلق والتمرد ، والماء رمز الولادة الجديدة والتخلق ، إزاء هذا الإنسان يتفجر عنف خطاب إسلام النفط ، وتتوجه حملته القمعية ... » [٣].

ثم يضرب مثالاً آخر ويقول :

« ولكن ثمة قصيدة نالت دون غيرها أكبر قدر من هذه الحراب ، ونال صاحبها أكبر قدر من الهجوم ، بوصفه رمز الحداثة والتحديث ، البارز في هذه المنطقة ؛ أعني عبدالعزيز المقالح ، الشاعر اليمني ، الذي تجاوز إبداعه أفق المنطقة وصار أحد أعمدة الشعر العربي المعاصر .

وخطيئة هذا الشاعر هي خطيئة أقنعته الإبداعية ، تبدأ بالرغبة في تجاوز زمن الثبات والجمود والاتباع .

ولكن ما القصيدة الشهيرة التي انصب عليها الهجوم ، واتهم

---

(١) هواجس في طقس الوطن ص ١٠ .

(٢) قضايا وشهادات ٢/٣٧٠.

(٣) المصدر السابق ص ٣٧٠ ، ٣٧١ .

بسببها بالالحاد ، إنها قصيدة (الاختيار) :

(كان الله قديماً – حباً ، كان سحابة

كان نهاراً في الليل ، وأغنية تتمدد فوق جبال الحزن

كان سماء تغسل بالأمطار الخضراء تجاعيد الأرض

أين ارتحلت سفن الله ... الأغنية الثورة ؟

صار الله رماداً ، صمتاً ، رعباً في كف الجلادين ... ، أرضاً

تتورم بالبترول ، حقلا ينبت سبحات وعمائم ، بين الرب الأغنية

الثورة ، والرب القادم من هوليود) [١] ...»[٢].

ويؤكد الحداثي يوسف سلامة أن الحداثة هي « رفض الأشياء العتيقة للحياة والفكر والسلوك ... » ، وأنها تعني « تحديث البنى الاقتصادية والفكرية ، والايديولوجية والسياسية ... » [٣].

وهو ما أكده السعودي عثمان ياسين الرواف [٤].

ويعلن الحداثي السوري انطون مقدسي « أن الحداثة تريد أن تلغي القائل ؛ لتجعل الأشياء تقول » [٥].

ويقرر الحداثي هشام شرابي أن الحداثة تسعى إلى أن تذوب « الحقيقة الكلية الشاملة ، التي ميّزت وعي ما قبل الحداثة (الخطاب الأبوي التقليدي) ، تذوب ، ويحل محلها حقيقة من نوع آخر ، حقيقة تنبثق عن وعي

---

(١) الكتابة بسيف الثائر علي بن الفضل ص ٥-٩.

(٢) قضايا وشهادات ٢٧١/٢ ، ٢٧٣ .

(٣) المصدر السابق ص ١٧٤، ١٧٥.

(٤) انظر : مجلة العلوم الاجتماعية . مج ١٧ ع ٢ صيف ١٩٨٩ص٧٢٥١ .

(٥) مجلة الموقف الأدبي ع ٧١ آذار ١٩٧٧م ص ٧٠ .

محدد ، ومن ممارسات إنسانية اجتماعية محدّدة ، ومن نشاطات حرّة خلاقة، لا من وحي إلهي ، أو من حقيقة أزلية »[١].

ويقول الحداثي المصري جابر عصفور بأن (الله موجود في كل وجود ، ويمكن أن يناقض بتأويل آخر»[٢].

وكذلك الحداثي عبدالرزاق عيد يؤكد بأن الحداثة «اغتالت الله والجمال والأخلاق والفن »[٣].

ويؤكد الحداثي اليساري المصري حسن حنفي بأن هدف الحداثة « إعدام المؤلف والإنسان والله » ، وأنها « تعلن موت الإنسان بعد أن أعلنت موت الإله »[٤].

تعالى الله عما يقول الضالمون علواً كبيراً .

ويتحدث أدونيس عن طموح الحداثيين في العالم العربي ، فيقول :

« ما نطمح إليه ، ونعمل له كثوريين عرب هو تأسيس عصر عربي جديد، نعرف أن تأسيس عصر جديد يفترض بادئ ذي بدء الانفصال كلياً عن الماضي، نعرف كذلك أن نقطة البداية في هذا الانفصال – التأسيس ، هي النقد ، نقد الموروث ، ونقد ما هو سائد شائع ، لا يقتصر دور النقد هنا على كشف أو تعرية ما يحول دون تأسيس العصر الجديد ، وإنما يتجاوزه إلى إزالته تماماً .

إن ماضينا عالم من الضياع في مختلف الأشكال الدينية

---

(١) ندوة مواقف الإسلام والحداثة ص ٣٧٦.

(٢) انظر : المصدرالسابق ص ٣٩٦.

(٣) قضايا وشهادات ٢/٢٧٥ .

(٤) ندوة مواقف الإسلام والحداثة ص ٤٠٥ .

والسياسية والثقافية والاقتصادية ، إنه مملكة من الوهم والغيب ، تتطاول وتستمر ، وهي مملكة لا تمنع الإنسان العربي من أن يجد نفسه وحسب ، وإنما تمنعه كذلك من أن يصنعها....

ولما كانت بنية الثقافة والحياة العربيتين السائدتين تقوم في جوهرهما بالدين ؛ فإننا نفهم أبعاد ما يقوله ماركس من أن (نقد الدين شرط لكل نقد) .... وإذا فهمنا بالتالي أن النقد عند ماركس ليس عقلياً تجريدياً ، بل عملي .... نستطيع أن نقول : إن النقد الثوري للموروثات العربية شرط لكل عمل ثوري عربي »[١].

وتأمل قول الحداثية ثريا العريّض :

« مشكلتنا مع المثقف ، أو مشكلة المثقف معنا ؛ أننا في العالم الثالث ، بصفة عامة ، ما زلنا مخلصين لمبدأ التبعية المطلقة ، جمهور يقتفي خطى دليل يحمل له لوحة التعليمات ، وخارطة الدرب القادم ... .

ولكننا نعود فنقيده { المثقف } بمطالبتنا له أن ينحصر في ماهو معلوم ، وما هو محدد ومجرب ، وسائد ومقبول . ونُفهمه أن كل خروج عن النص السائد خيانة عظمى ....» [٢] .

ويعرف الحداثي حليم جرداق الحداثة بأنها موقف وحالة تقود إلى تطور الفكر وصناعة المستقبل ، فهو يقول في تعريفها :

« الحداثة تعني ما هو حي وحر في الحياة ، هي حالة وموقف ، الفنان الحديث هو صاحب الوعي الحديث ، هو وعي يختص بالأفراد والجماعات التي تقود تطور الإنسان وتصنع المستقبل » [٣] .

---

(١) مجلة مواقف ع ٦ ، ١٩٦٩م الافتتاحية .

(٢) مجلة المنهل ع ٥١١ المجلد ٥٥ رجب ١٤١٤هـ ص ٣٢ .

(٣) مجلة مواقف ع ٢٧ عام ١٩٧٤م ص ١٧ .

ويقرر الحداثي المصري جابر عصفور أن الحداثة هي :

خلخلة لكل ما هو ثابت ، ... ، وأن الحداثة تفقد قيمتها لو فقدت صلتها بالحياة والواقع »[١] .

وكما أن الحداثيين يتمردون على السابق والمألوف ، ويثورون على العقيدة وأصولها، فكذلك يرفضون الشريعة وأحكامها، ويطالبون بالتحرر من الدين وأحكامه ، حتى لا يبقى في هذه الدنيا ما يوصف بالتحريم والكراهية الشرعية .

تقول الحداثية أنيسة الأمين :

« الدينامية الهائلة للحداثة تكمن في أنه لا شيء مقدس بالنسبة لها ، لا شيء محرم ، ...، إنها لا تتوقف عند عتبة الجسم ...، لا تتوقف عند عتبة الطبيعة ، ولا عند عتبة القصور والكنائس ، كل شيء مباح ، لا شيء ينجو من دراسة العلم ...، وحاولت العلوم بميادينها وتخصصاتها تمزيق ستائر هذا المحرم ....

أزاح الغرب انجيله من مكان الصدارة ، وابتدأ البحث عن انجيل التقدم والعقلانية والتطور ... .

أصبح الإنسان مع نزع هالة التقديس والألوهة عن الكون ، ومدبره ، أصبح يقع في مركز الكون ، ويشكل مبدأ القيم والغايات ، وعندئذ ترسخت الحركة الإنسانوية .

توقف الإنسان عن الدوران حول المقدس ، وحلّت مشروعية إنسانية جديدة محل المشروعية الدينية السابقة، ونتج عن ذلك أخلاق جديدة، وقوانين جديدة ، تنطبق على البشر دون استثناء ، ودون اعتبار اللون

---

(١) مجلة ابداع ع ٤ رمضان ١٤١١هـ ص ٢٧ .

والعرق ، أو المذهب والدين ...» [١] .

ويتحدث الحداثي عبدالوهاب بوهديبا عن الحداثة وموقفها من المرأة فيقول :

« الحداثة بالنسبة للمرأة العربية هي مثلها بالنسبة للمراهق ، وتختصر بكلمة حادة وحاسمة : الرفض ، وترى الحداثة كأنها ليست بتبني طريقة جديدة في العيش والتفكير بقدر ما هي رفض القديم ... .

إنما من الملفت أنه في ما يتعلق بالأخلاق الجنسية ، الحداثة ليست سوى إرادة اللا ، ولم يكن من قبيل المصادفة أن الحداثة كانت ومنذ البدء مطابقة لتحرر وانطلاق المرأة ، وانتهت بأن أصبحت مطابقة للتحرر الجنسي ...» [٢] .

وعلى هذا فالحداثيون ينادون بتحرير المرأة من الأحكام الشرعية حتى تصبح كالبهيمة بين الذئاب .

وإن قلق الحداثيين من الإسلام لعظيم ، يقول الحداثي المغربي محمد بنيس :

« هناك ما يمكن تسميته بالإحساس الديني ، الذي يتحرّك الآن في العالم ، أنا شخصياً لا أعرف هذه الأشياء ، ولا أعرف كيف تحلل ، ولا كيف أجيب عنها ، ولكن أقول : إن هذه وضعية جديدة » [٣] .

ويقول الحداثي السوري انطون مقدسي :

« جاءت تلك الموجة السلفية العنيفة ، التي بدأت منذ أواخر

---

(١) قضايا وشهادات ٢/١٠٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٠ .

(٣) ندوة مواقف الإسلام والحداثة ص ٢٧٦ .

السبعينات ، لقد عرفنا من قبل موجات سلفية ، ولكن أياً منها لا يقارن بالموجة الراهنة ، إنها فظيعة ، إنها ضيقة الأفق ، ومثقلة بالحقد والعنف ، يوم وقعنا البيان الذي تضمن احتجاجاً على إهدار دم الكاتب سلمان رشدي جاءتني رسائل كثيرة ، بعضها يهدد ، وبعضها يتساءل ، ويستنكر ، ولم يبق أحد يعرفني ، إلا وسألني : كيف وقعت هذا البيان . أأنت ضد الدين ؟ ... »[١] .

ولهذا يدعو الحداثي الماركسي طيب تزيني إلى « تصفية حساب مع هذا التراث » وإعادة النظر فيه من منظور حداثي ماركسي ، فما وافقه يقبل ، « وأما مالا يستجيب منه لذلك ؛ فإنه يعزل »[٢].

هكذا هي الحداثة تتمرد على الإسلام ، وتسخر منه ، وتدعو الى عقيدة مادية ملحدة ، تقوم على آراء فلسفية وضعية لا صلة لها بعقيدة التوحيد .

بل اتضح من أقوالهم أنهم يسعون إلى هدم الإسلام ، وإلغاء أحكامه تماماً ، وهذا من أهم وأعظم مفاهيم الحداثة .

---

(١) قضايا وشهادات ٣/٧، ٨ .

(٢) انظر : من التراث الى الثورة ص ١١٣، ٢٤٧ .

الحداثة حركة ثورية ، تتمرد على الموروث و السائد والمألوف .

يتفق الحداثيون على مخالفة الحداثة للسائد والمألوف ، والحق الموروث ؛ بغية تغييره .

فالحداثي يوسف الخال يؤكد على أن الحداثة ليست أشكالاً تعبيرية فقط وإنما هي نظرة أخرى تجاه الحياة فيقول :

« فالحداثة لا تكون باتباع أشكال تعبيرية شعرية معينة ، بل باتخاذ موقف حديث تجاه الحياة ومنها تجاه القصيدة » [١] .

والحداثي وفيق رءوف يبين دور الحداثة في تغيير المجتمع والعالم ويقول :

« إن الوعي الثقافي مرتبط أصلاً بالوعي السياسي ، وإذا كان دور الحركات السياسية التقدمية هو الهدم والبناء من جديد؛ بغية خلق عالم أسمى وأفضل ؛ فإن دور الأدب الحقيقي هو النقد والمعارضة والتنبؤ ، والعمل على تغيير المجتمع والعالم ، والتقدم بهما عن طريق اعادة خلقهما فنياً ، وهكذا كان الحال بالنسبة لحركة الشعر العربي الحديث ...» [٢] .

ويصرح عبدالحميد جيده بالمفهوم الحداثي الرافض والمتمرد على السائد والمألوف العقدي والفكري بوجه عام إذ يقول عن الحداثة : « إنما هي التحولات العظيمة في مجرى التراث وكسر الجمود الذهني والعقلي ، هي الحركة المستمرة في مواجهة الثقافة السائدة التي تحشو أفئدة الناس موروثاً مهلهلاً لا فائدة منه .... إنها تفتح دائم ، ومغامرة في روح العصر على أن تصبغ على الكون رؤية ذاتية فريدة ، خارجة على المألوف والتكرار،

---

(١) الحداثة في الشعر ص ٨٤، ٨٥ وانظر ص ١٦، ١٧ .

(٢) مجلة الآداب ع ١٢ ديسمبر ١٩٧٩م، ص ٥٢ .

هي تفكيك البنية القديمة المستهلكة ، وخلق نماذج جديدة ...» [١].

ويرى الحداثي العراقي محمد تركي النصار أن التمرد على التراث فخر يستحق فاعله التمجيد فهو يقول :

« أنحاز للشاعر الذي يفهم التراث ، لا يكرّره أو يُسجن فيه ، بل ليتخطاه ويقطع صلاته به ؛ ليشكل إضافة نوعية له ، ولا يضر الشاعر الحقيقي بعد ذلك أن يتهم بالعقوق والتمرد ، ففي هذا تمجيد له .

الحداثة هي تجاوز وتخط مستمران ، إنها قدرة الشاعر على إعادة خلق العالم ... » [٢] .

ومن أرض الجزيرة العربية يأتي الحداثي سعيد السريحي ليؤكد للناس بأن الحداثة نظرة للعالم ، وموقف فكري جديد ، يهز الحياة ليمنحها بعداً جديداً ، وذلك في قوله :

« للحداثة مفهوم شمولي ، هو أوسع مما منح لنا ، ومما ارتضينا لأنفسنا ، إن الحداثة نظرة للعالم أوسع من أن تؤطر بقالب للشعر وآخر للقصة وثالث للنقد ، إنها النظرة التي تمسك الحياة من كتفيها، تهزها هزاً ، وتمنحها هذا البعد الجديد » [٣].

وحداثي آخر من أرض الجزيرة العربية أيضاً ، وهو عبدالرحمن المنيف يؤكد على أن الحداثة تعني مواجهة القديم من الأفكار والقيم وغيرها ، وتعني – بعبارة أدق – نقل مصادر المعرفة من الوحي إلى العقول البشرية المجردة .

ومما قاله في ذلك :

---

(١) مجلة الفيصل ع ٩ ربيع الأول ١٣٩٨هـ ص ٣٢.

(٢) مجلة الطليعة الأدبية ع ٢/١ في ١٩٨٧م ص ٧٢ .

(٣) مجلة الشرق ع ٣٦٩ في ١٤٠٦/١٢/٣هـ ص٢٦ .

« وهكذا نجد أن أول معنى من معاني الحداثة : الجديد في مواجهة القديم ، والجديد لا يقتصر على الفكر والأدب ، وإنما ينسحب أيضاً على البنى الاقتصادية والاجتماعية ، وإلى قيم جديدة مختلفة عما هو قائم وسائد، وإلى علاقات تلائم هذه القيم ، كل ذلك مع تطور لا يلبث يتسع ويتزايد ، في العلوم والتكنولوجيا والمعارف الإنسانية ، إضافة إلى تنمية القوى المنتجة وتنامي الوعي ، وعلمانية في الفكر والسلوك ؛ لأن مركز الثقل أخذ ينتقل من السماء إلى الأرض ... » [١].

ثم يؤكد على أن الحداثة ليست شكلاً ، وإنما هي مضمون يقوم على الرفض والتجاوز ، وذلك واضح من قوله :

« ... ؛ ولأن الحداثة ليست شكلاً أو شيئاً ، وإنما هي روح وحالة ؛ فإن من أبرز صفاتها التجدد المستمر، وعدم الركون إلى التقاليد أو التقليد ، وهي الرفض والبحث والتجاوز باستمرار ، وهي بمقدار ما تظهر في الأدب والفن ؛ فإنها كلية شاملة ، أي أنها نظرة إلى المجتمع والعلاقات، وأيضاً الأفكار والأشكال ... » [٢] .

وحداثي ثالث من هذه البلاد هو عبدالله الغذامي كثيراً ما يؤكد على أن الإبداع هو التمرد على السائد والسابق من المبادىء والأفكار ، ومن أقواله – غير ما سبق – قوله :

« الذي نعرفه أن من طبيعة الإبداع التمرد على كل ما سبق من قبل ، فكيف بي أفرض سائداً سابقاً على نص متمرد ، وهذا السابق يشمل الأيديولوجية ، و يشمل الفلسفة ، ويشمل المبدأ المقرر سلفاً » [٣] .

---

(١) قضايا وشهادات ٢/٢١٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٣) صحيفة الشرق الأوسط ١٩٨٧/٣/١٠م ص ١٣.

ولشدة تمسك عبدالله الغذامي بالحداثة نجده يدافع - بكل قوة - عن الحداثيين وينعتهم بحاملي الثقافة ، بينما يهاجم أصحاب الفكر الأصيل ويطلق عليهم لفظ العموديين أو التقليديين [١].

ومن شدة خشيته على الفكر الحداثي وخوفه من الفكر المستقيم وأصحابه، أصيب بعقدة الخوف والقتل والتصفية الوهمية ، وذلك بيّن من قوله :

« لقد رأيت بعض العموديين وأنا عليهم مشفق ولهم محب ، رأيتهم يبذلون قصارى هممهم لقتل من عداهم من حاملي الثقافة في هذا البلد ، وهم لا يسعون إلى الحوار والمناقشة ، وإنما يسعون إلى تصفية الوجود ... » [٢].

ومن أشهر من قرر المنهج الحداثي ودعا إليه ودافع عنه الحداثي الماركسي اللبناني حسين مروّة ، ونجده في أحد كتبه يعدد المقومات العامة لمفهوم الحداثة فيما يلي :-

١- الاستجابة لقضايا العصر وطرقه في الرؤية والتفكير والتعبير والتذوق .

٢- استخدام أدوات التعبير المعاصرة مثل الرمز والاسطورة والحلم والفكر والحوار .

٣- معيار الحداثة هو الشكل والمضمون معاً ، ولا فصل بينهما وحالات فصل الشكل عن المضمون هي حالات الانقطاع بين الشاعر والحياة.

٤- المضمون الحديث يعني معايشة الواقع الحديث بكل أبعاده ، وتحديد موقف معين من العالم .

٥- رفض النزعة الجمالية التي تصنف الموضوعات والألفاظ إلى

---

(١) انظر كتابه :الموقف من الحداثة ص ١٠ ، ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠ .

شعرية – وأخرى غير شعرية .

٦- الموسيقى الشعرية ليست من الوزن وحده ؛ بل هي مركبة من الوزن والصور والمعاني والأفكار والأصوات والوقفات .

٧- إيجاد لغة قابلة التفاعل الداخلي مع العصر بايحائية مستحدثة .

٨- تطور الرؤية الإنسانية ثم الرؤية الفنية في الموقف من العالم هو في أساس البناء الشكلي الجديد في الشعر العربي (١) .

ويؤكد هذه المقومات الحداثية حداثي آخر هو جابر عصفور فيقول:

« الحداثة رؤية إبداعية تستبدل الإبداع بالاتباع ، والتمرد بالاذعان ، والنسبي بالمطلق ، والتساؤل بالإجابة ، والشك باليقين ، وهي لذلك تنطوي على وعي متمرد يتأبى على ما هو سائد ، ويرفض ما هو قديم ... » (٢).

ويقول الشاعر محمد أحمد القابسي :

« إن الحداثة كما أراها هي معايشة للتغييرات ، والإسهام فيها في حضارة ما ، والشعر يبقى أكثر الأجناس الأدبية ميلاً إلى معايشة التغيير ؛ لأن تغيير المدارك والقيم الذي تم في القرن التاسع عشر مثلاً كان قد لا حظه واستجاب له الشعراء بحساسية بالغة » (٣).

ويرى الحداثيون أن الإسلام حركة حداثية ؛ لأنه تمرد على الموروث، والسائد والمعروف في وقته ، أما اليوم فأصبح الإسلام قديم

---

(١) انظر : دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٢) مجلة الشعر ع ٦١ جمادي الآخرة ١٤١١هـ ؛ ص ٣٢ .

(٣) صحيفة الرياض ٢٨/٥/١٤١١هـ ؛ ص ٢١ .

موروثاً ، ثابتاً ، وبهذا انتهت صلاحيته .

يقول الحداثي الجزائري محمد أركون :

« في الواقع إن الإسلام نفسه كان يمثل حداثة ، كل الحركات التاريخية الكبرى كانت تمثل الحداثة في عصرها ، أما الآن فمما لا ريب فيه أن الإسلام قد أصبح يمثل نوعاً من التراث ، من التقليد ، من تراكم المعارف، وتراكم المواقف الثقافية المكرورة ...، ولا يمكن لأي شخص عاقل أن يقول : إن الإسلام يمثل حالياً الحداثة ... ، أما في لحظة انبثاقه التاريخية فقد كان الإسلام يمثل لحظة حداثة بدون شك ، أي لحظة تغيير وتحريك لعجلة التاريخ ، فالحداثة تعريفاً ، تعني بثّ الحيوية في التاريخ ، إنها تعني الحركة والانفجار والانطلاق ، هذا شيء أساسي جداً ؛ لكي نفهم جوهر الحداثة وماهيتها ، وبالتالي فالإسلام في زمن النبي ، ولحظة انبثاق الخطاب القرآني كان يمثل تغيراً ، بل وتغيراً جذرياً بالقياس إلى ما قبله ، وكان يمثل حركة تاريخية مندفعة بكل قوة وانطلاق ، وعلى الأصعدة كافة ، ولكن بعد أن ترسخت الدولة الإسلامية ؛ فإن التغير استمر لبعض الوقت ... ثم تشكل تدريجياً فكر ثابت تحول بالتدريج إلى أرثوذكسية ...، أقصد أنه تحول من طاقة تغييرية انبثاقية إلى تصور ثابت ، وثبوتي للحقيقة ، إلى تصور ملجوم من قبل اختصاصيين ، معروفين بهذا العمل هم الفقهاء ، و(العلماء) ، وحراس الأرثوذكسية ، وهم الذين يدعوهم عالم الاجتماع الألماني (ماكس فيبر) بموظفي التقديس ، أو المسؤولين عن تسيير أمور المقدّس ، والمقدّسات، إنهم موظفون مثلهم مثل أي موظف بيروقراطي آخر» [١] .

وكذلك الحداثي اللبناني حسين مروّة ، قرر أن الإسلام ثورة

---

(١) ندوة مواقف الإسلام والحداثة ص ٣٥٦ .

حداثية، إذ تمرد على واقعه الفكري والسياسي ، ومن ثمَّ انتهى دوره بانتهاء عصره [(١)].

فوضوية وجهالة

من أبرز سمات الحداثة الفوضوية في المعتقد ، واحتضانها لكل مجهول ، وبخاصة إذا كان مغايراً للسابق من الثوابت والمسلمات ، العقدية واللغوية .

يقول الأديب السعودي محمد علي قدس :

« لا شك أننا مطالبون بالتجديد أو التحديث ، ومطالبون بالإبداع لتشكيل الملامح الجديدة للثقافة !، ولكي نبدع في استحداث أدب له مميزاته وخصائصه في فترات زمنية متلاحقة يتضح خلالها التغيير نجد أنه لا مفر ونحن بصدد إنشاء فكر جديد وثقافة متطورة ، لايجاد أنماط جديده للغة من تحديث نماذج تكوينها ... » [(٢)].

وأقوال الحداثيين تبين المفاهيم الحداثية في العالم العربي والتي تقوم على الرفض ، والتمرد على العقائد والشرائع الإلهية ، والثورة على القيم والأخلاق النبيلة ، وضرورة إنشاء صراع دائم وحرب مستمرة ضد كل ما هو سابق وسائد ، يؤدي هذا الصراع إلى التحول إلى مفاهيم وعقائد فوضوية وقيم وأخلاق غير منضبطة بضوابط محددة .

ولا بد لهذا التحول من ايجاد أنماط وتراكيب جديدة للغة ، وألفاظ غامضة ينفذ من خلالها الحداثيون للوصول إلى مآربهم .

ومما يؤكد فوضوية الحداثة قول الشاعر اليمني عبدالله البردّوني:

« تناقض الشاعر في الداخل هو الذي يشكل الانسجام مع

---

(١) انظر : دراسات في الإسلام ص ٧ –٣٧ .

(٢) المعاصرة بين الرؤية والكلمات ص ٢٨ ، ٢٩ .

الخارج ، ونحن نعرف في حياة الشعوب أن كل فوضى تؤدي إلى نظام ، كما أن كل نظام يؤدي إلى هروب من النظام ، كل شيء يأتي من عكسه ، ويأتي من نفسه أيضاً »[١].

ويقرر أدونيس – وهو أحد أعمدة الحداثة في العالم العربي – أن الحداثة معاناة ومغامرة واحتضان للمجهول !! .

وإليك نص كلامه :

« لا يكفي أن يتحدث الشاعر عن ضرورة الثورة على التقليد ، وإنما عليه أن يتبنى الحداثة .

وليست الحداثة أن يكتب قصيدة ذات شكل مستحدث لم يعرفه الماضي ، بل الحداثة موقف وعقلية ، إنها طريقة نظر وطريقة فهم ؛ وهي فوق ذلك وقبله ممارسة ومعاناة ، إنها قبول بكل مستلزمات الحداثة : الكشف والمغامرة واحتضان المجهول »[٢] .

وانظر إلى كلام الحداثي نصيف الناصري ، إذ يقول :

« يجب أن نرسخ المضحك ، أن نهرج من أجل إيجاد ملاذ ، أو نزحزح الأصنام عن طرقنا المليئة بالألغام العمودية ، والنقهية المتحجرة »[٣].

ويوضح الحداثي محمد تركي النصار ثورية الحداثة وفوضويتها فيقول : « إنها التعبير عن حالة التوتر بين العقل والأسطورة ، بين النظام والحلم ، إنها مغامرة تتأمل ذاتها باستمرار باتجاه خلاصها .... .

الحداثة الشعرية كما أفهمها هي تعميق الاحساس بالوجود ، أي

---

(١) مجلة اليمامة ع ٦٧٣ ، ١٤٠٢/١/٣هـ ص ٦٢ .

(٢) زمن الشعر ص ٤٥ .

(٣) مجلة الطليعة الأدبية ع١/٢تاريخ ١٩٨٧م ص٣٩ .

أن يكون الشعر ثورة حقيقية تتجدد باستمرار ...، وأن يكون الشعر مغامرة لا تهدأ ...» [١].

فالفكر الحداثي إذن عقيدة فوضوية جاءت – أكثر ما جاءت – عن طريق الأعمال الأدبية ، « وملأت المناخ الأدبي بسحب من الضباب والغموض والجموح والمزايدة ، مما يشعر بأنها لا تفترق عما يمكن أن نسميه بالتنظيم الخفي الذي يسعى إلى تقويض الدعائم الراسخة ، وتهديم الثوابت القائمة...» [٢].

يقول أدونيس :

« لا يستطيع الشاعر أن يبني مفهوماً شعرياً جديداً إلا إذا عانى في داخله انهيار المفاهيم السابقة ، ولا يستطيع أن يجدد الحياة والفكر إذا لم يكن عاش التجدد ، فصفى من التقليدية وانفتحت في أعماقه الشقوق والمهاوي ، التي تتردد فيها نداءات الحياة الجديدة ، فمن المستحيل الدخول في العالم الآخر الكامن من وراء العالم الذي تثور عليه، دون الهبوط في هاوية الفوضى والتصدع والنفي » [٣].

ويقول : « السيد الحقيقي للعالم هو الجنون لا العقل » [٤] ، ثم يؤكد على أهمية الجنون عنده فيقول : « لا أستطيع أن انتج شيئاً إلا وأنا مجنون » [٥].

ويعرف محمد نبيس الإبداع بأنه « القدرة على تركيب نص مغاير،

---

(١) المصدر السابق ص ٧٢ .

(٢) مجلة التضامن الإسلامي ع٨في ٢/١٤١١هـ ص ٦٣ والكلمة بقلم الأستاذ محمد قطب عبدالعال .

(٣) زمن الشعر ص ٥٤ .

(٤) مجلة الأسبوع العربي (اللبنانية) ع ١٥كانون الأول ١٩٦٩م ص ٦٥.

(٥) المرجع السابق الصفحة نفسها .

يخترق الجاهز المغلق المستبد »[١].

ولهذا فهو يصف أفعاله الحداثية بقوله :

« نختار الغي والعصيان ...، ونقتحم المفاجيء ، والمعيش والمنسي ...، ونُصدّع الذاكرة بالحلم والتجربة والممارسة »[٢].

ويتحدث عن أهداف الكتابة الحداثية ، فيقول :

« تهدف الكتابة إلى بلورة رؤية مغايرة للعالم ، تستمد من التأسيس والمواجهة بنيتها الرئيسة ، والمجتمع فاعل في وجود العالم وصيرورته ... .

إن المجتمع العربي مغلول في ماضيه وحاضر ، بالأمر والردع والاستبعاد ، مُبْعدٌ عن الابتكار والتحرر ، وبرغم تحكم الصوت والسيف في مسافة خطواته واتجاهها ، فقد استيقظ على تدمير الاخضاع هنا وهناك ، بصيغ وأنماط متعددة ...»[٣] .

ولهذا فهو يدعو إلى هدم « المقدس ، والثابت ، على مستويات : الإيقاع ، اللغة ، الرؤيا ، الواقع ، الثورة ...»[٤] .

ويقول الحداثي عبدالرزاق عيد عن الحداثة في العالم العربي بأنها « ولدت في سياقها الغربي ، متلبسة باللبس، والشك ، والقلق ، والعقل المزدحم بتمزقاته ، وانشراخه في اضفاء التجسيد والحسية على عالم المجردات ، عبر التعايش المأزوم ، الكامن في داخل الإنسان الحديث ، الذي

(١) حداثة السؤال بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة ص ١١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٢.

(٤) نفسه ص ١١٩ .

يعيش حالة تضاد ، بين نزعة مضادة للطبيعة ، وحنين متعاظم تجاه هذه الطبيعة الضائعة والمضاعة ، حيث لا أفق سوى سديم العدمية والاستلاب ، بعد إعلان نيتشه موت الله ، وموت الجمال معه ، والفن لم يعد يعوض عن الحياة ، بل يساهم في تعميق الاستلاب نحوها » [1].

---

(١) قضايا وشهادات ٢/٢٧٥ .

اتخاذ الرمزية والغموض ستاراً

يكثر الحداثيون من استعمال الرمزية والغموض ؛ للوصول إلى ما يهدفون إليه بيسر وسهولة ، يقول الشاعر اليمني عبدالله البردوني :

« الغموض أساس في تركيب الشعر ، الأصالة الشعرية لابد أن تقع في الغموض ، بل هي مضطرة الى الغموض، ولهذا يقال إن أجود الشعر هو الذي يكد الذهن ، والذي يهز الرأس ...» [١].

ويقول عبدالحميد جيدة :

« ... ، فالشاعر العبقري هو الذي يخلق التعابير الحية التي يركبها تركيبا جماليا نموذجيا تتلاءم مع رؤياه الجديدة في إعادة خلق الواقع من جديد» [٢].

ولما سئل الحداثي المصري عبدالفتاح الديدي بهذا السؤال : «ما السر وراء إصباغ الوجودية والبنيوية بالطابع الأدبي أكثر من غيرها في الفلسفات الفكرية المعاصرة ؟

(أجاب) : «السبب في هذا أن هذه الفلسفات أرادت أن تكون فلسفات للحياة ، وأن تصل إلى الجماهير العريضة ، وتكون على ألسنة العامة والخاصة على السواء ؛ لذلك توخّت أن تقدم أعمالاً أدبية قصصية وروائية تعبر عن أفكارها الأساسية .

وهذا يفسر ظاهرة شيوع هذه الأفكار في العالم عامة ، والعالم العربي على وجه الخصوص ، حيث تم ترجمة أغلب هذه الأعمال الأدبية التي تحمل أفكار البنيوية إلى اللغة العربية» [٣].

---

(١) مجلة اليمامة – ع٦٧٣ ١٤٠٢/١/٣هـ ص ٦٥.

(٢) مجلة الفيصل – ع٩، ١٣٩٨/٣هـ ص ٢٣.

(٣) المرجع السابق – ع١٥٨، ١٤١٠/٨هـ ٥٣.

فهذا الحداثي يصرّح بأن الحداثيين يقدمون الاتجاهات والمذاهب الغربية الهدامة إلى العالم العربي ، عن طريق الأعمال الأدبية، وتحت مسمى الأدب حتى تصل إلى «الجماهير العريضة، وتكون على ألسنة العامة والخاصة على السواء» .

ويقول علوي طه الصافي :

«لا نستطيع أن ننفي المحاولاة الجادة ، والمتفاوتة في قيمتها لعدد من الشعراء الشباب ، في محاكاة الأشكال الجديدة بطريقتهم الخاصة، ومن خلال رؤى تتجاوز السائد والمتعارف عليه ، ولو جحدنا هذه المحاولات فكأننا نحكم على هذا الجيل بالعقم ، وهو جيل الصدمة ، صدمة المعطيات الجديدة في كل شيء ، وهذا الحكم - في رأيي - فيه جور ومصادرة واستلاب »[1].

ولما سئل عن مستقبل الإبداع في المملكة العربية السعودية قال : «المسألة مرهونة بالزمن ، والمتغيرات الجديدة التي يشهدها مجتمعنا الجديد في كل مجالات الحياة» [2] .

فما هذه الرؤى التي تتجاوز السائد والمتعارف عليه ، التي لو أنكرها علوي الصافي لحكم على هذا الجيل بالعقم ؟.

وهل إنكار الأفكار والمباديء الحداثية المستوردة والمخالفة للسائد والمتعارف عليه في المجتمع الإسلامي فيه جور ؟!.

وهل نرحب بالإبداع المرهون بالتغيرات في جميع مجالات الحياة ؟! .

وعلوي طه الصافي نفسه يصرّح بأن المصطلحات الحداثية :

---

(١) المجلة العربية ع١٠٩، ٢/٧/١٤٠٧هـ ص ٦٨.

(٢) المرجع السابق ص ٦٩.

«هي إفرازات ظروف نفسيه وعقليه وسياسية وفكرية تختلف عن ظروفنا في أسباب نشأتها وفي نتائجها ... ، واحتكام هذه المصطلحات في نشأتها إلى مذاهب أيديولوجية ونظريات فلسفية وفكرية خاصة ...»[١] .

فإذا كان هذا واقع الحداثة ، افراز فكري غربي فما حاجة المجتمع الإسلامي إليه ، وإن انخدع به بعض الشباب ، فلابد من تقويمهم بدلاً من تشجيعهم .

وظاهرة إدخال الأفكار الهدامة عن طريق الغموض في الأدب ظاهرة غربية مستوردة ، أصلها في العالم العربي ودافع عنها كبار الحداثيين كأدونيس وسعيد عقل ، يقول أحمد كمال زكي : «ولو أننا وقفنا عند ظاهرة واحدة من ظواهر الشعر الجديد وهي الغموض ، وقد أصله سعيد عقل وأدونيس ... لرأينا العجب العجاب»[٢] .

ويري الحداثي صالح جواد الطعمه أن الحداثة تتميز بأربع خصائص هي :-

١- الرؤية :- أي أن الحداثة موقف من العالم ورؤية جديدة للكون والحياة ، والإنسان ومصادر معرفته .

٢- التاكيد على الذات :- أي أن الحداثة تؤكد على ذات الفرد وحريته ومشاعره ، وإسقاط الذات على المجتمع ، أو بمعنى آخر أن يكون الإنسان مصدر القيم والمعرفة ، لا يحكم عليه بما هو خارج عنه .

٣- الزمن :- وذلك أنه لابد أن يسير الزمن متطوراً ، وأن يكون كل عام خيراً مما قبله ؛ إذ تتطور - في كل عصر - المباديء والقيم والمفاهيم

---

(١) المرجع نفسه - ص ٦٨.

(٢) شعراء السعودية المعاصرون - ص ١٨.

والمعارف ، الثائرة على ما سبقها في الزمن الماضي ، وأن الزمن أفقي وليس دائرياً ؛ أي إذا انتهى زمن فلا رجوع إليه ، ولا إلى ما فيه من عقائد ومبادىء .

٤- الغموض :- أي أن الحداثة في طرحها الفكري تعتمد في أكثر أحوالها على الرمزية والغموض ، بعيداً عن الوضوح والبيان .

وقد استدل الطعمة على هذه الخصائص ببعض أقوال الحداثيين [١].

ويبين الحداثي العراقي جبرا إبراهيم جبرا أهمية الغموض في نشر الفكر الحداثي فيقول :

«إن الوضوح المطلق ليس حديثاً ، إنما الحديث هو الذي يعي أن ليس ثمة شيء واضح ، منجز أو بسيط ، ويجب على المبدع أن يقرر ذلك فيما يبدع ؛ لأن الشاعر الذي يحدد المفاهيم بوضوح وبساطة، في نظر الحداثي يقوم بعملية إغلاق لإمكانية التفسير والإيحاء والإشعاع ... .

العمل الحداثي يرى أن العمل الإبداعي ليس شيئاً منهياً منجزاً ، بل هو إمكانية إيحاء وتأويل ، وهو أمر نلحظه في الرواية الحديثة التي تميل إلى ترك النهاية مفتوحة إشارة إلى استمرار السر ، واستمرار البحث ، وتدفق الزمن ، ليس ثمة جزم بشيء ، وليس ثمة إنجاز نهائي»[٢].

ويؤكد صالح جواد الطعمة أن الغموض من أبرز سمات الحداثة وذلك في قوله : «يعتبر الغموض من سمات الحداثة البارزة ، وقد كان ولا يزال موضع جدل بين أنصار الشعر الحديث ومناوئيه»[٣].

والحداثي التونسي حمادي صمود يحذر من حصر الحداثة في

---

(١) انظر مجلة فصول مج ٤ عام ١٩٨٤ ص ١٢، ١٣.

(٢) المصدر السابق مج ٣ ع ١ عام ١٩٨٢ ص ٢٦٨.

(٣) المصدر نفسه مج ٤ ع ٤ عام ١٩٨٤ ص ١٣.

الأدب ، ويبين خطورة ذلك موضحاً أن الأدب ما هو إلا مظهر من مظاهر الحداثة فقط ، أما حقيقتها فهي نسيج كامل من العقائد والقيم ، ومما قاله في ذلك :

«إننا ما نزال نتحدث عن الحداثة في الأدب فقط ، معزولة عن الحداثة في ميادين أخرى ، ربما يرجع ذلك إلى أننا أدباء – أعني نقاداً ومبدعين – لكن تضييق إطار البحث بالحداثة في الأدب أمر خطر ؛ ولذلك ينبغي أن نبحث في الحداثة عن النسيج المشترك الذي إن ضُمّت أجزاؤه أنتج حداثة .

الأدب مظهر– فقط– من مظاهرها،أو إنجاز من منجزاتها»[1].

وتُبيّن الحداثية خالدة سعيد – زوجة أدونيس – أسباب بروز الحداثة عن طريق الأدب فتقول : «ما زلنا اليوم نجد من يحصر الحداثة في التخلّي عن التفعيلة وكتابة (قصيدة النثر) ، أو في شكل معين من القصائد ، غير أن انطلاقة التجديد في الشكل الشعري جاءت نتيجة بين نتائج أفضى إليها تحول فكري جذري ، لا يقتصر على الشعر والقصة والنقد أو غيرها من الأنواع ، وإنما كان الشعر قد غدا بسبب من تطوره وتحرره ، وبفضل مبدأ التجديد المستمر الذي رسخه الشعراء ، ومن كونه الأوسع انتشارا ، والأكثر تقبلاً للردود والعفوية والهواجس الصميمية ، قد غدا المجال الأول الذي تطرح فيه قضايا الحداثة»[2].

وفي موضع آخر تقول :

«لو أن الشعر الحديث ثورة على الشكل وحسب ، لكان فقد مبرراته ، ولكن موقف الشعر الحديث من العالم موقف مختلف ...»[3].

---

(١) نفسه مج ٣ ع ١ عام ١٩٨٢ ص ٢٦٥.

(٢) نفسه مج ٤ ع ٣ عام ١٩٨٤ ص ٢٥.

(٣) البحث عن الجذور – ص ٨ .

وهذه ثلاثة أمثلة من قصائدهم الغامضة :-

١- للحداثي شوقي أبوشقرا «قصيدة» بعنوان «حجر في سروال» ، يقول فيها :

«ولدت من حبقة ، وكضت في صحن أثري
«في حذائي مسمار ، وفي ذقني شوكة
هذه ممتلكاتي ، أفتح الشمسية والقناني
أنزلج في كل الجغرافيا ، في عنق زرافة اصطياف»[١].

٢- ويقول محمد عفيفي مطر :

«شربت مرق الأحذية المنقوعة
في الخوف والنحيب
أكلت ما يخبزه الإسفلت
في جوفه من حنطة التعذيب»[٢].

٣- ويقول أنسي الحاج :

«أنت المدعوة
لك قدمان في الصدى
وفندق أعمى
وحذاء يطلق بصمت
التمثال يبتديء والخلوة تخض الشهوة .
تضافرت وأصبحت النبع والنهر والبحر والعشب والرقاد ...»[٣].

هذه مجرد أمثلة لأشعارهم الغامضة ، وغيرها كثير جداً .

---

(١) مجلة شعر ع٢٦ السنة السابعة صيف ١٩٦٣م ص ١٨.

(٢) الأرض والدم عذابات سرية ص ٩٩.

(٣) مجلة شعر ع ٢٦ صيف ١٩٦٣ ص ١٣.

خلاصة مفاهيم الحداثة

ذكرت بعض الأمثلة والنماذج من أقوال الحداثيين في العالم العربي ، ومن خلالها تتحدد المفاهيم الحداثية الفكرية عندهم ، وهي تتطابق في أكثر مفاهيمها مع المفهوم الغربي للحداثة .

يقول محمد مصطفى هدارة :

«ولابد أن نقرر منذ البداية أن الحداثة ارتبطت في نشأتها بالفكر الغربي ، وهي تعبير عن التحول الحضاري في أوروبا وأمريكا وواقعهما التاريخي ، وأن العالم العربي لم يعرفها إلا من خلال استيراده الذي لا ينقطع لنظم الحياة الغربية ...»[١].

ويقول سامي مهدي :

«الحداثة غربية مصطلحاً ومفهوماً ، ومهما قيل عن كونها (مناخاً عالمياً) أو (جوهراً لا زمنياً) ؛ فإننا يجب أن نعترف بأن الغرب هو الذي وضع المصطلح وحدد مفهومه .

صحيح أن التراث العربي عرف مصطلحي (القديم والمحدث) قبل عصرنا هذا ، إلا أن (الحداثة) بمعناها الراهن ليست سوى أطروحة غربية»[٢].

وتقول الحداثية أنيسة الأمين :

«حداثة المجتمع العربي إشكالية أساسية في سياقنا التاريخي ، ولا يمكن إلا أن تكون مأزقية ، فالحداثة هي حداثة الغرب ، نتاج تاريخي يقارب المائتي عام من التحولات والتغيرات والثورات ...»[٣].

---

(١) الحداثة والتراث ص ٢٠.

(٢) أفق الحداثة وحداثة النمط ص ١٥١.

(٣) قضايا وشهادات - ٢/٩٩.

وإن من يدرس أقوال منظري الحداثة وقادتها يتبيّن له جلياً أن مفهومها يتضمن الأمور التالية :-

أولاً : الثورة على مصادر التلقي عند المسلمين ، والدعوة إلى إنشاء مصادر معرفية عقلية جديدة مخالفة للسائد والسابق والمعروف من المصادر المعرفية الإسلامية .

ثانياً : رفض كل ماهو قديم وثابت ما عدا الحركات الفلسفية والباطنية والثورية .

ثالثاً : وعند كثير منهم يكون الرفض بأسلوب غير مباشر ، وهو اخضاع القديم والثابت من التراث الإسلامي ومصادره المعرفيه للدراسات العقلانية ، ومن ثمّ الحكم عليه من خلالها ؛ وذلك لتساير الفكر العالمي الحديث .

رابعاً : الصراع بين المذاهب والأفكار الفلسفية الجديدة المستحدثة والإسلام ، الذي يصفه الحداثيون بالفكر الرجعي والمنهج التقليدي القديم .

خامساً : ضرورة الاستمرار في التحول والتطور في المباديء والمفاهيم والقيم في كل عصر ، إذ لا ثوابت أبداً .

سادساً : لكل جيل عقيدته ومفاهيمه وأخلاقه الخاصة ، والتي لابد أن تختلف عن المفاهيم السابقة وتتصارع معها .

سابعاً : التمرد على كل ما هو نمطي وسائد ومألوف من أمور العقيدة والتشريع والأعراف والسياسة والحكم .

ثامناً : الفوضوية الدائمة في الاعتقاد والعمل واللغة .

تاسعاً : استعمال الرمزية والغموض في أغلب الأحوال ، واستخدام الأدب بأنواعه ومذاهبه المختلفة ، ومن أعظم أسباب ذلك التملص

من المحاكمة أو الانتقاد الشرعي ، أو المنع السياسي .

عاشراً : اللعب باللغة العربية واستعمال ألفاظ وتراكيب ومعان متناقضة وغامضه للوصول إلى ما يصبون إليه باسم الأدب والفن والإبداع.

ستار آخر ، وكشفه

ومن الإنصاف القول بأن ما ذكرته هو معتقد ومنهج الحداثة والحداثيين في العالمين الغربي والعربي ، ولكن ليس كل من عدَّ نفسه حداثياً انطبقت عليه جميع تلك المفاهيم الحداثية .

لاسيما وأن بعض الأدباء والنقاد والمفكرين ركب موجة الحداثة وهو يجهل منهجها الخطير في رفض الثوابت مما جاء به الدين الحق ، والدعوة إلى التحرر من الأحكام الشرعية ، والمثل الأخلاقية .

وبعضهم قد يجهل حقيقة مفهوم الحداثة وخصائصها ومرتكزاتها ، أو يتجاهلها لحاجة في نفسه .

يقول الحداثي عابد خزندار :

«... ، يضاف إلى ذلك أن الحداثة ما زالت حية نابضة في العالم العربي بحيث لا نستطيع أن نقول إنها استنفدت أغراضها ، وتهيأت للرحيل، مفسحة الطريق لمستوردات جديدة .

ولعل الأصح أن يقال : إنها لم تكتمل وتتحدد ، وما زالت هيولا تنتظر من يشكلها ويحولها من سديم إلى شيء يمكن التعرف عليه ...»[١].

ولعل هذا القول ينقصه الصحة ، فالحداثة شيء محدد المعالم ، واضح المفاهيم ، بيّن الخصائص ، أهدافه ومقاصده ظاهرة ، ومن يطلع على أقوال دعاتها يعرف ذلك ، وإنما قد يقع الخلاف بين الحداثيين في الاتجاهات

---

(١) حديث الحداثة ص ٣٧.

والوسائل والأساليب ، والبديل عما يثار عليه ؛ إذ هم يتفقون على الثورة والتمرد ، ورفض القديم ، لا سيما مصادر المعرفة الإسلامية ، كما أنهم يرفضون الثوابت ، فكل شيء يجب أن يكون دائم التطور والتغير والتحديث، إلا أنهم قد يختلفون في المصادر المعرفية الجديدة أو الحديثة ، التي ينبغي أن يصار إليها والمبادئ التي يجب أن يؤخذ بها ، فكثير منهم يأخذ الماركسية ، وبعضهم العلمانية ، وبعضهم ينادي بالتغريب ، وبعضهم يدعو إلى القومية والبعثية إلى غير ذلك من المذاهب والأفكار المخالفة للإسلام .

ويقول حداثي آخر :

« ... ، ومع الأيام كثر استعمال لفظ الحداثة في غير مجال حتى التبس الأمر في مدلول اللفظ حتى على دعاة الحداثة أنفسهم » [١].

والحقيقة أن هذا اللبس هو على بعض من انتسب إلى الحداثة ، أما الكثير منهم – ولا سيما دعاتها وقادتها – فإنهم يصرحون بما يدل على فهمهم لمنهج الحداثة وأسسه وأصوله ، وقد ذكرت في الصفحات السابقة بعض أقوالهم ، الدالة على اختيارهم لهذا المنهج ، بعد أن درسوه وفهموا حقيقته ، ثم هم الآن ينادون به ويطبقونه في واقعهم ويدعون الناس إليه .

ويجب ألا ننسى أن بعض دعاة الحداثة قد يتظاهرون باختلافهم حول مفهومها مع أنهم يعرفونه ويعملون به ، وما ذلك إلا من أجل الاختفاء عن أعين النقاد المخلصين لأمتهم ، الذين قد يبرزون لمناقشتهم ومجادلتهم .

وذلك أن الحداثيين يعلمون أنه لا بقاء لمناهجهم الحداثية في العالم الإسلامي ، ولا تأثير لها عليه ، إلا إذا أظهروا للمسلمين غير ما يبطنونه ، فيبطنون المفاهيم الحداثية ، ويعملون لها وبها ، وقد يظهرون حب

---

(١) الحداثة في الشعر العربي المعاصر – بيانها ومظاهرها ، ص ٤٧ .

العرب والمسلمين ، والتباكي على أحوالهم ، والمطالبة بتحديثهم وتطويرهم باسم الأدب والفن والعلم الحديث ، وإذا ما نوقش هؤلاء البعض عن الحداثة قالوا بأن مصطلحها لا يزال غامضاً ، الناس حولها مختلفون وكل يفسرها حسب علمه ومعرفته .

انظر مثلاً ادعاء غازى القصيبي إذ يقول :

«وأنا أعتبر الحداثة من أسوأ التعبيرات في السوق الثقافية ؛ لأنه تعبير غامض يفهمه كل إنسان كما يريد ...»[١].

وإذا نظرنا في حداثة هذا القائل وجدناها امتداداً للحداثة الغربية ، ثورة على الثوابت ، ورفضاً للسائد والمألوف ودعوة إلى تغيير الأحكام الشرعية ، وتمرداً على السلطة الشرعية .

ويكفي في هذا المقام دليل واحد على حداثته ومدى تطبيقه لها في دعوته على الرغم من تجاهله مفهوم الحداثة ، وادعائه – تقية – أنه مفهوم غير محدد ويختلف الحداثيون في تحديده .

هذا الدليل هو قوله :

«... ، إذا لم تأخذ في حسابك تطلعات شعبنا إلى الحياة الإنسانية عبر ثلاثة آلاف عام عاشها في حياة لا إنسانية فإنك لا تستطيع أن تقدر مدى تلهفنا وعجلتنا للوصول إلى الحياة الإنسانية»[٢].

أليس هذا القول الصريح يرفض عصر الرسول – ﷺ – وما جاء به الوحي من القرآن والسنة ، ويرفض عصر الخلفاء الراشدين والتابعين

(١) صحيفة المسلمون ع ٢٧٧ في ١ – ١٤١٠/١١/٧هـ ص ٩.

(٢) مجلة الاعتصام ع ١١ في ١٣٩٧/٧هـ – ومجلة المجتمع ع ٤٥٦ في ٣/١٣٩٩/١٢هـ ص ٣٥ – ونشر في مجلة (النيوزويك) الأمريكية ٩ يونيو ١٩٧٧م – ومجلة (تايم) الأمريكية ٢٤ أبريل ١٩٧٨م .

ومن بعدهم ، إذ يصف تلك الحياة بأنها لا إنسانية !!! ، ومن ثمّ يدعو المجتمع الإسلامي إلى حداثة تنقذه من الحياة غير الإنسانية التي عاشها الرسول – ﷺ – والصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

هل بعد هذا المثال نصدق الحداثيين المتسترين بأقوال كاذبة تنقضها أقوالهم وأفعالهم الأخرى .

وإن القصيبي ليدعو إلى إخفاء لفظ الحداثة بعدما فضحت عند بعض المسلمين وعرفوها على حقيقتها ، ويبحث عن لفظ بديل يؤدي الأهداف والأغراض الحداثية نفسها .

انظر إلى قوله :

«... ، وليتنا نعود إلى هذا المصطلح (المعاصرة) ، وننسى لفظة الحداثة التي عكرت مياه النقاش»[1].

ولاشك أن الحق في معرفة الحداثة هو البحث عن مفهومها عند أصحابها الأوائل ، وقد سبق بيان ذلك ، مما لا يدع مجالاً للشك بأن الحداثة محددة المعنى والمفهوم ، معروفة المنهج والاتجاه عند الغربيين وعند أتباعهم الحداثيين في العالم العربي ، إلا أن بعض هؤلاء يتهرب من إعلان المفهوم الصحيح للحداثة ، ويوهم أنه يحتمل عدة أوجه ، وما ذلك إلا فراراً من المعنى الصحيح لها كي لا يفهم ، وبالتالي يحكم عليها من خلاله .

ثم إن هؤلاء لا يخفون منهجهم إلا عندما يتصدى لهم الغيورون على دينهم وأعراضهم ، وإذا وجدوا فرصة غفل فيها المصلحون والغيورون أظهروا دعوتهم ودعوا إليها ، وعملوا بمنهجهم ؛ لذا نجدهم كثيراً ما ينهجون سبيل الرمزية والغموض في السعي لتحقيق أهدافهم .

---

(١) صحيفة المسلمون ع ٢٧٧ في ١ – ١٤١٠/١١/٧هـ ص ٩.

ويقسم إبراهيم العواجي الحداثة إلى قسمين ، قسم يختص بتطوير الأدب والشعر ، وقسم تغريبي فكري يهدم القيم و ومما قاله في ذلك :

«... ، وفي اعتقادي أنه يجب أن يكون هناك تفريق ، وأن لا نقع ضحية مصطلحات اللغة ، فمصطلح ما مثل الحداثة في الشعر والأدب ، فإننا نعني حداثة القصيدة العربية بمعنى تجديدها بأن تكون قصيدة حرة ذات تفعيلة ، موسيقى لا تلتزم بشكل مطلق وحر ، ولكنها تتحرك وتحمل خصائص القصيدة العربية ، وتحمل أيضاً قافية بشكل أو آخر ، إضافة إلى ما تضفيه هذه النزعة من جماليات وخصائص للقصيدة ، وهذا في كثير من قصائدي ، وأنا لا أعتبرها لازمة ، ومن وجهة نظري فهذا تحديث في الشكل وليس في المضمون .

أما الحداثة التغريبية التي يدل عليها المصطلح فتلك قضية تتعلق بمفاهيم فلسفية وبمفاهيم لغتنا أساساً وتراثنا ، والرؤية حول التحطيم والبناء مفهوم يتعلق فعلاً بتوجه فلسفي قد يكون الذين يروجون لها إذا أحسنا الظن محاولة منهم للتميز والتصادم ومدعاة للبروز ، وقد يكونون إذا أسأنا الظن مجرد أدوات هدامة تنقل أطروحات تهدف إلى تحطيم بنيتنا الثقافية وأسسنا الحضارية والدينية ، وقد يكونون فعلاً مؤمنين بها أو بجانب منها كقناعة لها عندهم يبررها»(١).

إن هذا التقسيم بعيد عن الصحة ، وأقوال منظري الحداثة تردّ هذا القول الخاطيء ، لا سيما ما سبق ذكره من أقوال خالدة سعيد وعبدالفتاح الديدي وجابر عصفور وصالح جواد والطعمة وغيرهم .

فمنظرو الحداثة يجمعون على أنها موقف عقدي معرفي جديد،

---

(١) مجلة الحرس الوطني ع ١١١ جمادى الأولى ١٤١٢هـ ص ٩٨.

مخالف للموقف العقدي والمعرفي السابق والمألوف ، أما الأدب فهو وسيلة فحسب .

يقول الحداثي السوري نذير العظمة :

«لا يمكن للإنسان أن يقبض على معنى التطورات الأدبية في مجتمع من المجتمعات في عزلة عن التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لهذا المجتمع .

إن موت الأشكال الشعرية القديمة وأغراضها هو علامة على انهيار نظام الفكر القديم والتركيب الاجتماعي المصاحب .

وولادة الشعر الجديد في فترة ما بعد الحرب الكونية الثانية تأتي كمرحلة من مراحل تجدد وتطور الفكر والأدب العربيين ...»(١).

وانظر إلى قول أدونيس حيث يقول :

«المجتمع العربي يتحرك أيديولوجياً بقيادة أقلية طليعية في اتجاه الحداثة ... ، إن ثقافة الجماهير ثقافة تقليدية متخلفة ، وهذا لا يتم بمجرد تغيير نظام الحياة حوله ، بل يجب أن يرافقه تغيير لنظام الفكر أيضاً»(٢).

ويقول محمد عبدالمطلب :

«الحداثة تمثل نفياً للماضي وتعلقاً بالحاضر وخروجاً من المعتاد إلى غير المعتاد ، ومن المعروف إلى غير المعروف ، حتى تتصل بالأمر المبتدع ...»(٣).

واقرأ قول الحداثي السوري سهيل ابراهيم الذي يؤكد على أن الحداثة تخريب للمألوف الفكري ، وليست في تحطيم اللغة والأدب فقط ، يقول: «إن تخريب المألوف في الحياة العربية مطلب وطني اليوم ، ولكن

---

(١) مدخل إلى الشعر العربي الحديث ص ٩٥ ، ٩٦.

(٢) الثابت والمتحول ٣/٢٤٠.

(٣) مجلة فصول مج ٤ ع ٣ ، ج١ ، ١٩٨٤ ص ٦٤.

على أن يتم هذا التخريب عبر الإنسان وعبر قدراته وطاقاته المادية والفكرية ، وليس في تحطيم جوهر اللغة وقاموس الأدب العربي الموروث فقط ...»[١].

ويقول الحداثي وفيق خنسة بأن الحداثة « طريقة في السلوك والفكر والكتابة»[٢].

ومن أكبر منظري الحداثة في العالم العربي ، الحداثي المغربي محمد عابد الجابري ، يقول عن الحداثة : «إن الحداثة في جوهرها ثورة على التراث القديم ، تراث الماضي والحاضر من أجل خلق تراث جديد .

والحداثة اليوم في العلم كما في الأدب والفلسفة والمناهج والاجتماع ... إلخ ، لا وطن لها ، أو على الأقل لم تغد محصورة ولا قابلة للحصر في رقعة من الأرض دون الأخرى ... .

إن الحداثة تبدأ باحتواء التراث وامتلاكه ؛لأن ذلك وحده هو السبيل إلى تدشين سلسلة من القطائع معه ، إلى تحقيق تجاوز عميق له إلى تراث جديد نصنعه ، تراث جديد فعلاً ، متصل بتراث الماضي على صعيد الهوية والخصوصية ، منفصل عنه على صعيد الشمولية والعالمية ...

الحداثة اليوم ديدن الحياة في كل مجال : الحداثة الفكرية ضرورية لإنتاج المعرفة ، ضرورة للتجديد والاجتهاد في كل ميدان ، في ميدان الدين كما في ميادين العلم والفلسفة والسياسة والاجتماع والاقتصاد ...»[٣].

وكلام الجابري هذا واضح في أن الحداثة ثورة على ، الدين وموقف من التراث يسعى إلى تحديثه وتغييره .

---

(١) الأدب العربي وتحديات الحداثة ص ١٤٨.

(٢) جدل الحداثة في الشعر ص ٨٣.

(٣) حوار المشرق والمغرب ص ٧٠.

ويؤكد ذلك في موضع آخر إذ يقول : «فالحداثة في نظرنا لا تعني رفض التراث ولا القطيعة مع الماضي بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل مع التراث إلى مستوى ما نسميه بالمعاصرة ، أعني مواكبة التقدم الحاصل على الصعيد العالمي ... «إذن فطريق الحداثة عندنا يجب في نظرنا أن ينطلق من الانتظام النقدي في الثقافة العربية نفسها ، وذلك بهدف تحريك التغيير فيها من الداخل ؛ لذلك كانت الحداثة بهذا الاعتبار تعني أولاً قبل كل شيء حداثة المنهج وحداثة الرؤية ..»[١].

وهذا إحسان عباس يؤكد بأن الحداثة ليست تجديداً في الشكل فحسب ، وإنما تتناول المضمون بالدرجة الأولى ، فهو يقول : «كل الشعر العربي الحديث يتمتع بالحداثة بمعنى أنه يحاول أن يجدد في الشكل والمضمون»[٢].

كما يؤكد ذلك الشاعر العراقي عبدالرزاق عبدالواحد - الفائز بجائزة صدام حسين للآداب - بقوله : «الحداثة ليست شكلاً ، بل هي حياة وهي شكل ومضمون بالتأكيد ، فالفكرة الحداثية تلبس ثوبها مشروطاً بألا يكون موضة لمجرد التغيير»[٣].

ويقول الحداثي محمد جمال باروت :

«الكتابة مشروع الحداثة ... ، إن الكتابة ليست ثورة في بنية تعبيرية فقط ، ولكنها ثورة في بنية جهاز أيديولوجي كامل ... .

إنها أدب ينتجه نضال أيديولوجي واجتماعي عبر الكلمة

---

(١) التراث والحداثة دراسات ومناقشات ص ١٥ ، ١٦.

(٢) قضايا الشعر الحديث ص ١٧١.

(٣) مجلة الحرس الوطني ع ٧٢ صفر ١٤٠٩هـ ص ١٣.

والممارسة ، الكلمة تحلل الواقع ، والممارسة تغيره ...» [١].

وتقول أنيسة الأمين : «إن تأريخ الحداثة هو تأريخ مغامرة الإنسان وإبداعه وسيطرته على الطبيعة وعلى الكون ، هذه المغامرة هي فعل فكري ومعرفي ، سياسي واجتماعي ، صناعي وتكنولوجي ، وبالتالي فهي نسق حضاري متميز ومتحرك ، مناقض للنسق التقليدي الساكن ، ويتسع حتى يشمل كل أرجاء المعمورة ... له سمت متميز في جميع الميادين» [٢].

لا نرفض كل حديث

وقد يقول قائل : هل كل حديث نرفضه ؟

فأقول : إن هناك فرقاً بين الحداثة بمعناها اللغوي ؛ وقد سبق بيانه ، [٣] وبين الحداثة بمفهومها الاصطلاحي عند الحداثيين .

فإن الحداثة لو أريد بها مجرد التجديد فلا بأس بها مضموناً وشكلاً ، إذا توفرت فيها ضوابط التجديد وشروط المجدد حسب ما جاء به الدين الحنيف .

لهذا فإن فراج الطيب – رئيس اتحاد الأدباء السودانيين في الخرطوم – يقسم الحداثة إلى نوعين فيقول : «الحداثة نوعان : حداثة يراد بها الإضافة التي تشمل الصورة والمضمون في العمل الفني والأدبي ، والتي تبدو فيها بصمات المبدع واضحة متميزة ، لا يتكىء فيها على إبداع غيره ، وهذه الحداثة نؤيدها وندعو لها (ما لم تصادم نصاً شرعياً) ، لأنها تدل على أصالة العمل الفني وتفرده .

---

(١) الشعر يكتب اسمه ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) قضايا وشهادات ٢/١٠٠ .

(٣) في التمهيد ص ٢٦

أما الحداثة الثانية : فهي الحداثة التي يراد بها الانفصال التام عن الجذور ، وهدم كل ما هو قديم ، وهذه الحداثة نحاربها ونحذر منها ، لأنها عمل خياني يغتال قيم الأمة ، ويعمل للإطاحة بجميع مواريثها الحضارية حتى تكون مهيأة تماماً لكل مظاهر الاستلاب الفكري والثقافي الأجنبي» [١].

وتقسيم فراج الطيب هذا تقسيم صوري ، وإلا فإن الحداثة لا تأتي إلا بالمعني الثاني الذي ذكره ، وهذا ما يجمع عليه منظرو الحداثة .

وهذا ما عناه حسن الهويمل في قوله :

« ... ، والعبث والضلال والتخريب مرتكزات الحداثة التدميرية ومنطلقاتها» ،[٢] وقال بأن الحداثة « عالمية الانتماء ، علمانية العقيدة ، ثورية الحركة »[٣] ، وأن «محور التمرد على الأعراف والسلفية والأخلاق والفاعلة يمثل الحداثة الحقيقية عند رموز التدمير» [٤].

وهو ما تحدث عنه محمد مصطفى هدارة – وهو أحد الأدباء والنقاد العرب المبرزين – في قوله :

« اتجاه جديد يشكل ثورة كاملة على كل ما كان وما هو كائن في المجتمع ...

اتجاه فكري أشد خطورة من الليبرالية والعلمانية والماركسية ، وكل ما عرفته البشرية من مذاهب واتجاهات هدامة ، وذلك أنها تتضمن كل

---

(١) صحيفة الأنباء الثقافية ١١/٢/١٩٨٩م ص ١٩.

(٢) المجلة العربية ع ١٣٨ ص ٧٤.

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها .

(٤) المرجع نفسه ص ٧٥ .

هذه المذاهب والاتجاهات ، وهي لا تخص مجالات الإبداع الفني أو النقد الأدبي ، ولكنها تعم الحياة الإنسانية في كل مجالاتها المادية والفكرية على السواء ...» [١].

ويقول الشاعر السعودي علي النعمي : «إذا كانت الحداثة تعني التجديد في الشكل الشعري ، وفي الصور والأمثلة ، في التكتيك ، وفي الرؤية ، فأهلاً بها .

أما إذا كانت ما يطرح في الساحة الآن بما فيها من معميات وألغاز باسم الابتعاث أو الانبثاق الدلالي ، أو التفجير اللغوي الخارج على السائد والمألوف ، فهو عبث ، والعبث لا يخدم قضية ، ولست أدري كيف يمارس العبث إنسان لم يخلقه الله عبثاً» [٢].

---

(١) الحداثة والتراث ص ٢ .

(٢) صحيفة الندوة الأحد ١٤٠٧/٥/٢٥هـ ص ٧.

الفصل الثاني

جذور الحداثة ومصادرها

وفيه مطالب :

المطلب الأول : تمهيد

المطلب الثاني : الحضارة الغربية

المطلب الثالث : جذور الحداثة في العالم العربي ومصادرها

المصدر الأول : الحداثة الغربية ومصادرها الفلسفية

المصدر الثاني : الماركسية

المصدر الثالث : الوجودية

المصدر الرابع : الباطنية

جذور الحداثة ومصادرها

المطلب الأول

تمهيد :

سبق القول بأن الحداثة في العالم العربي مستورد من المستوردات الغربية ؛ لذا فإن مصدرها الأول هو الحضارة الغربية ، وما تنطوي عليه من ملل وثنية ومذاهب فلسفية ، واتجاهات فكرية ، ومناهج وضعية .

والمتتبع لما يكتبه ويقوله الحداثيون العرب ، وما يدعون إليه ، يتبين له بكل جلاء أن جذور حداثتهم غربية في أصولها ، ومناهجها ، ومذاهبها غريبة على شرع الله تعالى .

تحدث علوي طه الصافي عن مصطلحات الحداثة ، ومفاهيمها فقال : «... ، إن هذه المصطلحات كانت نشأتها وولادتها في بيئة فكرية ، تختلف عن بيئتنا العربية ، ومفهوماتنا الثقافية الموروثة ... .

إن هذه المصطلحات هي إفرازات ظروف نفسية وعقلية وسياسية وفكرية ، تختلف عن ظروفنا في أسباب نشأتها ، وفي نتائجها»[١].

ثم ذكر أن هذه المصطلحات الحداثية تحتكم في نشأتها إلى : «مذاهب أيديولوجية ، ونظريات فلسفية ، وفكرية خاصة»[٢].

وكثير من الحداثيين العرب يعترف صراحة بأن الحداثة في العالم العربي غربية المنشأ والمصدر ، في الشكل والمضمون ، لا سيما ما جاء منها عن طريق الأدب والشعر ، فإنه أكثر استقبالاً من غيره .

---

(١) المجلة العربية ع ١٠٩ صفر ١٤٠٧هـ ص ٦٨.

(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها.

يقول زاهر الجيزاني :

«التيار الإنجليزي استطاع أن يؤثر على الشعر العراقي في الخمسينات ، تحديداً تنظير (أليوت) وقصيدته الأرض الخراب .

في الجانب الآخر نجد أن لبنان وسوريا وقعتا تحت تأثير التيار الفرنسي ...»[١].

ويؤكد الحداثي المغربي محمد بنيس أن الحداثة في العالم العربي غربية في فكرها وموقفها وتصورها ، فهو يقول : «الحداثة في هذا العصر غربيّة التصور والتحقق لفعلها صفة الشمول ... ، وفعل الشمول معناه أن الحداثة ليست اختياراً قولياً ، يطأ العبارة وينتهي عند ملفوظها ، بل هو نمط حياة ، وتصور مجتمع ، وثقافة تقنية ، تكتسح الإنسان والطبيعة»[٢].

وقد قررت ذلك أنيسة الأمين ، إذ قالت :

«... ، فالحداثة هي حداثة الغرب ، نتاج تأريخ يقارب المائتي عام من التحولات والتغيرات والثورات ، ونحن نتلقى أشكالها وتجلياتها ، المادية، والفكرية ، والأخلاقية ، دون أن نعيش الخضات التاريخية الكبرى ، التي أنتجت هذه الظاهرة العالمية»[٣].

وصدق محمد مصطفى هدارة حيث قال :

«الحداثة ارتبطت في نشأتها وفي مفهومها بالفكر الغربي ، وهي تعبير عن التحول الحضاري في أوروبا وأمريكا وواقعهما التأريخي ، وإن العالم لم يعرفها إلا من خلال استيراده الذي لا ينقطع لنظم الحياة الغربية ...»[٤].

---

(١) مجلة الطليعة الأدبية ع ٣و٤، ١٩٨٧م، ص ٤٩.

(٢) حداثة السؤال ص ١٠٩.

(٣) قضايا وشهادات ٢/ ٩٩.

(٤) الحداثة والتراث ص ٢.

ويقول الحداثي المغربي محمد عابد الجابري في معرض حديثه عن التراث والحداثة :

«لقد قرأت كانط ، وقرأت باشلار ، وقرأت فوكو ، وقرأت غيرهم من الفلاسفة والكتاب الأوربيين ، كما قرأت ديكارت ، وسبينوزا ، ولينبتز ، ولوك ، وهيوم ، وقرأت أفلاطون ، وأرسطو ، وقرأت أيضاً وبدرجة أكبر ابن خلدون ، والغزالي ، وابن رشد ، والفارابي ، وابن سينا ، والجويني ، والباقلاني ، والرازي ، والطوسي ، ... والقائمة طويلة ، هؤلاء جميعاً قد مارسوا نوعاً من النقد كل على شاكلته ، وكل حسب موضوعه ، وأنا فيما يبدو لي .. تلميذ لهم جميعاً ، قد تعلمت منهم جميعا »[1].

ويقول الحداثي السوري سليمان العيسي :

«أن تعتصر المتنبي ولوركا

والمعري .. وغوته

ثم تقف على قدميك

وترى الدنيا بعينيك

تلك هي الحداثة والمعاصرة

بكلمة أدق : تلك هي الأصالة فيما أرى .

وأعترف أني كنت مشدوداً إلى التراث في الفترة الأولى من نتاجي ، وكانت ظلال القرآن ، والمعلقات ، وديوان المتنبي ، تحيط بي ، في كل قصيدة أكتبها ، ولكني ما لبثت أن انفتحت على عوالم جديدة عندما أخذت أطالع بشغف الآداب الأجنبية ، وشعراء الغرب ،بالمناسبة إنني أحسن الفرنسية والإنكليزية ، وأستطيع أن أقرأ عن طريق هاتين اللغتين معظم النتاج الأدبي في العالم ، مبكراً قرأت الشعر الفرنسي ، وحفظت الكثير

---

(١) التراث والحداثة – داسات ومناقشات – ص ٣٢٢.

منه، راسين ، كورنيه ، موليير ، فكتورهيغو ، لامارتين ... ، وأخيراً بودلير ، فرلين ، رامبو ، إلى آخر القائمة .

وفي مطلع الشباب كنت أقرأ أيضاً الشعر الإنكليزي ، وأتأثر بمدرسته الرومانسيه إلى حد بعيد : بيرون ، شيلي ، وردزورث ... ثم اتسعت مطالعاتي فقرأت كبار شعراء الألمان والروس والأمريكان والأسبان ...»[١].

ويقول الحداثي السعودي صالح الأشقر :

« بأن المعيار الحداثي الغربي هو السائد وهو المقابل والحاضر في أغلب المقاربات النقدية والفكرية»[٢].

وتقول الحداثية رشيدة التريكي : «تأخذ المعاني التي يزخر بها مفهوم الحداثة مكانها بصفة عامة في حقل فلسفة التاريخ ، التي ترتبط بتصور تقدمي ، يستمد جذوره من فكر فلاسفة الأنوار ، لقد اكتشف هؤلاء أن للبشرية تطوراً مرحلياً يصبغ تاريخها الطويل مؤكدين أن تحررها وانعتاقها سوف يكونان نتيجة أساسية لاستعمال العقل ، من حيث أنه إقرار للشكل المنطقي ، ورفض لكل حكم مسبق ولكل سلطان مهيمن ، ففلاسفة الأنوار يعترفون بصفة واضحة أن سبيل هذا الانعتاق قد مهدت له العقلانية الديكارتية في تفضيلها البديهة الذهنية والفكرية عن العادة والتقليد ، وبذلك ستستفحل درجة استقلال المعرفة حتى تأخذ حريتها كاملة وتنفصل عن الماورائيات والميتافيزيقا»[٣].

---

(١) في قضايا الشعر العربي المعاصر دراسات وشهادات ص ٢٧٣.

(٢) صحيفة الرياض ع ٨٥١٩ ١٤/٤/١٤١٢هـ ص ٧.

(٣) فلسفة الحداثة ص ٩١.

المطلب الثاني

الحضارة الغربية :

لكي تتضح جذور الحداثة العربية ومصادرها ، لابد من دراسة المصدر الرئيس لها ، وهو الحضارة الفكرية الغربية ، والتي هي مجموعة من المناهج والمذاهب المتناقضة ، المعبرة عن الضياع ، الذي عاشه العالم الغربي، منذ العصور اليونانية والرومانية والوثنية ، امتداداً إلى عصر الظلمات – عندهم – ، ثم إلى العصور الفلسفية ، المتلاحقة ، وما تضمنته من مذاهب ونظريات إلحادية متصارعة ومتناقضة فيما بينها ، إذ أن «كل مذهب كان رد فعل للمذهب السابق ، وكل مذهب كان يحمل في ذاته عناصر موته ، لم يبق شيء في حياة الإنسان الغربي لم يعشقه ثم يكفر به .

عشق التقليد للوثنية ، ثم نقم عليها ، وكفر بها ، عشق المسيحية، ثم كفر بها ، وبالكنيسة وبكل مفاسدها وظلمها وظلامها ، عشق الطبيعة ، ثم هجرها ، وعشق الواقع ، ففر منه مذعورا ودخل التيه المظلم ، كفر بالله كفراً صريحاً ، وحمل المادية التاريخية والجدلية وبدأ يكفر بها ، قال : إن الفن للفن ثم كفر بذلك ، دعا إلى الحرية والإخاء والمساواة ، دعوة طلاء وغشاوة ، حتى جاءت الوجودية فأزالت الطلاء والغشاوة ، وجعلت الحرية فوضى والالتزام تفلتا ....

فلم يعد في حياة الغربيّ إلا أن تنفجر هذه المذاهب انفجاراً رهيباً يحطم كل قيمة ، لتعلن بأس الإنسان الغربي وفشله في أن يجد أمناً أو أماناً .

لقد كانت الحداثة تمثل هذا الانفجار الرهيب ، الانفجار اليائس، انفجار الإنسان الذي لم يعرف الأمن في ذاته آلاف السنين ، جرّب كل ما

أوحت به الشياطين ، جرّب العلم ، والمال ، والطبيعة ، وغير ذلك مما عددنا ، فما أفادته بشيء ، كفر بكل شيء ، وعبّر عن كفره ذلك بالحداثة».[١]

وأرى في هذا المقام أنه لابد من استعراض سريع لما عاشته أوروبا من عقائد وثنية ومذاهب فلسفية ، أنتجت في آخرها الإلحاد ، المسمى بالحداثة .

عقائد أوروبا قبل النصرانية :-

لقد كانت أوروبا قبل دخول النصرانية تعيش في عقائد وفلسفات كثيرة ، ومتباينة ، وكان من أشهرها :

١- اليهودية المحرّفة ، واليهودية ديانة سماوية في أصلها ، إلا أن اليهود حرفوها ، فأصبحوا بتحريفهم مشركين ، وأصبحت ديانتهم مجموعة من العقائد والفلسفات المضطربة ، ثم إنهم أغلقوا على أنفسهم باعتبارهم شعب الله المختار .

٢- الوثنية الرومانية ، وهي الديانة الرسمية للامبراطورية ، وتقوم على ثلاثة أصول :

الأول – التثليث : أي عبادة آلهة ثلاثة ، جوبتير ، مارس ، كورنيوس .

الثاني – عبادة الامبراطور ، فقد كان الأباطرة يدّعون الربوبية ، وكان من الشعب الروماني من يؤله الأباطرة ، ويصرف لهم أنواعا من العبادة .

الثالث – عبادة الصور والتماثيل وتقديسها [٢].

٣- الأفلاطونية الحديثة ، وهي عقيدة فلسفية ترى أن العالم

---

(١) الحداثة في منظور إيماني ص ٢٥.

(٢) انظر : معالم تاريخ الإنسانية ٣/٧١٧ وتاريخ العالم ٣/٥٨٨.

صدر عن ثلاثة عناصر :

الأول – المنشيء الأزلي الأول .

الثاني – العقل الذي تولد منه .

الثالث : الروح الذي تتكون منه جميع الأرواح ، والذي يتصل بالمنشيء الأول عن طريق العقل [١].

٤- المترائية ، وهي فلسفة وثنية ، تعتقد أنه لا خلاص للإنسان إلا بافتداء نفسه بتقديم القرابين للآلهة بواسطة الكهان [٢].

٥- الرواقية ، وهي فلسفة وثنية ، تدعو إلى الانقطاع عن الدنيا وإنكار الذات ، وتعذيب النفس [٣].

٦- الأبيقورية ، وهي فلسفة إباحية ، مخالفة لما عليه الرواقية [٤].

دخول النصرانية أوروبا :-

بينما أوروبا تموج بهذه العقائد والفلسفات المتباينة ، دخلتها النصرانية في القرن الميلادي الأول ، وانتشرت بين الشعب الروماني ، إلا أن الأباطرة حاربوها ، واضطهدوا كل من يدين بها ، واستمر هذا الاضطهاد طيلة القرون الثلاثة الأولى ، حتى جاء الامبراطور قسطنطين ، واعتنق النصرانية ودعا إلى عقد أول مجمع نصراني سنة ٣٢٥م ، وهو مجمع نيقية ، الذي أعلنت بعده النصرانية عقيدة رسمية للامبراطورية الرومانية فاقبل كثير من الأوروبيين على النصرانية المحرفة إقبالاً شديداً .

لذا فإن كثيراً من المؤرخين الغربيين يقسمون النصرانية قسمين هما :

---

(١) انظر : محاضرات في النصرانية ص ٢٨ ٢٩ ، وموسوعة الفلسفة ١/١٩٠ فما بعدها.

(٢) انظر : معالم تاريخ الإنسانية ٣/٧٠٦.

(٣) انظر : تاريخ العالم ٣/٥٨٩.

(٤) انظر : المرجع السابق الصفحة نفسها .

الأول – النصرانية الأصلية ، التي جاء بها عيسى – عليه الصلاة والسلام – .

الثاني – النصرانية الرسمية ، التي آمنت بها الكنيسة ، ودعت إليها ابتداء من عام ٣٢٥م .

يقول (برنتن) :

«إن المسيحية الظافرة في مجلس نيقية ، في أعظم أمبراطورية في العالم ، مخالفة كل المخالفة لمسيحية المسيحيين في الجليل ، ولو أن المرء اعتبر العقد الجديد التعبير النهائي عن العقيدة المسيحية لخرج من ذلك قطعاً لا بأن مسيحية القرن الرابع تختلف عن المسيحية الأولى فحسب ، بل بأن مسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بتاتاً»(١).

ويؤكد ذلك المؤرخ الانكليزي (ويلز) إذ يقول :

«من الضروري أن نستلفت نظر القارىء إلى الفروق العميقة بين مسيحية نيقية ، التامة التطور وتعاليم يسوع الناصري ... ، فمن الواضح تماماً أن تعاليم يسوع الناصري تعاليم نبوية من الطراز الجديد ، الذي ابتدأ بظهور الأنبياء العبرانيين ... ، بيد أن مسيحية القرن الرابع الكاملة التكوين... ، كانت في صلبها ديانة كهنوتية من طراز مألوف للناس من قبل ، منذ آلاف السنين ، وكان المذبح مركز طقوسها المنمقة ، والعمل الجوهري في العبادة فيها هو القربان الذي يقربه قديس متكرس للقداس ، ولها هيئة تتطور بسرعة ...»(٢).

والحق أن أوربا لم تؤمن بالنصرانية الحقة المنزلة من عند الله – تعالى – ، وإنما آمنت بمزيج عقائدي يجمع بين الفلسفات الرومانية ، والدين

---

(١) أفكار ورجال (قصة الفكر الغربي) ص ٢٠٧.

(٢) معالم تاريخ الإنسانية ٣/٧٢٠.

النصراني المحرّف ، وأطلقت على هذا المزيج اسم (المسيحية) .

يقول حبر أحبار انجلترا ، وأسقف كنيسة (كنتربري) ، المدعو وليام تامبل : «إن من الخطأ الفاحش أن نظن أن الله وحده ، هو الذي يقدم الديانة أو القسط الاكبر منها»[1].

لقد حرفت الكنيسة العقيدة النصرانية ، فأصبح النصارى يقولون بأن الله ثالث ثلاثة ، ويعتقدون أن عيسي ابن الله ، وأنه إله ، كما أنهم حرفوا الإنجيل ، وزادوا فيه ونقصوا منه .

كما أن الشريعة حرّفت ، وقسمتها الكنيسة إلى قسمين :

الأول – تشريع ديني ، من تشريعات الرب الإله ، ويقتصر على المواعظ والرهبنة ، وتقريب القرابين ، والأحوال الشخصية ونحوها .

الثاني – تشريع دنيوي ، من اختصاص قيصر وما يشرعه ، ويشمل الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وغيرها .

ظلم الكنيسة وطغيانها

بعد أن تنصّر قسطنطين الامبراطور الروماني ، تسلطت الكنيسة وظلمت باسم الدين ، لا سيما عندما وجدت من يقف في صفها ويدافع عنها من الأباطرة ، وذلك من أجل المصالح الدنيوية لكلا الطرفين .

نعم لقد عظم طغيان القساوسة والأساقفة ، وظلموا تحت شعار الدين وباسم الكنيسة ، وسنوا من الشرائع والقوانين الظالمة في جميع مناحي الحياة ، ما جعل الشعب يثور عليها، ويتمرد على تعاليم الدين .

ومن أمثلة ذلك الطغيان ما يلي :

١- الطغيان الديني

---

(١) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين ص ١١.

بعد مجمع نيقية فرضت الكنيسة عقيدة التثليث ، وحاربت مخالفيها ، وسفكت دماء من لم يؤمن بها وبما يصدر عنها ، ونصبت نفسها عن طريق المجامع المقدسة إلهاً يحل ويحرم ، ويزيد وينقص كيف يشاء ، فأباحت أكل الميتة ، وشرعت التماثيل ، وحرّمت زواج رجال الدين كما تسميهم .

كما أنها أجبرت الناس على مجموعة من العقائد كعقيدة الخطيئة والتكفير،والصلب والفداء ، والعشاء الرباني ، والطقوس السبعة .

بل إنها ادعت حقوقاً لا يملكها إلا الله – سبحانه وتعالى – كحق الغفران ، والحرمان ، وغيرهما ، مما أنتج ما سموه بصكوك الغفران ، التي تباع ، وتقدم لكل من يوافق تعاليم الكنيسة .

وحقوق الحرمان هي عقوبة شديدة تقع على المخالفين ، فيحرمون من المغفرة ، فأصبحت هذه العقوبة شبحاً مخيفا للملوك والشعوب ، وكل من يحاول مخالفة آراء الكنيسة .

ولقد تعرض البريطانيون للحرمان الجماعي عندما حدث خلاف بين البابا وملك الانكليز يوحنا ، فحرمه البابا وحرمه أمته ، وعطلت الكنائس من أداء الطقوس التعبدية ، وعاش الناس حالة من الاضطراب والخوف الشديد ، حتى عاد يوحنا صاغراً مقراً بخطيئته ، طالباً الغفران من البابا ، ولما رأى البابا خضوع الملك وتذلله رفع عنه الحرمان ، وغفر له ولأمته [١].

٢- الطغيان السياسي

عملت الكنيسة على طمس الدين وتعطيل الشريعة ، ثم فرضت نفسها وصية على الملوك والأمراء وأجبرتهم على الخضوع والتذلل لها ، وجعلت معيار صلاحهم وقبولهم منوطاً بما يقدمونه لها من طقوس الطاعة والخدمة .

---

(١) انظر : حرية الفكر ص ٥٦.

يقول البابا نقولا الأول :

«إن ابن الله أنشأ الكنيسة : بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها ، وأن أساقفة روما ورثوا سلطات بطرس في تسلسل مستمر متصل ...، إن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحين ، حكاماً كانوا أو محكومين»[١].

ويقرر بعض المؤرخين الأوروبيين أن الأسر الحاكمة في أوروبا كانت تستمد بقاءها «من صلتها النسبية بأحد القديسين ، فيرثون منه قداسته ، ولا يبالي الشعب بعد ذلك بتصرفاتهم ، لأنهم مقدسون»[٢].

وقد حاول بعض الملوك الأوروبيين إبعاد سيطرة الكنيسة ، وإلغاء وصايتها عليهم ، فتجرأ ادوراد الأول ملك انكلترا ، وفيليب الجميل ملك فرنسا على القول بأنه : «ليس من الضروري أن يخضع الملك للبابا ، لكي يحظى بالجنة في الآخرة ، وأن كلا منهما قد نوى أن يكون سيداً في مملكته، وأن شعبه يؤيده في هذه النية تمام التأييد»[٣].

وهكذا ظل الأوروبيون يعانون من الصراع الرهيب بين الكنيسة والملوك من أجل القبض على مقاليد الأمور ، والتسلط على المجتمع ، وكسب ولاء الشعب .

وقد انتصرت الكنيسة في ذلك الصراع طيلة القرون الوسطى ، فظلت لها السيطرة والوصاية ، فهي التي تتولى تتويج الملوك والأباطرة ، أو عزلهم وحرمانهم متى شاءت ، ومن تنكر لها أو أنكر تعاليمها فله العذاب الشديد بعد حرمانه من الجنة .

---

(١) قصة الحضارة ٣٥٢/١٤.

(٢) تاريخ أوروبا العصور الوسطى ٧١/١.

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٠.

والجدير بالذكر أن ذلك الصراع أورث الأوروبيين أزمات نفسية معقدة لا تزال آثاره باقية فيهم إلى اليوم ؛ لبعدهم عن الحق المبين والصراط المستقيم .

٣- الطغيان المادي

جاءت تعاليم الكنيسة تدعو إلى شدة الزهد والتقشف ، حتى حرّمت بعض ما أحل الله من الطيبات ، أما واقع رجال الدين من القساوسة والأساقفة فهو على النقيض من ذلك تماماً ، فهم يتهالكون على الدنيا ، ويمتصون أموال الشعب تحت ستار الدين وباسم الشريعة .

يقول كرسون :

«كانت الفضائل المسيحية كالفقر والتواضع والقناعة والصوم والورع والرحمة ، كل ذلك خيراً للمؤمنين وللقسيسين وللقديسين وللخطب والمواعظ ، أما أساقفة البلاد والشخصيات الكهنوتية الكبيرة ، فقد كان لهم شيء آخر : البذخ والأحاديث المتأنقة مع النساء ، والشهرة في مجالس الخاصة ، والعجلات ، والخدم ، والأرباح الجسيمة ، والموارد والمناصب»[١].

ويتمثل طغيان الكنيسة المادي فيما يلي :-

أ - الأملاك الاقطاعية : فالكنيسة هي أكبر ملاك الأراضي ، وأكبر السادة الإقطاعيين في أوروبا «وكانت أملاكها المادية وحقوقها والتزاماتها الاقطاعية مما يجلل بالعار كل مسيحي متمسك بدينه ، وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الدين ، ومصدراً للجدل والعنف بين الأباطرة والبابوات»[٢].

ب - الأوقاف : الكنيسة تملك المساحات الكبيرة من الأراضي

---

(١) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ص ١١٧.

(٢) قصة الحضارة ١٤/٤٢٥.

الزراعية وغيرها ، بدعوى أنها أوقاف لها ، تصرف عائداتها على بناء الكنائس والأديرة .

يقول أحد الثائرين على الكنيسة ، المدعو ويكلف :

«إن الكنيسة تملك ثلث أراضي انكلترا ، وتأخذ الضرائب الباهضة من الباقي ...»[١] . لذا طالب بإلغاء تلك الأوقاف ، ووصف رجال الدين بأنهم : «أتباع قياصرة لا أتباع الله»[٢].

جـ - ضريبة العشور : أوجبت الكنيسة على الناس عشر ما تغله الأراضي والاقطاعيات ، وعشر محصول المهنيون وأرباب الحرف .

يقول المؤرخ ويلز :

«كانت الكنيسة تجبي الضرائب ، ولم يكن لها ممتلكات فسيحة ، ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب ، بل فرضت ضريبة العشور على رعاياها، وهي لم تدع إلى هذا الأمر بوصفه عملاً من أعمال الإحسان والبر ، بل طالبت به كحق»[٣].

د- السخرة (العمل المجاني) : أرغمت الكنيسة أتباعها على العمل المجاني ، في جميع مشروعاتها ، كالعمل في المزارع ، وبناء الكنائس، وغير ذلك مما جعل الكثير من الناس يقدمون شكوى إلى المجلس الديني العام ، المنعقد في ليون سنة ١٢٤٦م ، يستغيثون فيها من مطالب البابا ، والكنيسة الأم [٤].

هـ - ضريبة السنة الأولى : لما تولى البابا حنا الثاني

---

(١) تاريخ أوروبا ٢/٣٦٢.

(٢) المرجع السابق ص ٣٦٤.

(٣) معالم تاريخ الإنسانية ٣/٨٩٥.

(٤) انظر : تاريخ أوروبا ١/٢٥٩.

والعشرون جاء ببدعة جديدة ، وهي ضريبة السنة الأولى ، وتعني مجموع الدخل السنوي الأول لأي وظيفة ، تدفع للكنيسة إجبارياً لا اختيارياً [١].

و - ولشدة خوف الناس من الكنيسة كان الأثرياء والاقطاعيون يقدمون لها كثيراً من الهبات والعطايا خشية منها ، وتقرباً إليها ، لعلمهم بنهم رجال الدين الشديد إلى المال [٢].

طغيان الكنيسة أنتج الثورة ضدها

إن أخطر ما فعلته الكنيسة من ظلم وطغيان هو :

أولاً - تحريف الإنجيل وما جاء فيه من عقيدة وشريعة .

ثانياً - التسلط والظلم بجميع أنواعه في جميع مجالات الحياة ، وعلى كل الاتجاهات ، الدينية والعلمية والسياسية والمالية .

إن ذلك الطغيان أنتج صراعاً قوياً ضد الكنيسة ورجالها ، بل ولد تياراً ملحداً ، منكراً للدين ، محارباً أهله .

يقول ليكونت دي نوى :

«إن ما أضافه الإنسان إلى الديانة المسيحية ، والتفسيرات التي قدمها ، والتي ابتدأت منذ القرن الثالث ، بالإضافة إلى عدم الاكتراث بالحقائق العلمية ، كل ذلك قدم للماديين والملحدين أقوى الدلائل المعاضدة في كفاحهم ضد الدين»[٣].

لقد طغت الكنيسة طغياناً فكرياً عاماً ، فحاسبت الناس على ما في قلوبهم من آراء ومعتقدات ونظريات ، ووقفت أمام جميع نتاجهم الفكري،

---

(١) انظر : المرجع السابق ٢/٢٨٠.

(٢) انظر : معالم تاريخ الإنسانية . ٣/٩١٢.

(٣) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين . ص ١٥ ، ١٦.

وزعمت أنها تملك الحقيقة العلمية المتعلقة بالتجربة المحسوسة ، أو النظر العقلي ، وأقحمت نفسها في متاهات عظيمة ، أثارت عليها حرباً دائمة ، وثورات عارمة .

يقول برنتن :

«إن أكثر أصحاب الوظائف العلمية ، حتى في أوج العصور الوسطى ، كانوا ينتمون إلى نوع من أنواع المنظمات الدينية ، وكانوا جزءاً من الكنيسة ، حيث أن الكنيسة بدرجة لا نكاد نفهمها اليوم تتدخل في كل لون من ألوان النشاط البشري وتوجهها ، وبخاصة النشاط العقلي ، ... وإذن فقد كان الرجال الذين يتلقون تعليمهم في الكنيسة يكادون يحتكرون الحياة العقليه ، فكانت الكنيسة منصة المحاضرة ، والصحافة ، والنشر ، والمكتبة ، والمدرسة ، والكلية»[1].

والجدير بالذكر أن الفلسفة والأدب ، والفكر السائد في ذلك العصر كان مزيجاً من النصرانية المحرفة والفلسفات اليونانية والرومانية ، من مثل أقوال سقراط وأرسطو وبطليموس وأفلاطون وغيرهم ، هذا المزيج سماه بعضهم الفلسفة المسيحية .

كما أن أولئك الفلاسفة النصارى تنبوا بعض العلوم التجريبية في عصرهم ، كالنظريات الكونية والتأريخية والجغرافية والطبية ، وكان من أنجح الأدوية – على زعمهم – تعليق الصليب ، وتكريم صور القديسين ، ثم اعترفت الكنيسة رسمياً بهذه الأمور ، وجعلتها جزءاً رئيساً من تعاليمها ، وحكمت من خلالها على جميع نتائج العلماء التجريبية ، مما جعلها تصطدم مع كثير من النظريات العلمية ، فحاربتها ، وعذبت مؤيديها فضلاً عن مخترعيها .

---

(١) أفكار ورجال ص ٢٣١.

وهكذا وقفت الكنيسة في صراع شديد مع أصحاب العلم التجريبي والنظريات العقلية ، فحاربتهم حرباً ضروساً ، لا هوادة فيها .

أمثلة ونماذج :

١- وإن من أعظم الطغيان الكنسي ، الذي تعرض له الأوروبيون هو استرقاق الفلاحين ، وجعلهم يعملوم إجبارياً في الاقطاعيات ، بدون مقابل ، وذلك نتيجة لخطيئة آدم ، على حد زعم رجال الكنيسة [١].

لذا قامت ثورة فلاحية في سنة ١٣٥٨م ضد الظلم الاقطاعي ، الذي تتزعمه الكنيسة ، التي هي أكبر الملاك الاقطاعيين .

ولم يكن اعتراض الفلاحين «على قوة الكنيسة ، بل على مساوئها، ونواحي الضعف فيها ، وكانت حركات تمردهم على الكنيسة حركات لا يقصد بها الفكاك من الرقابة الدينية ، بل طلب رقابة أتم وأوفى.... وقد اعترضوا على البابا، لا لأنه الرأس الديني للعالم المسيحي ، بل لأنه لم يكن كذلك ، أي لأنه كان أميراً ثرياً دنيوياً ، بينما كان يجب أن يكون قائدهم الروحي» [٢].

وقد فشلت تلك الثورة وأُخمدت ، وقتل آلاف من أولئك الثوار ، لوقوف الكنيسة ضدهم بالتعاون مع الملك شارل الخامس [٣].

وعلى الرغم من أن تلك الثورة فشلت ، إلا أنها ساهمت في تشجيع الشعب الأوروبي على الثورات المتوالية في أنحاء تلك القارة .

٢- وفي عام ١٥١٧م قام مارتن لوثر بثورة ضد كثير من العقائد

---

(١) انظر : قصة الحضارة ١٤/٤٠٦.

(٢) معالم تاريخ الإنسانية ٣/٩٨٩.

(٣) انظر : الموسوعة العربية الميسرة ١/٥٩٥ و ٢/١٠٦٤.

وتعاليم رجال الدين ، فصور في حقه صك رسمي يحرمه من غفران الكنيسة، وذلك في عام ١٥٢١م ، وعندما تلقى قرار حرمانه من البابا ، أحرقه علانية ، ودعا إلى مذهب مسيحي جديد سمي فيما بعد بالمذهب اللوثري ، وهو ضمن المذاهب البروتستانتية المعارضة للكنيسة الكاثوليكية [١].

٣- وفي عام ١٥٣٦م قامت حركات بروتستانتية أخرى قادها جون كلفن ، ونشر مذهبه في جنيف ، فنفي منها عام ١٥٣٨م ، عندما أعلن عدم اعترافه بسلطة البابا ، ودعا إلى مخالفة الكنيسة الكاثوليكية [٢].

٤- ومن النظريات التجريبية التي هزت الكنيسة النظرية الفلكية لصاحبها (كوبرنيق)، [٣] عام ١٥٤٣م ، هذه النظرية خالفت نظرية الكنيسة التي ترى صحة نظرية بطليموس المقدسة ، التي تجعل الأرض مركز الكون وجميع الأجرام السماوية تدور حولها ؛ لذا لاحقت الكنيسة القسيس (كوبرنيق) لتعذيبه وإعادته إلى ما ترى إلا أنه مات قبل أن تظفر به ، فمنعت كتابه (حركات الأجرام السماوية) ؛ لأنه مخالف لتعاليم الكنيسة .

ثم أيد تلك النظرية رجل آخر هو (جردانو برونو) ، فقبضت عليه محاكم التفتيش ، وسجنته ست سنين ، ثم أحرقته سنة ١٦٠٠م .

٥- كذلك جاء (جاليليو) ، واخترع (التلسكوب) فأيد عملياً ما دعا إليه من قبله نظرياً ، فغضبت عليه الكنيسة وحكمت عليه بالسجن والتعذيب ،[٤] ولما خاف أن يُفعل به ما فعل بمن قبله ، أعلن تراجعه عن نظريته أمام رئيس المحكمة ، قائلاً : «أنا جاليليو ، وقد بلغت السبعين من

---

(١) انظر : المرجع السابق ١٥٧١/٢.

(٢) المرجع نفسه ١٤٧٢/٢.

(٣) انظر : كتب غيّرت وجه العالم – فصل (كوبرنيق وكتابه).

(٤) انظر : معالم تاريخ الإنسانية ٨/١.

عمري ، سجين راكع أمام فخامتك ، والكتاب المقدس أمامي ، ألمسه بيدي ، أرفض وألعن وأحتقر القول الإلحادي الخاطيء بدوران الأرض»[1]، قال ذلك ليوافق نظرية الكنيسة التي تعتقد أن الأرض مركز الكون الثابت محتجة بأن الأقنوم الثاني وهو المسيح عيسى – عليه السلام – تجسد فيها ، وعليها تمت عملية الصلب والفداء [2].

وفي بداية القرن السابع عشر الميلادي كان لنظرية كوبرنيق وبورنو وجاليليو صدى واسع ، وأثر عميق راسخ في الفلسفة الأوروبية ، مما أفقد ثقة الناس بالكنيسة ، واشتد الصراع بين نصوص الكنيسة المحرفة والأدلة العقلية والنظرية المحسوسة لأصحاب النظرية الجديدة مما أثار العلماء االتجريبين وأتباعهم ، مطالبين بتقديس العقل ، واستقلاله بالمعرفة بعيداً عن الوحي الذي له مجاله الخاص به .

٦– ومن أبرز المذاهب الثائرة في ذلك العصر ، مذهب (ديكارت)، الذي نادى بتطبيق المنهج العقلي في الفكر والحياة ، أما الدين – عنده – فإنه يختص بأخبار الآخرة ، ولا سلطة له على العلوم الأخرى [3].

٧– وكذلك برز (فرنسيس بيكون) بمنهجه التجريبي ، منادياً بالفصل بين التجارب الإنسانية ، والوحي الإلهي ، فقد تكون هناك قضية خاطئة في حكم العقل ، ولكنها صحيحة تماماً في حكم الدين [4].

٨– ثم اشتهر اليهودي (سبينوزا) ، بوضعه الأسس لمدرسة النقد التأريخي ، التي ترى أن الأديان تراث بشري ، يجب أن يخضع

---

(١) قصة النزاع بين الدين والفلسفة ص ٢٠٥ وانظر : تكوين العقل الحديث ٨/٢.

(٢) انظر : قصة النزاع بين الدين والفلسفة ص ٢٠٣.

(٣) انظر : كتب غيّرت الفكر الإنساني ص ١٤٥ وما بعدها .

(٤) انظر : العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ص ١٩.

للدراسة النقدية ، والأخذ والرد ، وليست وحياً إلهيا [١].

٩- ومن الثائرين أيضاً (جون لوك) ، الذي طالب بإخضاع الوحي للعقل ، كما أنه نادى بحرية الأديان ، فلكل إنسان الحق بأن يؤمن بما شاء ، ويكفر بما شاء [٢].

١٠- كذلك من أشهر النظريات المخالفة لمنهج الكنيسة (نظرية الجاذبية) ، لصاحبها (اسحاق نيوتن) ، والتي كانت بمثابة النواة للمذهب الطبيعي ، والنظرية الميكانيكية ؛ لذا سُميت نظرية (نيوتن) بالثورة النيوتونية، وذلك أنها جاءت بقانون رياضي مطرد ، اقتنع به الناس . فاتخذوها سلاحاً ضد الكنيسة ، بل إن هذه النظرية من أعظم النظريات أثراً في الحياة الأوروبية ، فهي التي وضعت أساس الفكر المادي الغربي .

وقد لاقت نظريته انتقادات دينية من قبل رجال الدين ، النصارى، مما جعله يعترف بقوة إلهيه منظمة لهذا الكون ، هي فوق ذلك القانون الرياضي ، عند ذلك خفت الوطأة عليه ، بل إنه لما مات عام ١٧٢٧م قال البابا الكسندر عنه : «كانت الطبيعة وقوانينها مختبئة في الظلام ، فقال الخالق : فليكن نيوتن ، فإذا بالطبيعة وقوانينها تخرج من الظلام إلى النور» [٣].

١١- وظهرت في القرن الثامن عشر الميلادي فلسفات كثيرة ، ينادي بعضها بتقديس العقل على أنه مصدر المعرفة ، وبعضها ينادي بتقديس الطبيعة ، وتتفق تلك الفلسفات على إنكار الوحي الإلهي ، أو التشكيك فيه ، والثورة على تعاليم الكنيسة وقوانينها الظالمة .

---

(١) انظر : المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ص ١٢٢.

(٢) انظر : قصة النزاع بين الدين والفلسفة ص ٢١٤.

(٣) كتب غيّرت الفكر الإنساني ص ١٧٦، وانظر : تفسير نظريته في المرجع نفسه ص ١٧١ وما بعدها .

يقول أحد الأوروبيين :

«صار لزاماً على الذين نبذوا الإيمان بالله كلية أن يبحثوا عن بديل لذلك ، ووجدوه في الطبيعة» [١].

ومن أبرز دعاة ذلك العصر الإلحادي : جان جاك رسو ، وفوليتر، وديدرو ، وغيرهم من الذين نادوا بتقديس العقل والطبيعة ، وسُمي ذلك العصر بـ عصر (التنوير) [٢].

يقول برنتن متحدثاً عن ذلك العصر :

«كان العقل للرجل العادي في عصر التنوير ، هو كلمة السر الكبرى لعالمه الجديد ، العقل هو الذي يسوق الناس إلى فهم الطبيعة ، وبفهمه للطبيعة يصوغ سلوكه طبقاً لها ، وبذلك يتجنب المحاولات العابثة ، التي قام بها في ظل أفكار المسيحية التقليدية الخاطئة ، وما يخالفها في الأخلاق والسياسة مما يناقض الطبيعة ... .

والعقل يبين أن الرهبانية تعني إسرافاً عظيماً في قدرة الإنسان الإنتاجية ، وأوضح من ذلك أن العقل يبين أنه من غير الطبيعي للكائنات البشرية صحيحة البدن أن تمتنع بتاتاً عن الاتصال الجنسي ... .

إن المسيحية التقليدية لم تعد قادرة على أن تمد المستنيرين بنظرية كونية ... ، خذ مبدأ التثليث مثلاً ، إن الرياضة كانت ضد هذا المبدأ، فإن أي نظام رياضي محترم لا يسمح بأن يكون الثلاثة ثلاثة ، وواحداً في آن واحد ...» [٣].

والخلاصة أن المذاهب الفلسفية الغربية في القرن الثامن عشر

---

(١) المذاهب الإقتصادية الكبري ص ٥١.

(٢) انظر : قصة الفلسفة ص ٢٤٨ فما بعدها.

(٣) أفكار ورجال ص ٤٧٤ – ٤٧٦.

الميلادي ذات اتجاهين :

الأول – اتجاه مؤمن بإله خالق لهذا الكون ، خلقه ثم تركه يدور وفق القوانين المودعة فيه ، والتي بينها اسحاق نيوتن في نظريته ، ومع إيمان هؤلاء بإله إلا أنهم يكفرون بالوحي ، وبجميع تعاليم الكنيسة ، ومن أشهر زعماء هذا الاتجاه ، فولتير وبوب وغيرهما [١].

الثاني – اتجاه إلحادي مادي ، يرى أن الإعتراف بوجود إله يوجب الإيمان بتعاليم الكنيسة ، لذا لابد من إنكار الإله ووحيه ، والإيمان بالطبيعة ودورها في الحياة .

يقول كرسون :

«ذهب بعضهم في الإنكار إلى أبعد حد ، إنهم يدعوننا حتى إلى حذف اسم الله نفسه ، وفي هذا يقول دولباخ : إن عقيدة الله المأثورة نسيج من المتناقضات ، إن فكرة الله هي الضلالة المشتركة للنوع الإنساني» [٢].

الثورة الفرنسية

بينما كانت الأسر المالكة ، وطبقة الأشراف ، ورجال الدين ، يعيشون في نعيم عظيم ، ويتقلبون في أنواع الملذات والشهوات ، كان الشعب في جوع شديد ، وفقر عظيم ، أنهكته الوصايا والتعاليم الكنسية الطاغية ، عند ذلك قام الشعب بفئاته المظلومة من الفلاحين والمهنيين والقساوسة الصغار ، بثورة عظيمة ضد رجال الدين والأشراف ، وذلك في عام ١٧٨٩م ، وهي المعروفة بالثورة الفرنسية [٣].

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٤٧٧ ٤٧٨.

(٢) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ص ١٣٨.

(٣) انظر : الموسوعة العربية الميسرة ٥٨٦/١، وانظر : كتاب :تاريخ الثورة الفرنسية.

في تلك الثورة انتصر الشعب على الكنيسة ومناصريها ، وولدت دولة جمهورية لادينية ، تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب ، والجمهور ، وليس باسم الدين والكنيسة ، ويقوم حكمها على قوانين وضعية ، بدلاً من تعاليم الكنيسة – التي اختلط فيها الوحي بكثير من الوضعي – وتدعو إلى الحرية الشخصية في كل شيء .

ومن أوائل ما عملته تلك الثورة المنتصرة ، مصادرة أموال الكنيسة ، وتسريح رهبانها وإلغاء الجمعيات النصرانية ، ومحاربة عقائدها علانية باسم الدولة والقانون .

وإن من أهم عوامل ذلك الانتصار هو الطغيان الكنسي ، وانتشار النظريات المادية والإلحادية المتمردة على تعاليم الكنيسة .

وكذلك لعب اليهود دوراً عظيما ، واستغلوا الفرصة لضرب الكنيسة التي كانت تعدهم أقلية ذليلة ، ليس لها حق المواطنة ، وقد نجحوا في ذلك ، ومن ثَمّ كان لليهود صولة وجولة ؛ بسبب خططهم ودراساتهم النظرية والعملية للتخلص من رجال الدين النصراني ؛ ولتفردهم بزعامة العالم على حد زعمهم المكذوب [١].

تبين مما سبق أن الأوروبيين عاشوا أوضاعاً دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية سيئة ، وعانوا من عقد نفسية رهيبة ، فقد جربوا الفكر الوثني والفلسفات اليونانية والرومانية فلم تصلح حالهم ، ثم جربوا النصرانية المحرفة فزادت مشكلاتهم ، حين طغت وظلمت ، وحجرت على الناس واستعبدتهم ، ولذلك ثار كثير من الأوروبيين على الدين ، كل دين ، وحاربوا الأديان زاعمين أنها سبب مشكلاتهم ، فلا يصلح الدين أن يكون مصدرا للمعرفة، ولا نظاماً للحكم .

---

(١) انظر : مذاهب فكرية معاصرة ص ٨٧ – ٩٠.

عند ذلك برزت النظريات اليهودية والشيوعية والعلمانية وسائر الأفكار والعقائد الفلسفية ، التي دعت وتدعو إلى التمرد على الدين : ترفض كل ما هو قديم وثابت ، وتنادي بتحديث الحياة في جميع مجالاتها الفكرية والاجتماعية والسياسية ، وغير ذلك ، التحديث الذي يقوم على الصراع مع القديم والثابت من العقائد والمبادىء .

وهذا الاضطراب الفكري ، والعقد النفسية ، والضياع الاجتماعي ، والنظريات الفلسفية الإلحادية الثائرة على الدين ومصادره هي المصدر الرئيس للحداثة في العالم الغربي ، ومن ثَمّ انتقالها إلى العالم العربي .

من الفلسفات الثائرة
التي مهدت لظهور الحداثة

ليس المراد في هذا المقام تعداد جميع الحركات الثورية ، التي خرجت في أوروبا متمردة على جميع الأوضاع السيئة ، التي فرضتها الكنيسة تحت ستار الدين ، وأيدها الملوك رغبة في تثبيت مكانتهم ولمصالحهم الدنيوية الأخرى .

وإنما المراد هو بيان تخلخل المجتمع الأوروبي في دينه وفكره ، وسياسته ، وأوضاعه الاجتماعية ، ورؤيته حول مصادر المعرفة ، واختلافه في هذه الأمور ، وفي جميع العصور ، حيث لم يستقر على حال مستقيمة ، فحتى الثورات الناقمة على الأوضاع لم تأت بحلول ناجحة ، بل زادت الطين بلّة ، وزادت الأمور تعقيداً ، وعانى الناس بسببها من العقد النفسية الشيء الكثير ، وتلك النظريات الثورية هي من أهم جذور مصادر الحداثة ، لذا لزم ذكر أشهرها ، ولو بشيء من الاختصار .

الأولى - النظرية الخيالية

ليست هذه النظرية جديدة عند الأوروبيين ، بل كانت قديمة في الفكر الاغريقي حيث كان الفلاسفة يهربون من واقعهم السيء إلى عالم الخيال ، بانين من الأوهام والأحلام مجتمعات مثالية ، أو مدناً فاضلة ، تتمتع بالوئام والإيثار المتناهي .

ومن أشهر من دعا إلى النظرية الخيالية الفيلسوف أفلاطون في كتابه (جمهورية أفلاطون) [1].

وقد تجددت هذه النظرية في القرن السادس عشر الميلادي وما

---

(١) انظر : قصة الفلسفة ص ٢٢، وكتاب أفلاطون – ترجم إلى العربية بقلم حنا خباز .

بعده على يدي نصارى ، منهم توماس مور عام ١٥٢٥م في كتابه (يوتوبيا) ،[١] الذي صور فيه دولة مثلى تحقق السعادة ، وتمحو الشرور ، وكذلك القديس أوغسطين في كتابه (مدينة الله) ، وكامبانلا في كتابه (مدينة الشمس) وفرنسيس بيكون في كتابه (أطلنطس الجديدة) [٢].

هذه النظرية تجعل الانسجام العقلي ، والمصلحة الدنيوية المجردة هما الأصلان الرئيسان في بناء المجتمعات اللادينية ، وترى أن الحياة تكون سعيدة فاضلة لو أُبعد الدين عن الواقع نهائيا ، وقد يستثني بعضهم وجود دين شخصي لا أثر له في الحياة [٣].

والحداثيون تأثروا كثيراً بالنظرية الخيالية ، فهم يبنون حياتهم على الأوهام والأحلام الكاذبة [٤].

الثانية – نظرية العقد الاجتماعي

ترى هذه النظرية أن الناس كانوا يعيشون حياة فطرية طبيعية ، سابقة على نشأة الجماعة ، إلا أنها حياة فوضوية قائمة على الصراع ، مما اضطر الأفراد إلى التعاقد ، لإنشاء الجماعة السياسة ، واختاروا بمقتضى هذا العقد حاكماً لم يكن طرفاً في العقد ، ونزل الأفراد بالعقد عن جميع حقوقهم الطبيعية ، لذا فإن هذه النظرية ترى أن سلطان الحاكم مطلق غير مقيد بشيء ، وهو الذي يضع القوانين ، ويعد لها حسب مشيئته [٥].

---

(١) (يوتوبيا) أو (الطوباوية) كلمة يونانية معناها (لا مكان) انظر : الموسوعة العربية الميسرة ٢/١٩٨٧.

(٢) انظر : المرجع السابق ٢/١٩٨٧ وقصة الفلسفة ١٧١.

(٣) انظر : سلسلة تراث الإنسانية ١/٢٩٤.

(٤) أنظر الثابت والمتحول ٢/٢٠٠ ٢٦٧ ٢٦٨، ومقدمة للشعر العربي ص ٨٨، ٨٩ .

(٥) أنظر : الموسوعة العربية الميسرة ٢/١٩١٢ وسلسلة تراث الإنسانية ١/٢٥٧.

ومن أوائل من نادى بهذه النظرية الفيلسوف الإنكليزي توماس هوبز ١٥٨٨ – ١٦٧٩م في كتابه : (التنين الجبار أو لوياثان) ، وبعده جاء الفيلسوف الإنكليزي الآخر جون لوك ١٦٣٢ – ١٧٠٤م ، وأيد النظرية ، إلا أنه قرر أن السلطة مقيدة بقبول الأفراد لها ؛ ولذلك يمكن سحب السلطة منها بسحب الثقة فيها [١].

وفي القرن الثامن عشر الميلادي ناصر هذه النظرية وأكملها الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو ١٧١٢ – ١٧٧٨م ، فقد كان يرى أن الإنسان خير بطبعه ، إلا أن الأديان نقلته إلى الفوضوية والفساد : فإن أراد الناس الحرية فعليهم بالدخول في تعاقد اجتماعي ، يجعل السيادة للمجتمع بأسره ، فلا تشرع القوانين بغير موافقة الجماعة كلها ، مهما كانت صورة الحكومة ،

والهدف الأسمى من التربية والتعليم عند جان جاك روسو هو أن يعرف الإنسان كيف يعيش ؛ ولهذا الفيلسوف أثر كبير في المذاهب الاشتراكية والشيوعية [٢].

إن هذه النظرية تنكر دور الدين في السياسة والمجتمع والحياة كلها ، بل إن جان جاك روسو يعتبر الدين عاملاً من العوامل التي تعوق الحرية والمساواة ، لذا فقد وصف بعض الباحثين الغربيين مؤلفاته بأنها حرب ضد المجتمع ، وضد الإله [٣].

ومن أشهر مؤلفاته العقد الاجتماعي ، الذي كان له أثر كبير في قيام الثورة الفرنسية ، حتى أن بعضهم أطلق على كتابه (إنجيل الثورة الفرنسية) .

---

(١) انظر : مدخل إلى علم السياسة ص ٣٠.

(٢) انظر : سلسلة تراث الإنسانية ١/٥٧٧، والموسوعة العربية الميسرة ١/٨٩٤ .

(٣) انظر : سلسلة تراث الإنسانية ١/٥٨٦.

ولقد نفى جان جاك روسو العنصر الإيماني من الأخلاق ، وجعل مدارها الرئيس المصلحة الدنيوية المجردة ، فالأخلاق ما هي إلا مظاهر صورية للتعامل الخارجي ، لا حقائق وقيم إيمانية تنبع من ضمير الإنسان ، ولا غرابة في ذلك فقد أنكر دور الدين في حياة الناس ، إلا أنه دعا إلى تدين سماه : «عقائد القانون الطبيعي ، وجود الإله ، والعناية الإلهية ، والثواب والعقاب في حياة آجله ، وقداسة العقد الاجتماعي والقوانين ، ولكل أن يضيف إليها ما يشاء من الآراء في ضميره ....» [١].

وقد ساهمت أفكار جان جاك روسو في نشأة الحداثة ، والتمهيد لها ، بل إنها تعد من مصادر الحداثة لكثرة ما يأخذ الحداثيون منه ويروون عنه [٢].

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٩٧ ١٩٨.

(٢) سيأتي توضيح ذلك في فصل (الجذور والمصادر).

الثالثة – نظرية المدرسة الطبيعية

كفر بعض الباحثين الأوروبيين بالكنيسة وإلهها ، وآمنوا بإله جديد سمّوه (الطبيعة) ، وزعموا بأن له قانوناً وشريعة تجعلهم في غنى تام عن شريعة الكنيسة المحرفة ، وشارك بعض هؤلاء الباحثين أولئك الذين آمنوا بإله الكنيســة على أنه خالق الكون مع إنكارهم للوحي والأديان ، وهؤلاء جميعا يطلق عليهم (الطبيعيين) .

يرى الطبيعيون أن العقل البشري قادر بالاعتماد على نفسه أن يكتشف القانون الطبيعي لهذه الحياة بجميع شؤونها ، مثلما اكتشف نيوتن القانون الطبيعي لنظام الكون ، ومن ثمّ فليست القوانين مرتبطة بالدين ، بل لا داعي للدين أصلاً ، والكتب السماوية والهيئات الكهنوتية ليست سوى عوائق أبعدت الناس عن القوانين الطبيعية .

يقول راندال :

«إن أحد الأركان الأساسية الثلاثة لديانة العقل كان الاعتقاد أن نظام الطبيعة متضمن لقانون طبيعي في الأخلاق ، يجب معرفته واتباعه كأي من المبادىء العقلية التي تضمنتها آلة العالم النيوتينية ، ومعنى ذلك أن مبادى الثواب والخطأ والعدالة والظلم كانت بالنسبة إلى القرن الثامن عشر منسجمة في منهج العقل والعلم ، وأن المسلّم به كلياً أن لعلم الأخلاق استقلالاً عن أي أسس لاهوتية وإلهية يماثل استقلال أي نوع آخر من المعرفة البشرية .

والحقيقة أن الله أمر بالمبادىء الأخلاقية مثلما أمر بقانون الجاذبية ، لكن مضمون أوامره كمضمون جميع قوانين الطبيعة الأخرى لابد من كشفه بالطرق العقلية والتجريبية للعلم النيوتني»[1].

---

(١) تكوين العقل الحديث ٥٢٨/١، وانظر الفلسفة أنواعها ومشكلاتها ص ٢٩٣.

الرابعة – نظرية المدرسة الوضعية العقلية

ظهرت هذه النظرية نتيجة للاضطرابات الفكرية ، والتقلبات الفلسفية التي عاشتها أوروبا ، فقد انتقلت من الفلسفة اليونانية الوثنية إلى النصرانية المنحرفة الظالمة ، ثم ثارت على الكنيسة متجهة إلى النظريات العلمية في مجالات البحوث التطبيقية ، وانبهر الناس بها إلا أنها لم تؤد الغاية المنشودة من السعادة والاطمئنان .

وفي بداية القرن التاسع عشر الميلادي برز الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت ١٧٩٨ – ١٨٥٧م بدعوته إلى نظريته (الوضعية العقلية) ، والتي زعم فيها بأن التقدم البشري مرّ بثلاث مراحل هي :

المرحلة الأولى – مرحلة الخرافة ، وهي تعلل الأشياء بقوى خارقة .

المرحلة الثانية – مرحلة الدين ، وهي تعلل الأشياء بمبادئ مجردة .

المرحلة الثالثة – مرحلة العلم ، وهي مرحلة (الوضعية العقلية) [١]. ، التي تعلل الأشياء بالمشاهدة والتجارب .

ويرى رائد الفلسفة الوضعية أنه لكي يصل الناس إلى المرحلة الثالثة عليهم أن يتجردوا من الغيبيات والأوهام ، ويركزوا اهتمامهم على الواقع والنافع ، وهما أصلا الوضعية .

ولقد دعا أوجست كونت إلى إلغاء العقائد الدينية الغيبية ، وما يتبعها من تشريعات إلهية ، زاعماً أنها أفكار ومبادئ غير واقعية ، ولا نافعة ، وإنما هي مرحلة من المراحل التي يجب تجاوزها إلى غيرها [٢].

وعلى هذا المنهج سار اليهودي أميل دوركايم ١٨٥٨ – ١٩١٧م، وتبناه ونادى به ، حيث قال : «ليس هناك علم إلا وواجه مقاومة من قبل

---

(١) انظر: سلسلة تراث الإنسانية ٢/٥، والموسوعة العربية الميسرة ٢/١٥١٧.

(٢) انظر: قصة الفلسفة ٤٥٤.

العواطف الإنسانية التي كانت تمس الظواهر الطبيعية ، وكانت هذه المقاومة لا تقل في عنفها عن المقاومة التي يلقاها علم الاجتماع في وقتنا الحاضر ؛ وذلك لأن الظواهر الطبيعية كانت هي الأخرى ذات طابع ديني أو خلقي ، أما وقد تحررت العلوم واحداً بعد آخر من سيطرة تلك الفكرة الشائعة ، فإنه يحق لنا الاعتقاد أنها سوف تختفي في نهاية الأمر من علم الاجتماع أيضاً، أي من آخر معاقلها ، وبذلك تدع السبيل حراً أمام العلماء».[1]

ويقول في موضع آخر :

«إن الوصف الوحيد الذي نرتضيه لأنفسنا هو أن نوصف بأننا عقليون ؛ وذلك لأن الهدف الرئيس الذي نرمي إليه ما هو في الواقع إلا محاولة نريد بها مد نطاق المذهب العقلي حتى يشمل السلوك من الناحية التأريخية إلى بعض العلاقات السببيه ، وأنه من الممكن أيضاً تحويل هذه العلاقات بعملية عقليه إلى بعض القوانين التي يمكن تطبيقها عملياً في المستقبل ، وليس مذهبنا الذي خلع عليه البعض اسم المذهب الوضعي سوى إحدى نتائج المذهب العقلي» [2].

ويقول برينتون :

«فالمذهب العقلي يتجه إلى إزالة الله وما فوق الطبيعة من الكون، ومن الوجهة التأريخية فإن نمو المعرفة العلمية وازدياد الإستخدام البارع للأساليب العلمية يرتبط بشدة مع نمو الوضع العقلي نحو الكون ...»[3].

---

(١) قواعد المنهج ص ١٠١.

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٩.

(٣) منشأ الفكر الحديث ص ٢٧.

الخامسة – نظرية التطور (النشوء والارتقاء)

رائد هذه النظرية هو الباحث الإنكليزي تشارلز روبرت داروين ١٨٠٩ – ١٨٨٢م ، نشر نظريته في كتابه (أصل الأنواع) عام ١٨٥٩م ، وقد افترض فيه تطور الحياة في الكائنات العضوية من السهولة والبدائية إلى الدقة والتعقيد ، كما افترض أن أصل الكائنات كائن حقير ذو خليه واحدة [١].

وعلى حد زعمه فقد وهبت الطبيعة بعض الكائنات عوامل البقاء، ومؤهلات حفظ النوع بإضافة أعضاء أو صفات جديدة ، تستطيع بوساطتها أن تتواءم مع الظروف الطارئة ، وذلك أدى إلى تحسن نوعي مستمر ، ينتج عنه أنواع جديدة راقية كالقردة ، ثم نوع أرقى وهو الإنسان ، كما حرمت الطبيعة البعض الآخر من الكائنات من عوامل البقاء ، فسقط وهلك ولم يرتق ، وعمل الطبيعة هذا عمل عشوائي ، غير منظم هذا ما قرره داروين .

وقد حدثت معارك عنيفة بين أنصار هذه النظرية الملحدة ورجال الكنيسة ، حيث أن أصحاب نظرية التطور أنكروا الإله الخالق ، وأعلنوا إلحادهم ، ثائرين على طغيان الكنيسة ، ومعارضتها لكل علم تجريبي ، مما أدى في النهاية إلى انتصار أصحاب النظريات الإلحادية [٢].

السادسة – نظرية : (الفلسفة المثالية)

كان من أوائل دعاتها الفيلسوف الفرنسي ديدرو ١٧١٣ – ١٧٨٤م ، والفيلسوف الألماني عمانويل كانت ١٧٢٤ – ١٨٠٤م ، والفيلسوف

---

(١) انظر : مذاهب فكرية معاصرة ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٢) انظر: قصة الفلسفة ص ٤٥٦ ،والفكر الأوروبي الحديث – الاتصال والتغيير في الافكار ٣/٩٢، ٩٣ ، وكتب غيرّت الفكر الإنساني ص ٢٣٤ ، والفكر الأوروبي الحديث ٣/٩١ – ٩٤.

الألماني هيجل ١٧٧٠ - ١٨٣١م .

عرف عن كانت انكاره «اللاهوت النظري ، وانكاره أن يكون الدين قائماً على العقل»[١].

وكان يرى أن الدين إيمان أخلاقي فقط ، وليس شريعة وعقيدة يجب الإلتزام بها ، مما أثار رجال الدين النصراني في ألمانيا ، فقاموا بالاحتجاج ضده [٢].

ومن أشهر كتبه «نقد العقل الخالص»، قال عنه بعض الغربيين: «إنه حيلة مدبرة خبيثة لمحو أسس الدين التاريخية ...»[٣].

وقد عرف مذهب كانت بالمثالية أو المثالية الذاتية ، وعلى نهجها سار بعض المفكرين الألمان من أمثال : فشته ، هيجل ، شلنج ، «ومفادها أن العقل لا يدرك الأشياء في ذاتها ، بل الإمتثالات التي لدينا عن هذه الأشياء» [٤].

انتشر هذا المذهب في أوروبا ، وسيطر على الفكر هناك ، لا سيما في القرن التاسع عشرالميلادي ، وكان له أتباع في انجلترا وفرنسا وإيطاليا [٥].

السابعة - نظرية الشيوعية

من أوائل منظري الشيوعية الفيلسوف الألماني جورج فلهلم فردرك هيجل ١٧٧٠ - ١٨٣١م ، صاحب الفلسفة المثالية الألمانية ، والتي «مؤداها أن للكون روحاً يتبدى في مراحل تطورية ، يعينها المنطق الجدلي ،

---

(١) قصة الفلسفة ص ٣٥٤.

(٢) انظر: المرجع السابق ص ٣٥٤ ٣٥٨.

(٣) المرجع نفسه ص ٣٧٢.

(٤) موسوعة الفلسفة ٢/٤٣٩، وانظر ص ٤٤٠.

(٥) انظر: المرجع السابق ص ٤٤١.

ومحصله أن فكرة ما تولد نقيضها ، ومن تفاعل النقيضين تنتج فكرة جديدة تؤلف بينهما ، ثم تأخذ الفكرة الجديدة نفس المراحل الثلاث المذكورة ، وهكذا[١].

ويرى هيجل أن الفن أقرب تعبير عن هذا التطور ، حيث سار في ثلاث مراحل ، الشرقي ، فاليوناي ، فالرومانسي ، وكذلك الدين تطور من عبادة الطبيعة إلى النصرانية التي تمثل اتحاد الإله بالإنسان في شخص المسيح ، أي تمثل اتحاد الروح بالمادة [٢].

وعلى إثر فلسفة هيجل قام مذهب المادية الجدلية عند الاشتراكي الألماني فردريك انجلر ١٨٢٠ - ١٨٩٥م ، والفيلسوف الشيوعي كارل ماركس ١٨١٨ - ١٨٨٣م ، الذي اضطهد في ألمانيا بسبب عمله الثوري، فانتقل إلى باريس حيث التقى فردريك انجلز، وتعاونا معاً على إصدار الوثيقة الشيوعية الأولى المعروفة باسم (المنشور الشيوعي) عام ١٨٤٨م [٣].

وقد قامت هذه النظرية الشيوعية على الإلحاد ومحاربة الأديان، يقول رجاء جارودي : «إن ما يميز الإلحاد الماركسي البحت هو أنه على خلاف سابقيه لم يكتف باعتبار الدين خديعة فحسب ، اصطنعها المستبدون، أو مجرد وهم ولده الجهل ، بل إن ماركس وانجلز قد بحثا عن الحاجات الإنسانية ، التي تلبيها الأديان بهذه الصورة المخادعة ، فوصلا - كما يقول ماركس - إلى أن الأديان هي في وقت واحد ، إنعكاس لشقاء فعلي ، واحتجاج على هذا الشقاء ... ، هذه الحقيقة التأريخية هي التي يلخصها ماركس في تعبير مقتضب (الدين أفيون الشعوب) ...» [٤].

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة ١٩٢٤/٢.

(٢) انظر: المرجع السابق الصفحة نفسها.

(٣) كتب غيرّت الفكر الإنساني ص ٢٤٧.

(٤) ماركسية القرن العشرين ص ١٤٥، ١٤٦وانظر موسوعة الفلسفة ٤٢٠/٢.

وتقوم هذه النظرية على حتمية الصراع بين المتناقضات ، هذا الصراع يؤدي إلى التطور والترقي من مرحلة إلى مرحلة أرقى منها ، ويصحب هذا التطور تغيير حتمي في العقائد والأفكار والقوانين [١].

الثامنة – نظرية فرويد وتلاميذه

فرويد فيلسوف يهودي نمساوي ١٨٥٦ – ١٩٣٨م : تقوم نظريته النفسية على التفسير الجنسي للسلوك البشري .

وخلاصة هذه النظرية ، أن الطاقة الجنيسة هي الطاقة العظمى في الإنسان ، وهي الموجه الوحيد لكل تصرفاته ومعتقداته وقيمه ، فالطفل يولد بطاقة جنسية ، ويرضع ثدي أمه بلذة جنسية ، ويقضي حاجته بلذة جنسية ، ثم يكبر ، فيميل إلى أمه بشهوة جنسية إلا أن أباه يمنعه من قضائها معها ، وكذلك البنت تميل إلى أبيها بشهوة جنسية ، ووالداها يمنعانها من ذلك ؛ لذا ينشأ الشاب كارهاً لوالديه بسبب منعهما وكبتهما لشهوته الجنسية ، فيتعقد ، ويتولد من هذا التعقيد دينه وأخلاقه وكافة معتقداته .

وهكذا ينشأ الدين نتيجة للعقد الناشئة من الكبت الجنسي [٢].

يقول يوسف عز الدين :

«يقوم النقد الحديث على الفلسفة الغربية ، يستمد أصوله من علم الاجتماع ، وعلم النفس ، الذي ارجع فرويد فيه كل العواطف إلي الغريزة الجنسية ... ، وقد كان فرويد نفسه يعاني من حرمان جنسي قاتل ، أذاه أن

---

(١) انظر: الشيوعية نظرياً وعملياً ص ٢٨.

(٢) انظر: مذاهب فكرية معاصرة ص ١٠٧ – ١٠٩ . وانظر الفكر الأوربي الحديث – الاتصال والتغيير في الأفكار ٣/ ١٤٠ ، ١٤١.

يرى الناس يتمتعون باللقاء ، وهو محروم منه ، فتجسم في ذهنه هذا الحرمان ، وكأن البشر ليس لهم من متع في الحياة سوى الجنس ، وأطلق نظريته على الطفل والشيخ والأم والبنت ، وقد سادت هذه النظرية ، إذ وجدت من يروج لها عنصرياً وتجارياً ، وظنها بعض الدارسين في المشرق أنها حقيقة ، دون أن يسبروا غور الدوافع الذاتية ، أو المصالح التجارية والعنصرية ، التي صحبت هذه النظرية»[١].

(١) التجديد في الشعر الحديث – بواعثه النفسية وجذوره الفكرية ص ١٥، ١٦.

فلاسفة وأدباء وفنانون أنتجوا الحداثة

تلك هي بعض النظريات والفسلفات الإلحادية ، وغيرها كثير مما نشأ في أوروبا المضطربة فكرياً واجتماعياً وسياسياً ، وليس المراد في هذا المقام الاحاطة بجميع النظريات ، وإنما الإفادة بأشهرها على قدر الاستطاعة

وجميع تلك النظريات والفلسفات ، الثائرة على الدين ، وعلى النصرانية المحرفة مهدت لثورة الحداثة والحداثيين في العالم الغربي ، سالكة في كثير من أحوالها أسلوب الفن والأدب بأنواعه .

فالحضارة الغربية ، وما نشأ فيها من اتجاهات ومذاهب فكرية ثورية ، هي المصدر الأساس للحركة الحداثية الثورية في العالم الغربي، ومن ثَمَّ في العالم العربي .

إن الحداثة ظهرت في العالم الغربي : «امتداداً طبيعياً للتيه الذي دخلته أوربا منذ العصور الوثنية عند اليونان والرومان ، امتداداً إلى عصر الظلمات ، ثم امتداداً إلى العصور اللاحقة بكل أمواج المذاهب والفلسفات المتناقضة المتصارعة» [1].

ومن أوائل مصادرها تلك الحركات التي ظهرت في العصور الوسطى ، والتي تنادي بالثورة على الكنيسة ورجالها ، وتدعو إلى إحياء الفلسفات اليونانية والرومانية القديمة .

يقوم برنتن :

«إنه طالما كانت العصور الوسطى في الواقع عصوراً دينية وطالما أن عصر النهضة يعني على الأقل محاولة العودة إلى الوثنية اللادينية ، إن لم

---

(١) الحداثة في منظور إيماني ص ٢٥.

نقل الزندقة ، فإن فن العصور الوسطى يرتبط بالكنيسة ، أما فن عصر النهضة فيتمتع بحرية بوهيمية ، وهذه هي حقيقة الأمر ، وكان النحاتون والرسامون في ذروة عصر النهضة يقلدون العري الكلاسيكي كما يقلدون كل شيء كلاسيكي آخر ، فالفنان بدأ يقود شيئاً يشبه نوع الحياة ، وحشيا فاحشا مجازفاً ، ولكنه عظيم الأهمية ، ومن المفروض أنه لا يزال يقوده ... .

لقد كان فنانو عصر النهضة الذين كرسوا أجل حياتهم الفنية لغرض جعل المعتقدات المسيحية واضحة تبدو في أجمل مظاهرها للعيان ، يستمدون في القيام بالأعمال التي ورثوها عن الرواد السابقين للعصور الوسطى ، هذا وقد تحول الفن في العصور الحديثة إلى فن علماني تقريباً ، حتى أن الفن الديني كاد يختفي أو بالأحرى أصبح في الدرجة الثانية استنتاجياً وتقليدياً ... .

إن الكتاب الخياليين هم الفنانون القريبون من قلب الوضع الإنساني نحو الحياة ، إن بترارك ، ورابله ، وشكسبير ، وسرفانتس ، والرسامين والنحاتين والموسيقيين ، الذين لا نزال نعلم أسماءهم ، هم نوع من الرجال الذين ينشدون طريقاً وسطاً بين المسيحية التقليدية كما خلفتها العصور الوسطى ، وبين العلمانية الحديثة التي يبدو أنها تقلع جذور السحر والسر من الكون ! ... ، كان هؤلاء الفنانون في تمرد مدرك كثيراً ضد التقليد المسيحي خلال العصور الوسطى ، لقد أنكروا مستنداً ، وبات عليهم أن يبحثوا ، بل يقيموا مستنداً آخر ، فقبول هؤلاء العلماء المجرد لأي شيء كتبه قدماء اليونانيين والرومانيين لم يكتف به رجال الفكر ، وككل شخص ألمّ بكل ماله علاقة بالعقل عاد هؤلاء الفنانون إلى اليونانيين والرومانيين ، وكانوا بذلك كالمهندسين المعماريين حيث أعادوا تجديد موادهم»[1].

---

(١) منشأ الفكر الحديث ص ٢٧، ٢٨ - ٣٣.

وبينما كان بعض الأدباء والفنانين في عصر النهضة يطالبون بإحياء التراث اليوناني والروماني كان بعضهم الآخر يكرس اهتمامه على الحياة الدنيا ووصفها ، ووجود الإنسان فيها ، مناقضاً في ذلك اهتمام الكنيسة بالتثليث وصكوك الغفران وحقوق القديسين .

– وكان من أشهر من اهتم في نظرياته الأدبية والفكرية بدراسة الإنسان وموقعه في الحياة الشاعر الإيطالي (دانتي) ١٢٦٥ - ١٣٢١م ، والذي أثر في الأدب الأوروبي ، وجعله يحل الإنسان شيئاً فشيئاً محل الإله ، وذلك بتصوير الإنسان على أنه كائن مقدس [١].

– كما كان الفنان (جيوتو) ١٢٦٦ – ١٣٣٧م ، من أبرز من وقف مع الشاعر (دانتي) في تقديسه الإنسان ومعارضته للكنيسة .

يقول (داونز) :

«يقف (دانتي) كما وقف صديقه ومعاصره المصور الرسام (جيوتو) على رأس حقبة جديدة في تطور الفكر البشري ، ولما كان كلاهما فناناً عظيماً ، فإنهما عبرا أصدق تعبير عن ذلك الشيء الجديد ، الذي ربما كان يجيش في صدور الكثير من معاصريهم ، ولكنهم لم يستطيعوا الإفصاح عنه كما أفصحا ، وهذا الشيء الجديد هو (الإنسانية) ، وهو الاهتمام بشؤون الإنسان في الحياة الدنيا ... .

أما (جيوتو) فكان فنان هذه النهضة كما كان دانتي شاعرها ...»[٢].

– وكان من أبرز من شجّع تلك الفكرة في القرن العشرين الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر ١٩٠٥ – ١٩٨٠م زعيم الفلسفة الوجودية [٣].

---

(١) وقد اشتهر بملحته (الكوميديا الإلهية) التي سخر فيها من الإسلام ورسوله – ﷺ – انظر: الدراما ومذاهب الأدب ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) كتب غيرّت وجه العالم ص ٣٦٢ ، ٣٦٥ .

(٣) انظر: موسوعة الفلسفة ١/٥٦٥ – ٥٦٩ وأدباء معاصرون من الغرب ص ٥٨

ولا ننسى أولئك الأدباء الذين نادوا بالعودة إلى الإباحية الرومانية ، واتباع الفلسفة الأبيقورية ، التي تقوم على الإستمتاع بضروب الملذات والشهوات ، ثائرين على إله الكنيسة ورهبانيتها بحجة مخالفتها للإنسانية .

يقول (راندال) : «الحقيقة أن هذا الإهتمام بالإنسانية عاش بصورة قوية واضحاً منذ العصور التي سبقت غزوة المسيحية للبرابرة ، فالحياة التي صورها (هوميروس) في الملامح الوثنية تعكس لنا الوجود الإنساني ... ، وجل ما استطاع التقليد المسيحي هو أن يشوه سمعتها ... ، وقد انتشر خلال القسم المتأخر من القرون الوسطى تيار من الأغاني المبتذلة تمجد التمتع الصريح بالحياة وملذاتها ، وكانت هذه الأغاني كثيرة التحرر مفرطة في وصف النواحي الحيوانية .

على النحو التالي :-

نحن في تجوالنا مغتبطون مشرقون ...

نأكل حتى الشبع ، نشرب حتى الثمالة ...

نمرح إلى الأبد ، ننهل من الجحيم ...

تلتصق صدور بعضنا ببعض » [١].

- ومن أشهر من نادى بإحياء التراث اليوناني والروماني ، ودعا إلى التمرد على الواقع ، ورفض تعاليم الكنيسة ، والسخرية برجالها الكاتب الفرنسي (فرانسوا رابليه) ١٤٩٠ - ١٥٥٣م ، الذي اشتهر بقصصه الهزلية ، التي انتقد فيها التعاليم الدينية والاجتماعية والسياسية ، المعاصرة له [٢].

---

(١) تكوين العقل الحديث ١/١٨٥ ، ١٨٦.

(٢) انظر: المرجع السابق ص ١٩٨، والموسوعة العربية الميسرة ١/٨٤٩.

هذه الحركات المنادية بإعادة التراث اليوناي والروماني أطلق على مجموعها ، (الكلاسيكية) ، وهي بلا شك اتجاه أدبي فلسفي ، يُعدّ من أبرز الاتجاهات التي مهدت الطريق لظهور الحداثة .

وكما ذكرت في أول هذا الفصل فإن المذاهب الفلسفية الغربية كانت متتابعة ومتناقضة ، فكان كل مذهب يهدم ما قبله ويثور عليه، منادياً بفكر حديث ، وهكذا تعددت الاتجاهات الفلسفية ، فبعد أن اشتهرت الكلاسيكية جاءت بعدها الرومانسية ، داعية إلى تطور النزعة الإنسانية ، منادية بتقديس الذات ، رافضة للواقع ، زاعمة أن الأديان والشرائع أفسدت على الناس حياتهم ، فيجب الثورة عليها ، على الرغم من كثرة أتباع هذا الاتجاه ، إلا أنه ضعف ، فتطور الأدباء إلى الاتجاه البرناسي ، ومنه إلى الواقعي ، ثم قام على أنقاضه الاتجاه الرمزي ، الذي كان له أعظم الأثر في الاتجاهات الحداثية إلى اليوم .

وهكذا تتابعت الاتجاهات والمذاهب الأدبية الفلسفية ، والنظريات الإلحادية والثورية ، حتى أنتجت الاتجاه الحداثي الثائر والمتمرد، والذي تولّى كبره الشاعر والناقد الفرنسي شارل بودلير ١٨٢١ – ١٨٦٧م ، الذي اشتهر بتصرفاته المتناقضة ، وبشعره المنحل ، وبإدمانه على المخدرات ، وشذوذه ، وثورته على واقعه ومجتمعه ، [١] وكذلك الشاعر الأمريكي ادجارآلن بو ١٨٠٩ – ١٨٩٤م ، والذي تدور قصصه ورواياته وأشعاره حول موضوعات غامضة ومخيفة ، والذي مات بسبب إفراطه في شرب المسكرات ،[٢] وغيرهما كثير من الحداثين الذين سيأتي ذكرهم في مواضع أخرى .

---

(١) انظر: أزهار الشر ، ص ١٩ – ٢٢، والموسوعة العربية الميسرة ١/٤٢٦ .

(٢) انظر: الموسوعة العربية الميسرة ١/٤٢٠ .

لقد برز الحداثيون في أوروبا في أوائل القرن التاسع عشر تقريباً، ونادوا بالثورة على كل ما هو قديم وثابت ، وتمردوا على واقعهم ، وطالبوا بتجاوزه إلى فكر حديث مخالف للسائد والسابق ، وغير ثابت ولا مستقر بل دائم التغير والتبدل .

وقد « كان جميع الحداثين يرون الأدب قوة ضاربة نارية ، يهاجمون بها كل ما كان يعتبر تقليدياً ليقوّضوه ، يهاجمون المعتقدات والمؤسسات ، ويهاجمون اللغة ، يهاجمون هذا كله ليهدِّموه ويحطموه ، وتنطلق كوابيس الجنس والمخدرات في الشعر والرواية والسلوك الواقعي ، وينطلق أدب اللامعقول ، واللاتخطيط ، واللارواية ، واللافن ، لينتقل الإنسان إلى عالم مجهول »[١].

إن الحداثة الغربية وإن كانت امتداداً للفلسفات الإلحادية الثائرة على الدين النصراني ورجاله ، إلا أنها تختلف عن باقي الفلسفات ، إذ أنها دعت إلى الفوضى العقدية ، والتمرد الأعمى على كل ما هو سابق وسائد وثابت .

والغربيون أنفسهم يؤكدون أن الثورة البروتستنتية ، والحركة الإنسانية ، والنزعة العقلانية ، هذه الحركات الثلاث مجتمعة ، هي من أهم الحركات التي صنعت التحول في الفكر الغربي ، وكان لها أثر كبير في نشأة مذاهب فكرية ثورية ظهرت هناك ، وأثرت تأثيراً مباشراً في تشكيل الفكر الغربي المعاصر ،[٢] بل وفي توجيه تفكير كثير من المثقفين في العالم العربي ،لا سيما العلمانيين والحداثيين والقوميين وأمثالهم .

لقد ولدت تلك التيارات الفكرية المنحرفة التي ظهرت في العالم

---

(١) الحداثة في منظور إيماني ص٢٩ .

(٢) انظر: تشكيل العقل الحديث ص ١٦٠ .

الغربي مذاهب ثورية متمردة على الدين ، داعية إلى الصراع مع القديم والثابت ، وعبّر الكثير منهم عن هذا الفكر بالأنواع الأدبية وأساليبها ، فجاءت الحداثة عن طريق النقد والشعر والقصة والرواية والمسرحية وغيرها ، مختفية تحت تلك الشعارات أحياناً ومعلنة عن نهجها وفكرها أحايين أخرى.

وقد اشتهرت الرومانسية في وقت حدث فيه تغيرات كبيرة في حياة أوروبا الفلسفية والاجتماعية والسياسية ، فقد قامت فلسفات ومذاهب فكرية جديدة على أنقاض مذاهب وفلسفات قديمة ، تمرّد عليها فلاسفة جدد وسقطت نظم وامبراطوريات وقام على أنقاضها غيرها .

كل ذلك قامت به تيارات فكرية ، ومذاهب فلسفية ، واتجاهات فوضوية عبر – كما بينته قبل قليل – ومن خلال الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والفن والمسرح ، ونحو ذلك .

فالرومانسية هي في الغالب تحوّل وتطور في أدب وفلسفة العصور الوسطى ، والعصر الحديث .

« وقد تميّز المذهب الرومانسي بالاعتداد بالعاطفة والإحساس والخيال ، وإعلاء ذلك على العقل والمنطق والحكمة ، كما تميّز بالثورة على أوضاع المجتمع ومناصرة حرية الفكر ، والنزوع إلى خوارق الطبيعة وأعاجيبها ، ومن ذلك نرى أن الأديب في هذا المذهب يطلق لعاطفته العنان ، ويسترسل معها ... ، ويعيش ويتمتع في دنيا خاصة من صنع خياله ... .

كذلك نرى الأديب في هذا المذهب يعزف عن القيود في الشكل ، وعن المثل العليا في الموضوع ، على ضوء كل ذلك يبدو الأدب الرومانسي وكأنه رد فعل للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ...»[١].

و« نرى بعض جوانب اغتراب الشعر العربي الحديث من قلق ،

---

(١) في النقد الأدبي ص ٢٤٨ .

واضطراب ، وعدم تأقلم مع المجتمعات ، والحياة بشكل عام ، إلى غير ذلك مما يتضمنه الاغتراب من مفاهيم حديثة ، دخلت شعرنا الحديث عن طريق الثقافة ، التي تلقاها ، أو يتلقاها شعراؤنا المحدثون عن الغربيين ، وحتى عن الشرقيين» [١].

والقرن الثامن عشر هو من أشد القرون ثورة وتغيراً لدى الغربيين ، فقد شهد هذا القرن تغيراً كبيراً في الأفكار والعقائد ، والواقع الاجتماعي بعد زوال الإقطاع وظهور الطبقة الوسطى في الحياة العامة ، ودعوتها إلى تغيير القوانين الاجتماعية رعاية لمصالحها ، وبدأ التحول الصناعي ، ومن ثمّ قامت الثورة الفرنسية الكبرى تعبيراً عن هذه التغيرات في بنية المجتمع الأوروبي ، وفي القرن نفسه اشتهر أحد الاتجاهات الحداثية، وهو (الرومانسية) ، المرتبطة بمباديء ، الثورة الفرنسية ، وبفلسفة (جان جاك رسو) ، والتي سبق ذكرها ، حيث دعا (رسو) إلى الثورة على المجتمع وعقائده وقوانينه ، ونادى بإطلاق الحرية الفردية ، التي قيدتها الأديان والشرائع والتقاليد الاجتماعية [٢] – على حد زعمه – .

يقول ياسين الأيوبي :

« لا شك أن الثورة الفرنسية التي وقعت سنة ١٧٨٩م ، أحد العوامل الكبرى ، التي كانت باعثاً ونتيجة في آن واحد للفكر الرومانسي المتحرر والمتمرد على أوضاع كثيرة ، من بينها الإقطاع السياسي والديني والاجتماعي ... » [٣].

وكذلك « شارك فولتير في هذا الاتجاه فهو ثائر في كتابه (كانديد) على التقاليد والشرائع ... .

---

(١) الاغتراب في شعر بدر شاكر السياب ص ٥٥ .

(٢) انظر: في النقد الحديث – دراسة في مذاهب نقدية حديثة وأصولها الفكرية ص ١٠٥ .

(٣) مذاهب الأدب ص ١٢١ .

ودعا رواد آخرون في الفلسفة المثالية مثل (ديداو) و(كانت) ، إلى الاعتداد بالإنسان ، بوصفه غاية في ذاته ، وأصبح الإنسان في مفهوم هذه الفلسفة ، كما تتمثل في أشعار الرومانسيين وحيداً في الكون يعذبه الألم «ويثقله التشاؤم» [١].

ويؤكد الحداثي العربي غالي شكري أثر الفلسفات الثورية في نشأة الحداثة فيقول :

« إن الرؤيا أو المفهوم أو المنهج الذي ساد طوال القرن التاسع عشر هو الأدب الشرعي للاتجاهات الأدبية والفنية ، التي ظهرت آنذاك . فالعلم والعقلانية والتجربة هم آباء الواقعية والطبيعية ، بل الرومانسية أحياناً ، كذلك فرؤيا القرن العشرين هي الأم الشرعية للاتجاهات الأدبية والفنية المعاصرة ، فالحدس واللاتحدد ، وغيرها من أساليب الفكر اللاعقلي والمعادي للتجربة والعلم هي أمهات السريالية والدادية والعبثية والشيئية ، وما إليها » [٢].

وذلك المفهوم هو من نتاج الأزمات النفسية والفكرية ، التي أفرزتها مفاهيم متناقضة سابقة عليها ، وغالباً ما تكون المفاهيم من بنات أفكار فيلسوف لا يوحد الله ولا يؤمن بالدين الحق ، بل قد يكون ملحداً ، لا يؤمن بدين ، متمرداً على الشرائع الدينية .

يبين ذلك غالي شاكري بقوله : « إن الروائي (جيمس جويس) هو الذي أشاع في الأدب الانكليزي المناخ المأساوي الحاد ، الذي لون نفسية الإنسان الحديث في الغرب بألوان قاتمة تجسد الدمار ، ولم يكن دور جويس إلا دقة الناقوس التي أيقظت الوجدان الانكليزي على رياح الفناء ، فقد كانت

---

(١) الاتجاهات الفكرية في العالم العربي وأثرها على الإبداع ص ٩ .

(٢) شعرنا الحديث الى أين ص ١٠ .

هذه الدقة هي العمل الفني الكبير (يولسيز) ، الرواية التي لم تبن وفق الأصول التقليدية للرواية الانكليزية ، ولكنها ثارت على تلك الأصول وفق مفهوم حديث للكون والإنسان والمجتمع ، وانعكست هذه الثورة على البناء الروائي في تفكك أوصال الفرد وتحلل استمرارية الزمن ، وانعدام التفرقة بين الحقيقي واللاحقيقي ، وغلبة الجنس على عالم الحلم والواقع سواء بسواء، وتلك هي عناصر الرؤيا الكونية الحديثة ، التي حلت مكان الرؤيا الإنسانية السابقة ، فالوجود ككل في مستواه التجريدي المطلق هو عماد الرؤيا الحديثة كبديل عن الوجود الاجتماعي أو الإنساني أو الجزئي ، الذي كان عماد الرؤيا السابقة ، وإذا كانت العتمة والدمار والتحلل هي المظاهر المباشرة للرؤيا الحديثة، فهي بلا شك رؤيا سوداء غامضة يلفها الضباب ، على النقيض من الرؤيا السابقة التي استهدفت الإنارة الكاملة ، أي أن طبيعة الرؤيا الحديثة هي المصدر الحقيقي لما يشكوه البعض من غموض الشعر الحديث ، فليس التلاعب بالأوزان أو اللغة أو الصور هو السر الكامن وراء هذا الغموض ، وإنما هي الرؤيا المأساوية القاتمة في جوهرها العميق هي التي تصوغ هذا الشعر على نحو شديد الغموض والتعقيد ...» [(١)].

ولو تتبعنا الاتجاهات الحداثية ، ومذاهب النقد والأدب لوجدناها ترجع إلى مصادر فلسفية فكرية لا دينية ، أو نصرانية محرّفة ، أو مناهج وضعية إلحادية .

فالكلاسيكية تعتمد في دعوتها على الفكر اليوناني والروماني ، والرومانسية متصلة اتصالاً وثيقاً بالفكر الأوروبي ، الذي اشتهر في القرنين الميلاديين الثامن عشر والتاسع عشر ، كما أنها ترتبط بالمذهب البروتستانتي، الذي تمرد على التطهير الكاثوليكي والإيمان بالقديسين ورجال الدين ، وآمن

---

(١) المصدر السابق ص ١١ ، ١٢ .

بالتثليث ، وأقام رابطة مباشرة بين الإله والإنسان من غير توسط الكنيسة ، وهي أيضاً حركة وطنية تعزز التعلق بالوطن والانتماء إليه ، والرومانسية – أيضاً – ترتبط فكرياً بالفلسفة المثالية النقدية كما تبدت عند كانت وفيشته وهيجل ، وفيها بعض من روح جان جاك رسو [١].

وقد « تغلب على نقاد الرومانسية الفلسفة ، فمعظمهم فلاسفة أولاً ونقاد ثانياً ، ثم هم شعراء نقاد ، وإن شئت قلت : هم شعراء نقاد قد أصابوا حظاً من الفلسفة غير قليل ...»[٢].

والرمزية تأخذ من الفلسفة الأفلاطونية ، وأفادت من فلسفة كانت وشوبنهور وفيشته وغيرهم [٣].

وكذلك دعاة الفن للفن ؛ فإن من أعظم مصادرهم فلسفة كانت التي تحصر الجمال في الشكل ، وتجعل الجمال ذاتياً في إدراكه ، وتحرر الفنان من كل قيد .

ومن دعاة الفن للفن (تيوفيل جوتييه) ١٨١١ – ١٨٢٢م ، وهو من أوائل من تأثر بفلسفة كانت ، يقول جوتييه :

« نحن نعتقد في استقلال الفن ، فالفن لدينا ليس وسيلة ، ولكنه الغاية ، وكل فنان يهدف إلى ماسوى الجمال فليس بفنان فيما نرى ، ولم نستطع قط التفرقة بين الفكر والشكل ... ، فكل شكل جميل هو فكرة جميلة ...» [٤].

وقد تأثر الشاعر الحداثي الفرنسي بودلير أبلغ تأثر بفلسفة

---

(١) انظر: في النقد الحدث ص ١٠٣ ، ١٠٤، ١٣٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٢ .

(٣) انظر: المرجع نفسه ص ١٤١ .

(٤) النقد الأدبي الحديث ص ٢٨٩ ،٢٩٠ .

كانت ، يقول بودلير :

« لا يمكن أن يتمثل الشعر بالعلم أو بالخلق ، وإلا كان مهدداً بالموت أو الخسران ، فالشعر ليس موضوعه الحقيقة ، وليس له من موضوع سوى الشعر نفسه »[١].

والاتجاه الحداثي الوجودي هو امتداد للفلسفة الوجودية ، التي نادى بها جان بول سارتر ، وغيره ، بدليل كثرة إعجاب الحداثيين به وبمنهجه .

وكذلك الاتجاه الحداثي الاشتراكي استمد فلسفته من هيجل ، وانجلز ، وكارل ماركس ، وغيرهم من الشيوعيين [٢].

فمما لا شك فيه أن الماركسية كانت من أهم مصادر الحداثة ، فإن الماركسية تبحث في المادية التأريخية والجدلية ، وهي من أوسع المجالات التي تتحدث عنها الحداثة ، وكذلك مسألة صراع المتناقضات ، وفكرة الإنسان الكلي عند الماركسية ، تقابلها مسألة الصراع بين المتناقضات كالقديم والحديث ، وفكرة الإنسان الكامل عند الحداثة [٣].

وقد بحث كارل ماركس عن المطلق والخفي في التأريخ ، والعلاقات الاجتماعية ، وهو الموضوع نفسه ، الذي يكثر الحداثيون تفسيره ، وتحليله .

وتسير الحداثة على نهج الماركسية في الثورة على المفاهيم السائدة في المجتمعات ، والتمرد على كل ما هو قديم وأصيل وثابت من أمور العقيدة والشريعة ، بل يتفق المذهبان على الثورة والتمرد على الذات الإلهية ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

ثم إن كثيراً من دعاة الحداثة في العالم العربي هم من

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩١ .

(٢) انظر: الاشتراكية والأدب ص ٤٤ .

(٣) انظر: مقدمة للشعر العربي ص ١٢٣ .

الشيوعيين من أمثال (أوجين جرندال) ١٨٩٥ – ١٩٥٢م ، و(لوي أراجون) ١٨٩٧ – ١٩٨١م ، و(هنري لوفـيـفـر)، و (رولان بارت) ١٩١٥ – ١٩٨١م ، وغيرهم كثير .

وكذلك الحداثيون في العالم العربي كثير منهم من أصحاب الاتجاه اليساري الماركسي ، كما سيأتي بيانه – إن شاء الله – .

يقول غالي شكري :

« لا نستطيع أن نحدد المنابع الثورية لحضارتنا الراهنة ما لم نعد إلى تلك الجذور المتشابكة في أرض القرن التاسع عشر ، التي تغلب عليها العصارة الماركسية والدارونية والميثولوجية . فلقد كان التفكير المادي العلمي العقلاني هو السمة الأساسية لحضارة ذلك العصر »[1].

وبالجملة فإن الملحوظ على الأدب في العالم الغربي أنه في الغالب مشغول بالمعبود ، بمفهومه الوثني ، فهو أدب فلسفي وثني ، ففي الفلسفة اليونانية والرومانية كان الأدب موجهاً إلى تمجيد الآلهة ، وتعظيمها، وذكر أدوارها ، وتمثيل أحوال الصراع بين بعض الآلهة وبعض الناس .

وفي عهد النصرانية المحرفة كان الأدب مشغولاً بذكر مقدسات النصارى ، وطقوسهم ، فتغلب على أشعارهم ذكر الصليب ، وابراز عقيدة الخطيئة والتكفير ، والآلهة الثلاثة ، وغير ذلك .

ثم جاءت الرومانسية ووجهت الأدب إلى عبادة الطبيعة ، وتقديس الجمال ، وبعدها برزت الواقعية ، منادية بعودة الناس إلى الواقع ، فعبدته ، وخضعت له ، وأقرت ما فيه على أنه الواقع الإنساني الذي لا يمكن تعديله ، ومن ثمّ أعطته شرعية الوجود .

وظهرت السريالية ، التي سارت على نهج فلسفة اليهودي فرويد،

---

(١) شعرنا الحديث إلى أين ص ٨ ، ٩،وانظر فن الشعر بين التراث والحداثة ص ٢٠٨.

فنادت بإبراز حقيقة النفس الإنسانية – من منظورها الجنسي ، حتى قدمت أدباً هو أقرب إلى عبادة الإنسان وتقديسه .

وجاء اتجاه آخر سمى نفسه باللامعقول ، ثائراً على تقديس العقل ومنهج العقلانيين ، الذي طغى في ذلك العصر ، فقال بأن الحياة غير معقولة ، وليس لها هدف ولا غاية .

وكذلك جاءت الوجودية ، التي تعتقد أن الكون والحياة لا هدف من وجودهما ولا غاية تنشد فيهما ، ولا عدل ، ولا حق ، وإنما كل ما في هذه الحياة ضلال وعبث ، وعلى الإنسان أن يهتم بتقديس ذاته ووجوده فقط [١].

وجاءت نظريات أدبيه أخري تفسر التاريخ تفسيراً مادياً ، موجهة أدبها نحو تقديس المادة وعبادتها .

وهكذا جاءت النظريات الأدبية وتوالت متضمنة فلسفات وثنية ، أفرزت فيما بعد ما يسمى بالحداثة ، المتمردة على العقائد والأديان ، والمتجاوزة للقيم والأخلاق ، والمنادية بالصراع مع القديم والثابت ، ساعية إلى تغيير الحياة كلها ، داعية إلى إنشاء مصادر حديثه للمعرفة منافية للمصادر السابقة ، سائرة على نهج عقدي فوضوي عبثي ، ومن ثَمّ أشادت هذه الفلسفة الحداثية الثورية بالفلاسفة الثوار طوال التاريخ ، من اليونان والرومان واليهود والنصارى ، واتخذت من أصحاب تلك النظريات الإلحادية والمادية المنحرفة أساتذة وأئمة لها تقتدي بكثير من مواقفهم وآرائهم لتمردهم على الأديان والعقائد والشرائع والقيم .

يقول الحداثي المغربي سعيد بنسعيد :

« عرف العالم الغربي مجموعة من التحولات والتغيرات الحاسمة ابتداء من القرن السابع عشر ، وذلك في مستوى كل من المجتمع والفكر ،

---

(١) راجع مذاهب فكرية معاصرة ص ٤٨٧ – ٤٩٢ .

تجلت التحولات في المستوى الأول في صورة الثورات السياسية والاجتماعية، وكذا التحولات الاقتصادية والتجارية المصاحبة لها ، وذلك على نحو ما عرفته دول أوروبا الغربية بكيفية متفاوتة ، وكانت التحولات التي تمت في المستوى الثاني في صورة الاكتشافات والمراجعات العلمية ، التي عاشتها في ميادين معرفية متعددة ، شملت الرياضيات والفيزياء والفلك خاصة ، فنتج عنها تغير كيفي في البنية المعرفية ابتداء من منتصف القرن الثامن عشر ، هذا التغير الكيفي هو ما سيعكسه فلاسفة عصر الأنوار ومفكروه ، وسيتم التعبير عنه في أعلى مستويات التجديد إمكاناً ، أي في مستوى الخطاب الأيديولوجي ... ، كل كتابات جون لوك في بريطانيا ، وسبينوزا في هولندا ، وروسو ، وفولتير ، وديدرو ، وكوندرسيه في فرنسا»[1].

ثم بين دور أولئك في محاربة القديم فقال :

« ... كل آرائهم الاجتماعية النقدية ، ونظرياتهم في السياسة والتشريع تعبير أيديولوجي عن هذه الإرادة الصلبة في رفض القديم في كل صوره وأشكاله : النظام القديم ، والعالم القديم ، والعلم القديم ، بل والإنسان القديم أيضاً ، ودعوة على الإقبال على الجديد والحديث ، دعوة إلى التحديث العام والشامل ؛ ولذلك لم يكن من الغريب أن يحتدم الصراع ، وأن تشتد ضراوته في عصر الأنوار ، في مساحة الأيديولوجيا ، ولم يكن من العجيب أن يصف هيجل ذلك الواقع، بلغته الموغلة في التجديد بأنه واقع الصراع بين الخرافة والأنوار»[2].

ثم وضح أن « الحداثة في المجتمعات الإنسانية الغربية هي الخلاصة العليا لكل هذه الثورات ، والاشتراكية والليبرالية : هما الخلاصتان

---

(١) الأيديولوجيا والحداثة – قراءات في الفكر العربي المعاصر ص ٨ .

(٢) المصدر السابق الصفحة نفسها .

الأيديولوجيتان في التعبير عنها ، كل هذه الثورات عاشتها الإنسانية في الغرب منذ القرن السادس عشر سياسياً ومادياً وأيديولوجيا» [١].

وخلاصة القول في جذور ومصادر الحداثة الغربية ، أنها نتيجة وإفرازات لحالات نفسية وفكرية معقدة ، سببها فقدان الدين الإلهي الحق ، وساهم في اضطرابها واشعالها اتجاهات يهودية ، وطغيان نصراني متسلط، ومذاهب فلسفية ، ونظريات تجريبية متناقضة ، تتفق على إنكار دور الدين في هداية الناس وإسعادهم ، زد على ذلك الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، التي عاشها المجتمع الغربي .

وبعد أن عاش الأوروبيون تلك الهزات الحضارية والأزمات النفسية لجأوا إلى وسائل التمرد على الأديان ، والثورة على السابق والسائد والمألوف ، متأثرين في مسالكهم بجميع تلك الاتجاهات التي عايشوها ، لذا نجد الشذوذ النفسي والجنسي هو سمة كثير منهم ، وكذا الإدمان على المخدرات والمسكرات بأنواعها ، أصدق تعبير عن الحالات النفسية المعقدة التي يعايشونها ؛ فإنهم يفرون إلى تلك الشذوذيات بحثاً عن السعادة المفقودة ، وخروجاً من الحالات الفكرية والنفسية ، التي يعانون منها .

إنهم اتفقوا على محاربة الثابت والقديم ، وكذا السائد والمعروف من العقائد والشرائع ، إلا أنهم اختلفوا في البديل ، فبعضهم تبنّى اليهودية وتعصب لها ، وبعضهم النصرانية ، وطائفة رابعة تبنوا القومية ودافعوا عنها ، وهكذا اختلفوا في البديل لاختلاف مشاربهم ، مع اتفاقهم على الأصول والأسس الحداثية الثورية ، والسمة البارزة لهم الفوضوية والتعقيد ، والفرار من الحياة عن طريق الأحلام والخيالات الكاذبة .

---

(١) المصدر نفسه ص ٤١،وانظر أثر ذلك على المجتمعات العربية في (بعض قضايا الفكر العربي المعاصر) ص ٣ ، ٤٣ ، ٦٩ .

ولعلّي أجمل مصادر الحداثة الغربية وجذورها في سبع نقاط ، هي :

أولاً – الفلسفات اليونانية والرومانية ، وما انطوت عليه من أفكار وعقائد وثنية ومذاهب إباحية .

ثانياً – اليهودية الحاقدة ؛ إذ أن كثيرا من الحداثيين تأثر باليهود وأشاد بأعمال وتجارب فلاسفتهم ، من أمثال دور كايم وفرويد وكارل ماركس ، وغيرهم .

ثالثاً – النصرانية المنحرفة ؛ إذ أن من الحداثيين من تأثر بها ، واتضح ذلك في فكره وأدبه ، واستعماله في شعره لكثير من العقائد النصرانية .

رابعاً – الشيوعية المتضمنة للمادية الجدلية ، والصراع بين المتناقضات ، فمن الأدباء الثوريين كارل ماركس ، مؤسس الماركسية ، وكثير من الحداثيين هم أتباع لهيجل وانجلز وغيرهما .

خامساً – المذاهب الغربية ، التي ثارت على الكنيسة وطغيانها وتمردت على جميع الأديان .

سادساً – أزمات فكرية ونفسية وسياسية واجتماعية أنتجت عبادة العقل أو الطبيعة أو التجربة أو الجنس أو الذات ، ثم هذه الأخيرة لم تنجح في إسعاد المجتمع الغربي ، فتولدت من هذا كله الحداثة الثائرة .

سابعاً – الفلسفة الوجودية ورائدها جان بول سارتر ، حيث سلك سبيله كثير من الحداثيين ، الذين دعوا إلى الفرار من الحياة عن طريق الأحلام والتجاوزات وتقديس وجود الإنسان وذاته .

المطلب الثالث

جذور الحداثة في العالم العربي

الدارس للحداثة في العالم العربي يتبين له أن مصدرها الأساس وجذرها الأول هو الحداثة الغربية ، وما صدرت عنه من ملل منحرفة ، وفلسفات وثنية ، ومذاهب إلحادية ، أضف إلى ذلك إفادة الحداثيين العرب من المذاهب المنحرفة المنتسبة للإسلام كالباطنية والصوفية ، بفروعها المختلفة ، والاتجاهات الفلسفية ، والحركات الثورية ، والمنحرفين فكراً وأخلاقاً [١].

المصدر الأول

الحداثة الغربية ومصادرها الفلسفية

الحداثة الغربية وما صدرت عنه هي المصدر الأساس للحداثة في العالم العربي ، ويتضح ذلك من إشادة الحداثيين العرب بالحداثة الغربية ومنظريها ، ودعوتهم إلى السير على نهج أولئك الغربيين ، والاقتداء بهم .

يقول نجيب شاهين متأسفاً على موقف بعض الأدباء الذين لا يسيرون على نهج الأجانب في نبذ القديم ، واقتباس الجديد ، ومجاراة العصر :

---

(١) انظر: قول أحد كبار الحداثيين في العالم العربي وهو محمد عابد الجابري حيث يعترف أنه تلميذ للفلاسفة والكتاب الأوروبيين،وتتلمذ كذلك على ما كتبه الفلاسفة والباطنية المنتسبون إلى الإسلام، انظر: التراث والحداثة - دراسات ومناقشات ص ٣٢٢ ، وانظر - أيضاً إلى كلام الحداثي السوري سليمان العيسي حول تأثره بالفلاسفة والمفكرين الأوروبيين والفلاسفة المنتسبين للإسلام - في قضايا الشعر العربي المعاصر - دراسات وشهادات ص ٢٧٣ وراجع - كذلك - قول يوسف عز الدين في كتابه التجديد في الشعر الحديث - بواعثه النفسية وجذوره الفكرية ص ١٥ - ١٩ .

« لا تكاد ترى واحداً في المائة يحاول مجاراة العصر ، ونبذ القديم واقتباس الجديد ، وتقليد الشعراء العصريين من الأمم الأخرى ، والسبب في ذلك اقتصار شعرائنا على درس الشعر العربي ، وعدم الاحتفال بدرس الشعر الأجنبي ؛ إما لأنهم يجهلون اللغات الأجنبية ؛ أو لأنهم يزدرون الشعر الأجنبي ، ويحسبون أن إلهامات الشعر لا توحي به إلا إليهم ، وأن ما ينظمه الشعراء الأجانب نفاية وسفسفة ... » [١].

والشعر هو من أعظم الأبواب الذي دخلت عن طريقه الحداثة إلى العالم العربي ، عن طريق المجلات الفكرية الحداثية،كمجلة شعر والمقتطف ومواقف ، وغيرها .

وقد اهتم نجيب الحداد اهتماماً بالغاً بالرواية الشعرية ، وترجم لأمهات المسرحية الغربية من فرنسية وانكليزية ، مما جعله أسوة لكثير من الأدباء والمفكرين بعده [٢].

ويفتخر الحداثي المصري غالي شكري بدور الحضارة الغربية في زعزعة التراث على يد الثوار العرب ، ويقول :

« لقد اهتزت فكرة التراث اهتزازاً شديداً بفضل الفاعلية الحارة للمناهج الأوروبية في نقاد جيل الثورة ، أجل فقد كان الشق الآخر من القضية ، الواقع المعاصر يهتز هو الآخر تحت وطأة إرهاصات الثورة المصرية ، والثورات العربية المعاصرة لها ، وقد تحالف اهتزاز التراث مع اهتزاز الواقع الحضاري في خلق موجة جديدة أينعت ثمارها في النقد والشعر معا، ولم تكن (أبولو) إلا إحدى هذه الثمار» [٣].

---

(١) مجلة المقتطف يناير ١٩٠٢، ص ٢٤ .

(٢) انظر مجلة شعر ع ١٦ عام ١٩٦٠ ص ١١٥ – المقال بقلم غازي براكس .

(٣) شعرنا الحديث إلى أين ص ٢٠ .

ثم ينادي باستيراد نظريات النقد الأدبي ، ونظريات التربية والتعليم ، والفكر الفلسفي ، فيقول :

« كان علينا أن نستورد نظريات النقد الأدبي كما نستورد محطات الكهرباء ، كذلك كان علينا أن نستورد أحدث منجزات التكتيك الشعري كما نستورد نظريات التربية والتعليم والفكر الفلسفي والاقتصادي والسياسي والقانوني ، وليس الاستيراد في ذاته بعيب على أن يكون استيراد التفاعل» (١).

ثم يصف بعض التيارات الحداثية ، مبيناً أنها لا ترجع في رؤيتها الفكرية والفلسفية إلا إلى المصادر الغربية ، فيقول :

«إنهم يتصلون بالرؤيا الحديثة في الشعر بغير مواكبة لواقعهم الخاص ، وإنما بالانصهار في بوتقة الإنسان الحديث وحضارته المتبلورة في أوروبا ... ، فأقبلوا يحطمون الصياغة الخليلية ، قديمها وجديدها ، ويمزقون الارتباط العقائدي بالتراث ... ، من هنا كان إحساسهم العميق بضرورة تجاوز مرحلتنا الحضارية المتخلفة وتخطيها إلى أعتاب حضارة الإنسان في الغرب ، لذلك ارتبطوا مصيرياً بالتراث الغربي» (٢).

وهكذا هي الحداثة في العالم العربي تمزيق للارتباط العقائدي الإسلامي ، وتجاوز إلى أعتاب حضارة الإنسان في الغرب .

وكان من أوائل الحركات التي مهدت للحداثة في العالم العربي الحركة التجديدية ، التي قام بها شعراء المهجر ، والتي كان لها الأثر الواضح في انتشار الترجمات والثقافات الأوروبية ، وشيوع الاتجاه الرومانسي والرمزي في البلاد العربية (٣).

---

(١) المصدر السابق ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨ .

(٣) انظر: مجلة شعر ع ١٦ خريف ١٩٦٠م ص ١١٧ .

« ... ، فإن الحملة على القديم وأتباعه لم تنتظم إلا مع ظهور (الرابطة القلمية) عام ١٩٢٠م في أمريكا الشمالية ، و(العصبة الأندلسية) عام ١٩٢٣م في أمريكا الجنوبية ، فكانت الحملة بشكل عام ثورية جارفة في الأولى ، راغبة في قطع كل علاقة بين الحاضر والماضي ، وهادئة تدريجية في الثانية ، راغبة في الإبقاء على صلة بين القديم والجديد» [(١)].

وكان من أبرز أولئك الثائرين على القديم الشاعر النصراني جبران خليل جبران ، والنصراني ميخائيل نعيمة ، اللذان تمردا على مصادر المعرفة عند المسلمين ، واللغة العربية وقواعدها ، وعلى الأوزان والقوافي ، وما قرره سيبويه والأسود وابن عقيل والخليل بن أحمد وغيرهم [(٢)].

ومن أوائل من تأثر بالغرب وما عندهم أصحاب مدرسة (الديوان) ، لا سيما الشعراء المصريين الثلاثة ، عبدالرحمن شكري وإبراهيم المازني وعباس محمود العقاد ، على اختلاف بينهم في درجة التأثر .

« وقد كانت ثقافتهم جميعاً انكليزية ، تستمد الشعر الانكليزي الرومانسي ، الذي شاع في أوروبا في القرن التاسع عشر بعد الثورة الفرنسية» [(٣)].

لذا يقول عبدالعزيز النعماني :

« يعيش الشاعر العربي الحديث مناخاً معقداً لدى التقائه بالرؤى الأدبية الغربية في القرن التاسع عشر ، وكذلك في القرن العشرين ؛ إنه ليس اختلافاً حضارياً ، كما يتبادر للذهن ، كما أنه ليس اختلافاً في النوع ، ولكنه اختلاف في وجهة النظر ، واختلاف في درجة التطور الاجتماعي .

ويأتي ارتباط شاعرنا العربي بهذا التراث الغربي في الجانب

---

(١) الحداثة في الشعر العربي المعاصر – بيانها ومظاهرها ص ٣٠ .

(٢) انظر: مجلة شعر ع١٦ خريف ١٩٦٠م،ص ١١٦ ، ١١٨ .

(٣) فن الشعر بين التراث والحداثة ص ١٧٤ .

الإنساني العام ؛ لأنه ليس ثمة وحدة حضارية تربط بينه وبين شعراء غربي أوربا أو شرقها ، ومع هذا فقد أدى التواصل المعرفي بين ثقافتنا العربية والثقافات الوافدة إلى ظهور حركة نقدية طليعية في الشعر سبقت الشعر نفسه»[١].

ويبيّن النعماني مدى تأثر الشاعر العربي بألوان الفكر العالمي ، لا سيما الفكر الحداثي الثوري ، فيقول :

« لم يعد أمراً مستغرباً أن نجد الشعر العربي قد اصطبغ بألوان الفكر العالمي ، وافضى بينابيعه إلى تيارات سياسية وفلسفية ، يُتَحمَّسُ لها ، ويُدَافع عنها ، بل ويخاصم في سبيلها ، وباتت هذه التيارات تلهمه فكره وصوره انتماء لها ، ليس فحسب لزيادة تأثيرها وحدتها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، بل أيضاً لوجود تناقضات سياسية واجتماعية على خريطة الوطن العربي ، هذا إضافة إلى الدعوة العنيفة التي روّج لها بعض النقاد ...»[٢].

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٥، وانظر في هذه المسألة : الاغتراب في شعر بدر شاكر السياب ص ٤٨ – ٥١ فقد ضرب أمثلة لذلك .

النصارى العرب هم السبب الرئيس في استيراد الحداثة

مما لاشك فيه أن النصارى في العالم العربي هم من أوائل من استورد الحداثة الغربية باتجاهاتها المختلفة ، وقاموا بنشرها في البلاد العربية عن طريق ترجمة كتب الغربيين ومقالاتهم ونشرها في بعض الصحف العربية ، التي جندت نفسها لذلك الغرض .

ومن أشهر أولئك الأوائل ناصيف اليازجي وبطرس البستاني وأحمد فارس الشدياق ، الذين لعبوا دوراً هاماً تمثل في ترجمة الكتاب المقدس عندهم ، ثم اشتهر بعد ذلك المترجمون جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ، كما اشتهر أديب إسحق بترجمة كتاب (العقد الاجتماعي) لجان جاك رسو ، واشتهر سليمان البستاني بترجمة الإلياذة للشاعر اليوناني هوميروس

ولا ننسى دور خليل مطران وإلياس أبوشبكة وأمين الريحاني وغيرهم .[(١)]

يقول نذير العظمة ، وهو من كبار الحداثيين العرب :

« ... ، أضف إلى ذلك أن إلياس أبوشبكة ، كجبران خليل جبران وسعيد عقل ، استوحى التوراة ، وبحكم كونهم نصارى عربا كانوا يعتبرونه مصدراً من مصادر الأدب العالمي ، ولا يخفى أن ترجمة الكتاب المقدس جلعته في متناول الشاعر العربي المعاصر ، ووضعته موضعه في اطار التقاليد الأدبية الحديثة كرافد مهم من روافد الأدب الحديث ، يتجلى ذلك في نتاج بعض الشعراء اللبنانيين والسوريين ، فلم يقتصر سعيد عقل على الاستفادة من عنف الأسلوب التوراتي وحسيته كما فعل أبوشبكة ، أو من بعض أشكال التعبير وأنماط الاستعارة فيه شأن جبران ، بل تعدى ذلك

---

(١) سيأتي بيان لدور هؤلاء في الفصل الآتي لذا اختصرت الكلام عنهم هنا .

إلى استعارة بعض الموضوعات في أعماله الشعرية المبكرة ، كبنت يفتاح ومريم المجدلية .

أما بشارة الخوري الملقب بالأخطل الصغير فقد عرب الحركة الرومانسية وأضفى عليها هالة عربية ، كما أنه أسهم في تصفية القصيدة العربية الحديثة من رواسب الحركة الاتباعية ، وشأنه شأن مطران مهد لغلبة الرومانسية وفوزها على الحركة الاتباعية الحديثة في أدبنا المعاصر»[١].

وميخائيل نعيمة نفسه يعترف بالمصدر الغربي ، فيقول :

« ما تعود البعض أن يدعوه نهضة أدبية عندنا ليس سوى نفحة هبت على بعض شعرائنا وكتابنا من حدائق الآداب الغربية ...» [٢].

ثم يتحدث عن الأدباء في العالم العربي ، ويقول بأنهم :

«وصلوا إلى مرحلة كلما التمست لها وصفاً صادقاً تبادر في الحال إلى ذهني المثل العامي (عديم وقع على سل تين) ، فكان عسر الهضم نصيب الأكثرية الساحقة منهم ، فالحياة في آدابنا العربية لا تزال في جوهرها غريبة لا أصيلة ، فجذورها في تربة الغرب» [٣].

وجبران خليل جبران يقول لدعاة القديم :

« أقول لكم : إنه لا ينقضي هذا الجيل إلا ويقوم لكم من أبنائكم وأحفادكم جلادون» [٤].

ويصف جبران المتأثرين بالغرب الآخذين كل ما عنده بأنهم

---

(١) مدخل إلى الشعر العربي الحديث ص ٦٦، وانظر كتاب (إلياس أبوشبكة) ص ٤٣ – تأليف عبداللطيف شرارة .

(٢) الغربال ص ٢٩، والآباء والبنون ص ١١ .

(٣) الغربال الجديد ص ٢٢٨ .

(٤) الحداثة في النقد الأدبي المعاصر ص ٣٢ .

«تارة كعجوز فقد أضراسه ، وطوراً كطفل بدون أضراس»[١].

ويرى مارون عبود أن جبران : « مؤسس مدرستين في لغة الضاد ، الرومانسية والرمزية» [٢].

ويقول الحداثي السوري نذير العظمة :

« وجبران بالتالي هدم الحواجز بين الشاعر أو الكاتب العربي وبين التراث الغربي ، بحكم نشأته وتكوينه في قلب العالم الجديد ، فلم يستورد مذهباً أدبياً بعينه كالرمزيين مثلاً ، في الفكرة أو العبارة ، بل أدخل روحاً جديدة على الأدب العربي ، وعبر عن تمرد الإنسان الجديد وثورته» [٣].

ويرى عدنان الذهبي أن جبران خليل جبران « كان أول مبشر بفكرة التمذهب من جهة ، كما أنه كان بروحانية كتاباته وإيحاءات رسومه الرمزية أول مبشر بالمذهب الرمزي بالذات»[٤].

لذا فإن الحداثي أدونيس يَعدّ جبران واضع أسس الحداثة ، فعندما تحدث عن الحداثيين الأوائل ، والحداثة في عهدها الأول قال :

« كان جبران يحلم بما هو أبعد من الحلم ، بتغيير الحياة ، وكان في هذا بشارتنا الأولى من أرض الشعر» [٥].

ثم إن الرومانسية والرمزية التي اشتهرت عند شعراء المهجر ، والتي أخذوها عن الحداثيين الغربيين كان لها أثر واضح في نشأة الاتجاهات الحداثية في العالم العربي .

---

(١) المجموعة الكاملة العربية ص ٥٥٦ .

(٢) جدد وقدماء ص ٧٢ .

(٣) مدخل إلى الشعر العربي الحديث دراسة نقدية ص ١١٠ ، ١١١ .

(٤) مجلة الأديب كانون الثاني ١٩٤٨، ص ٢٣ .

(٥) مقدمة للشعر العربي ص ٨٤، وانظر قول غيره في : الحداثة في النقد الأدبي المعاصر ص ٥ ، ٩ .

جاء في مجلة (شعر) الحداثية اللبنانية :

« ولا ينكر أحد أن بواكير الرومانسية والرمزية ظهرت في نتاج شعراء المهجر ، فعرض الذات والعاطفة الجياشة ، ومسحة الكآبة والتشاؤم، وتمجيد الألم ، والالتجاء إلى الطبيعة ومشاركتها ، كلها موضوعات عرفها الشعر المهجري ، وهي موضوعات رومانسية ، ولعل جبران هو الذي مهد للرومانسية في الأدب العربي ، كما مهد للرمزية على حد سواء ، فكلفه بالصور التجريدية يمنحه نصيباً وافراً من خصائص الرمزية ، أما مظاهر الرمزية في أدبه فلا تحتاج إلى بيان» [١].

كذلك فإن (إلياس أبوشبكة) دعا إلى الرومانسية بعد أن قررها، في مقدمة كتابه (أفاعي الفردوس)[٢].

ويُعَدُّ سعيد عقل من أوائل من تلقف الحداثة ، لا سيما الاتجاه الرمزي ، فقد أبرزه في مقدمة مطولته (المجدلية) ، ووافق سعيد عقل في هذا الاتجاه مجموعة من معاصريه [٣].

يدعو سعيد عقل إلى الفكر الغربي ويشجع من سار على نهجه ، فيقول في سياق حديثه عن منهج توفيق صائغ :

« أجرأ الأقلام المشرقية هذا الفتى المضطرب توفيق صائغ ،... إنه يقوم بعمل عجب من عجم الفكر ، ومن إلباسه ثوباً فريداً ، وقد يكون لا يزال في خاطر الجرأة من باريس ، ولكن في عراقة ذوقها الأخاذ» [٤].

ويرى إلياس أبوشبكة ، وهو أحد الأوائل الذين ساهموا في نقل

---

(١) مجلة شعر ع١٦ ، ١٩٦٠، ص ١٢٦ .

(٢) انظر: أفاعي الفردوس ص ٥ .

(٣) انظر: الشعر العربي الحديث في لبنان ص ٢٢٤ .

(٤) كأس لخمر ص ٦٢ .

المذاهب الأدبية الفكرية الغربية إلى العالم العربي ، يرى أن الحركة الفكرية في الشرق أخذت تطورها من « فرنسا ، ثدي العالم» ؛وذلك لأنها « الفرن الذي يخبز فيه خبز الإنسانية الثقافي» [١].

ويقرر صلاح لبكي أن هناك عاملين أثرا في الحياة الفكرية في الشرق العربي : « أولهما عودة تلامذة مدرسة روما المارونية ، التي كانت قد أنشئت سنة ١٥٨٤م ؛ وثانيهما مجيء نابليون إلى مصر» [٢].

ويصرّح محمد علي شمس الدين بذكر المصدر الغربي للحداثة في العالم العربي ؛ ويقول :

« إن الحداثة في الشعر العربي ذات منابع خارجية ، أتت عبر ترجمات لشعراء أوروبيين أو أمريكيين ، وعبر احتكاك فكري وثقافي بهؤلاء الشعراء ، وإن رواد الشعر الحديث بمجملهم ، ودون استثناء تلقحوا بلقاح خارجي في إنشاء رؤاهم الجديدة ، ولغتهم الجديدة ، ومضامين وعلاقات قصائدهم الجديدة» [٣].

وكذلك يقرر يوسف غصوب أن بداية الحداثة في العالم العربي تعود إلى من تغذوا بثقافة أجنبية ، هذا ما ذكره عنه صلاح لبكي [٤].

يقول نذير العظمة :

« وقد استطاع أبوشبكة أن يجمع في شعره لاعقلانية (ادجار آلن بو) ووثنية (شارل بودلير) ، ويجد يوسف غصوب تماثلاً بين أفاعي الفردوس وأزهار الشرلبودلير ، معتبراً إياه القائد الروحي لأبي شبكة» [٥].

---

(١) روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة ص ٧ ، ٢٩ .

(٢) الأعمال الكاملة ،المجموعة النثرية ص ١٣٤ .

(٣) الكفاح العربي، بيروت ع ١٤٥، ص ٥٥ .

(٤) الأعمال الكاملة ،المجموعة الشعرية ص ١٦٥ .

(٥) مدخل إلى الشعر العربي الحديث ص ٦٥ .

إقرار الحداثيين العرب بمصدرهم الغربي

والحداثيون أنفسهم يؤكدون أن حداثتهم تعود إلى مصادر غربية، وأنها موقف من التراث العلمي ، يسعى إلى التوفيق بين الثقافات المختلفة ، يقول عبدالمجيد زراقط :

« في الوقت الذي أكد فيه الشعراء اللبنانيون أن النهضة والحداثة إنما تعودان معاً ، وفي النهاية إلى مصادر غربية ، أكدوا ضرورة تحديد طبيعة الصلة بالتراث العالمي ... .

ومارس شعراء تجمع (شعر) الإفادة على مستوى علمي ، وحاولوا أن يجعلوا من مجلة (شعر) ملتقى لمختلف وجوه النشاط الشعري ، ونافذة مطلة تتحقق فيها المشاركة الفعالة»[١].

ويتحدث أنطون مقدسي عن مدى تعلّق الحداثيين بمصدر حداثتهم الغربي قائلاً :

« إن الحداثة ليست ظاهرة عربية بالأصل ، فهي أتتنا ككافة التيارات الفكرية والأيديولوجية والأدبية والفنية ، وغيرها من العالم المصنّع ، ثم تأصلت تدريجياً ، وأنتجت على الخصوص في مجال الأدب مؤلفات غربية خالصة ، أو تكاد تكون خالصة ...»[٢].

ويؤكد عبدالعزيز النعماني أن أوروبا كانت نقطة انطلاق الحداثة الثورية ، مبيناً أنها مفهوم جديد يخالف المفاهيم السابقة ، موضحاً العلاقة القوية بين الأنواع الأدبية والمفاهيم الفكرية ، يؤكد ذلك فيقول عن الحداثة :

« إنها مفهوم جديد يغاير كل المفاهيم المتوارثة ، يؤثر على

---

(١) الحداثة في النقد الأدبي المعاصر ص ١٢١ .

(٢) مجلة مواقف ع ٣٥، ربيع ١٩٧٩م، ص ٣ .

مسار التقاليد الأدبية ، فيختلف تأثيره على الشعر الأوروبي مثلاً عن تأثيره على الشعر العربي ، لاختلاف التقاليد في البيئتين ، ومع ذلك فإن جوهر هذا المفهوم الجديد يظل الرباط العميق بين مختلف اتجاهات الشعر الحديث ؛ لأن المصدر الرئيس لكل هذه الاتجاهات هو الثورة الحضارية المعاصرة .

إن أوروبا كانت نقطة انطلاق هذه الثورة ...» [١].

وصدق الحداثي أدونيس حين قال معترفاً بمصادر الحداثة في العالم العربي :

« ... ، فإن الغرب اليوم يقيم في عمق أعماقنا ، فجميع ما نتداوله اليوم فكرياً وحياتياً يجيئنا من هذا الغرب ، أما فيما يتصل بالناحية الحياتية فليس عندنا ما نحسّن به حياتنا إلا ما نأخذه من الغرب .

وكما أننا نعيش بوسائل ابتكرها الغرب ؛ فإننا نفكر بلغة الغرب ، نظريات ، ومفهومات ، ومناهج تفكير ، ومذاهب أدبية ... الخ ، ابتكرها هي أيضاً الغرب ، الرأسمالية ، الاشتراكية ، الديمقراطية ، الجمهورية ، الليبرالية ، الحرية ، الماركسية ، الشيوعية ، القومية ... إلخ ، المنطلق ، الديالكتيك ، العقلانية ... إلخ ، الواقعية ، الرومنطيقية ، الرمزية ، السوريالية ... إلخ ، ... ، هذا من دون أن ندخل في ميدان العلوم وبخاصة العلوم البحته» [٢].

ويقول في موضع آخر :

« وأظن أن علينا أن نفيد في حركتنا الحديثة من جميع الاتجاهات الشعرية التي نشأت في أوروبا منذ الحرب العالمية الأولى وفي

---

(١) فن الشعر بين التراث والحداثة ص ٢٠٧ .

(٢) الثابت والمتحول ٣/٢٥٨ .

طليعتها السريالية» (١).

وخليل حاوي – وهو أحد المستوردين الأوائل للحداثة – يدعو الشاعر إلى اتخاذ المنهج الغربي في الثورة على القديم والمألوف ، فيقول :

« للشعر العربي أن يحاول ما حاوله الشعر الغربي دائماً ، وعلى الأخص في المائة سنة الأخيرة ، من تحطيم للأنماط القديمة ، والقوالب المألوفة ؛ لكي يتمكن من أن يتناول التجربة بعفوية وإخلاص» (٢).

كما ينادي زميله يوسف الخال بضرورة « الغوص إلى أعماق التراث الروحي العقلي الأوروبي والتفاعل معه ... ، والإفادة من التجارب الشعرية التي حققها أدباء العالم» (٣).

وهذا الحداثي المغربي محمد بنيس يتحدث عن المصدر الأوروبي للحداثة العربية ، فيقول :

« تظل الثورة الشعرية في أوروبا ، والكنوز الشعرية العربية القديمة مبعثاً لظهور تجربة المختبر في الكتابة الشعرية الحديثة ، لم يكن هذا سهلاً ، وهو أيضا غير مستقر ، فالعلاقة بالشعر الأوروبي منذ ادغار آلان بو ، وبودلير ، أفضت أحياناً إلى تقديس النموذج الغربي ، وتقديمه كمعيار لإعادة تصنيف السلالات الشعرية العربية القديمة ، فضلاً عما اندفعت فيه نصوص ، إن لم نقل ممارسات من صوغ النص في ضوء حقيقة النص الأوروبي» (٤).

ولما عدد الحداثي العراقي عبدالوهاب البياتي العوامل المساعدة

---

(١) مجلة شعر ع ١٩، عام ١٩٦١م، ص ١٢٢ .

(٢) المصدر السابق ع ٤ ، عام ١٩٥٧م، ص ١١٩ .

(٣) الحداثة في الشعر ص ٨٠ ،٨١، وانظر مجلة شعر ع ٢، عام ١٩٥٧م، ص ٩٩ .

(٤) حداثة السؤال – بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة ص ٧٦، وانظر ص ٢٠٨ .

له في تطوير إنتاجه ، ذكر منها ، كبار شعراء القرن العشرين في أوروبا ، من أمثال : اليوت ، وأودن ، وبول الوار ، ولويس أراجون ، والكسندر بلوك ، ومايكوفسكي ، والتركي ناظم حكمت ، الذي التقاه خلال منفاه الأول في أوروبا الإشتراكية فيما بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٨م ، ثم ذكر بعد ذلك لوركا ، ونيرودا [١].

ويقول الحداثي هشام شرابي :

« شاء أم أبى ، يستمد الفكر العربي الناقد مفاهيمه من التجربة الأوروبية للحداثة بمفهومها الشامل» [٢].

ويقول الحداثي المصري غالي شكري :

« علاقتنا مع المدارس النقدية الغربية هي علاقة تلمذة ، أكثر مما هي علاقة تأسيس» [٣].

ويقول الحداثي السعودي عبدالله الغذامي :

« قداستوردنا مصطلح الحداثة من الغرب ، وحاولنا صياغته صياغة عربية من خلال اجتهادات كثيرة ... ، وهي اجتهادات لا أضع عليها غباراً ، ولا أواجهها بأي اعتراض ، وإني معها لواحد من المجتهدين» [٤].

ويقول عبدالله أبو هيف :

« أدرك الأديب العربي في وقت مبكر معنى الغرب ، ولا سيما أوروبا بالنسبة إليه ، فكان الغرب هو موئل التجديد ، وكانت الصلة به هي محك التحديث أو الحداثة ... ، ولا يزال الأدباء يرهنون الحداثة والتحديث بالغرب» [٥].

---

(١) انظر: مجلة شعر ع ٣٧، ١٩٦٨، ص ٥٨ – ٧٢، وعبدالوهاب البياتي في أسبانيا ص ٩٢.

(٢) ندوة مواقف-الإسلام والحداثة ص ٣٦٨ وانظر ص ٣٦٩ .

(٣) برج بابل-النقد والحداثة الشريدة ص ٧٤ .

(٤) مجلة الناقد، آب/أغسطس ١٩٨٨، ص ١٣ .

(٥) الأدب العربي وتحديات الحداثة دراسة وشهادات ص ١٨ ، ١٩ .

وعلى اختلاف اتجاهات الحداثة ، ومذاهب المنتسبين إليها إلا أنهم يرجعون جميعاً – في حداثتهم إلى الفكر الغربي الحداثي ، هذا ما صرّح به الحداثي المغربي محمد بنيس ، بقوله :

« وحتى لا نتوه في المفارقات والمطابقات نثبت في الحداثة حداثات ، والمشترك بينها هو أرضية الغرب تقنية وفكراً وإبداعاً .

وهذا المشترك في الغرب هو ما يورطنا جماعياً فيها ، مهما تحكمت الخطابات التقليدية ، على الخصوص في تغيير المسار» [(١)].

ويقول وفيق خنسة :

« إن حداثة الشعر العربي كانت وليدة عاملين رئيسين :–

١– الاحتكاك المباشر بالغرب ، والاطلاع على منجزاته الحقوقية والفلسفية ، وبالتالي قراءة الأدب الأوروبي .

٢– مستوى وحاجات تطور المجتمع العربي ، وخاصة في مصر ولبنان ثم العراق» [(٢)].

وفي معرض حديثه عن الحداثة في الشعر العربي المعاصر وتأثرها بالفكر الغربي قال عبدالحميد جيدة :

« ... ، وبهذه العقلية الأوروبية الحديثة ، التي خلقت الثورة في الغرب تأثر الأدب العربي الحديث ، وخاض معركة ضد الجمود والتقليد ، وهو لا يزال يسعى إلى التجدد كل يوم للتأليف بين المتناقضات القائمة على الأرض العربية» [(٣)].

ويدعو الحداثي علي الحديدي إلى تقليد الأوروبيين ، ويرى أن

---

(١) مجلة الكرمل ع ١٢، عام ١٩٨٤، ص ٥٠ ، ٥٢ .

(٢) جدل الحداثة في الشعر ص ٣٥ .

(٣) الحداثة في الشعر العربي المعاصر بين التنظير والتطبيق ١/ ٣٥ .

على الشاعر أن « يصنع كما يصنعون ، وينظم في القوالب التي فيها ينظمون ، ويسلك الدروب التي سلكوها في الأغراض والموضوعات ، فيخرج من محيط الإقليمية العربية إلى مستوى الشاعر العالمي» [١].

ويعترف الحداثي المتعصب محمة النويهي بشدة تقليد الحداثيين لأمثالهم الأجانب فيقول :

« القارىء الذي يطالع شعر البياتي وعبدالصبور ويكون لديه إلمام بالشعر الانجليزي الحديث سيجد أمثلة عديدة من الصور والتخيالات التي استوحى فيها الشاعر العربي ذلك التراث الأجنبي ، بل سيجد عدداً من الأبيات مأخوذة بأكملها من ذلك التراث» [٢].

ثم يصرّح بإعجابه بمثقفي الغرب قائلاً :

« وليس شيء أجلب للسعادة إلى نفس الكاتب من أن يجد تفسيره مطابقاً للتفسير الذي رآه غيره من مثقفي الغرب المدربين على فهم الشعر وتعمق مغزاه» [٣].

ومع إعلانه إعجابه بالغرب يسخر من الأشكال الشعرية العربية ، فيقول :

« ترى ، ماذا كان (اليوت) يقول لو سمع أن في ركن من أركان المعمورة شكلاً شعرياً استمر عليه أهله ألفاً وأربعمائة من السنين ، ولا يزال الكثيرون يتشبثون به ؟! » [٤].

وانظر إلى سخرية الحداثي اليمني عبدالعزيز المقالح بقوله :

«كم نبشنا عن القوافي كتاباً فشكت جهلنا المبين السطور

---

(١) محمود سامي البارودي شاعر النهضة ص ٤٢٢ .

(٢) قضية الشعر الجديد ص ١٢٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٨٨، وانظر ص ٣٢٤ .

وخرجنا نسيل شعراً مقفى   رقصت روعة عليه الحمير»[1].

والاتجاه الرومانسي العربي يعود مصدره إلى الرومانسية الغربية ، ومن أشهر من قام بنقل ذلك والدعوة إليه المدرسة المهجرية بأمريكا، والتي نادت بالاهتمام بالطبيعة ، والتمرد على الحياة المدنية ، والثورة على العقائد والشرائع ، والموروثات القديمة ، وبرز في فكرهم النفور والتشاؤم والكآبة .

إن الرومانسية في الفكر العربي تعد تطبيقاً عملياً للرومانسية الغربية ، فقد برزت في العالم العربي دعوة إلى التحرر من الماضي ، والثورة على القديم ، والمناداة بالتجديد والتحديث ، واشتهر ذلك في تقليد الغربيين في شعرهم وأدبهم المتضمن لأفكارهم [2].

يؤكد عباس محمود العقاد أثر المصادر الأجنبية في فكر بعض الأجيال الأدبية ، فيقول :

« الجيل الناشيء بعد شوقي كان وليد مدرسة لا شبه بينها وبين من سبقها في تاريخ الأدب العربي الحديث ، فهي مدرسة أوغلت في القراءة الانكليزية ، ولم تقتصر قراءتها على أطراف الأدب الفرنسي كما يغلب على أدباء الشرق الناشئين في أواخر القرن الغابر ، وهي على إيغالها في قراءة الأدباء والشعراء الانكليز لم تنس الألمان والطليان والروس والأسبان واليونان واللاتين الأقدمين» [3].

لذا قال محمد مصطفى هدارة – وهو من أهل الاختصاص والدراية – :

« ولا زلت أؤكد أن ما يسمى بالحداثة العربية وهم ليس فيه أدنى قدر من الحقيقة ، فهي حداثة غربية مصطلحاً ومفهوماً ، فكراً وأبعاداً،

---

(١) الأعمال الكاملة ص ٤١٢ .

(٢) انظر: تطور الشعر العربي الحديث في العراق ص ١٠ .

(٣) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ١٩٢ .

ووسائل وأهدافاً ، وهي تقوم على الفوضى واللاوعي واللاعقل ، وتغرق في كوابيس الأحلام والتخيلات المريضة ...» [١].

وقد تأثر الحداثي العراقي بدر شاكر السياب بالحداثة الغربية ، وبالاتجاه الرومانسي الغربي ، يقول حيدر توفيق بيضون :

« وتأثر بدر بالرومانسية انسحب حتى في ظل مراحل النضوج على لغته الشعرية الخاصة ، وثمة قصائد كثيرة نلمحها في ديوانيه الأولين مذيلة بإهداء السياب إلى روح الشاعر الرومانسي الانكليزي وردزورث ، وثمة قصائد أخرى مستوحاة من أفكار الشاعر الرومانسي الانكليزي (شيلي) كما في قصيدته «اتبعيني» [٢] ... ، وتعتبر تنويعاً على قصيدة شيلي «اتبعيني ... اتبعيني» ....

وكانت قراءاته أيضاً للشاعر الفرنسي (بودلير) في مجموعته (أزهار الشر) تندرج ضمن إطار إعجابه في تلك الفترة بالطابع الحسي ؛ لذلك وانطلاقاً من هذا التأثر قرر السياب أن يطلق العنان لنفسه ... ، فسجل بعض تجاربه الخاصة مع البغايا اللواتي كان يزورهن في مبغى بغداد ، وكتب مطولته (الروح والجسد) ...» [٣].

ثم قال عن تأثره بالآداب الأجنبية :

« اطلع على الآداب الأجنبية والانكليزية خاصة ، خلال دراسته في دار المعليمن العالية في بغداد ، التي تخرج منها سنة ١٩٤٨ ، وتأثره بشعراء الأدب الانكليزي ، فهو مثلاً في « ذكرى لقاء» يترجم مقطعاً لكيتس ،

---

(١) الاتجاهات الفكرية في العالم العربي وأثرها على الإبداع ص ٢٢ .

(٢) انظر: ديوان بدر شاكر السياب ٣٨/١ .

(٣) بدر شاكر السياب – رائد الشعر العربي الحديث ص ٤٣ – ٤٥ .

مشيراً إلى ذلك في الهامش ،[١]...»[٢].

ويقول السياب :

« ... ، فدرست شكسبير ، وملتون ، والشعراء الفيكتوريين ، ثم الرومانتيكيين ، وفي سنتي الأخيرتين في دار المعلمين العالية تعرفت لأول مرة بالشاعر الانجليزي ت . س . اليوت ، وكان إعجابي بالشاعر الانجليزي جون كيتس لا يقل عن إعجابي باليوت»[٣].

وعلى الرغم من وجود من تزعم بعض الاتجاهات الحداثية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إلا أن « مجال الإبداع الشخصي في هذه النظريات ظل ضعيفاً محدوداً ؛ إذ ظهر فيها النقل ، وغلب عليها الاقتباس ، وزد على ذلك أن الذين بحثوا فيها فيما بعد تأثروا كثيراً بالنظريات الغربية ...»[٤].

والباحثون في هذا المجال يؤكدون أن الحداثة غربية الأصل بجميع أشكالها ، يقول محمد العبد حمود :

« كان من الطبيعي أن تنتقل مشكلة الحداثة بسرعة من الغرب إلى الشرق حاملة معها العديد من الإشكالات»[٥].

ويؤكد الحداثي غالي شكري ذلك في معرض حديثه عن مفهوم الحداثة في الشعر العربي الحديث ، فيقول : « لا شك أن الثقافات الأجنبية ، ومدارس الشعر الغربي ، والبيئات الحضارية الجديدة كانت جميعها من

---

(١) انظر: ديوان بدر شاكر السياب ٨٤/١ .

(٢) بدر شاكر السياب – رائد الشعر العربي الحديث ص ٤٥ وانظر ص ٧١، ٧٢ ، ٧٧ .

(٣) بدر شاكر السياب – دراسة في حياته وشعره ص ١٢٣ .

(٤) الحداثة في الشعر العربي المعاصر – بيانها ومظاهرها ص ٤١ ، ٤٢ .

(٥) المصدر السابق ص ٤٩، وانظر ص ٤٢ .

عوامل التجديد ، ولكنا نلاحظ أن حركات التجديد في جميع المراحل السابقة على حركة الشعر الحديث قد حافظت على جوهر الشعر العربي ، بينما نلاحظ في نفس الوقت أن الحركة الحديثه تقوم أساساً على رفض هذا الجوهر ، فلا يقتصر التجديد فيها على استخدام الأسطورة أو الرمز أو لغة الحديث اليومي أو المشكلات الميتافيريقية ، ولكنها غيرت بالفعل في الاتجاه العام للشعر العربي ، وانعطفت به وجهة أخرى، هي بلا ريب وجهة الشعر الغربي الحديث ... .

حركات التجديد السابقة كان الاختلاف بينها وبين التراث اختلافاً درجياً إلى حد كبير ، أما الحركة الحديثة فإن تمردها وتحررها هو اختلاف كيفي إلى حد كبير أيضاً ، بل إن الفرق بين الحركة الحديثة وبين حركات التجديد السابقة نفسها - لا بينها وبين التراث فحسب - هو اختلاف جذري» [(١)].

ويؤكد في غير هذا الموضع أن مصدر الحداثة في العالم العربي هو الحداثة الغربية ، وأن الحداثيين العرب : « استمدوا من أوروبا مباشرة ما يحتاجون إليه» وأنهم أخذوا « من أوروبا أقصى ما وصلت إليه الحضارة» ، وأنهم يمثلون أدوار الحداثيين الغربيين ، وأن التراث هو الذي سبب البلبلة عند مولد الحداثة» [(٢)].

ومن المعلوم أن أدونيس من أشهر الحداثيين العرب ، ومن أوائل من دعا إلى الحداثة العربية ، نجده كذلك يدعو إلى تبني الحداثة الغربية؛ مستدلاً على مشروعية ذلك بالحداثيين الغربيين أنفسهم ، وكيف أنهم أفادوا من حداثة غيرهم في دول أخرى ، يقول أدونيس :

---

(١) شعرنا الحديث إلى أين ص ١١٢ .

(٢) انظر: المصدر السابق ص ١١٣ ، ١١٤ .

« إن (بودلير) و(مالارمية) لم يأخذا مفهوم الحداثة من التراث الفرنسي ، وإنما أخذاه من الولايات المتحدة من (ادغار الن بو) ، وأكثر من ذلك أن مدار آرائهما في الشعر هو نفسه مدار آرائه ، حتى أنهما يتبنيان أفكاره نفسه ... ، كذلك (أليوت) لم يأخذ مفهوم الحداثة من التراث الانكليزي ، وإنما أخذه من (بودلير) و(لافورغ) و(كوربيير) ...» [١].

وبغض النظر عن صحة قوله هذا أو عدمها ، فإن الشاهد منه استدلاله على مشروعية تقليد الحداثة الغربية واستيرادها ، وهذا قد لا يستغرب من باطني تساوى عنده الإسلام مع التراث الغربي ، بل إنه قدم هذا الأخير على الإسلام .

ثم يزعم أدونيس أن سبب رفض بعض العرب للحداثة هو أن أولئك العرب لم يصلوا إلى درجة الحداثة العلمية الثورية ، ولو وصلو إليها وتأثروا بها وأصبحوا ثواراً لما رفضوا الحداثة ، واتهموها بهدم التراث والتنكر له ، فالمشكلة عنده هي أن حداثة الشعر في المجتمع العربي متقدمة على الحداثة العلمية الثورية [٢].

ولهذا نجد أن الحداثيين العرب ليس معهم ما يتمسكون به في ثورتهم وتمردهم إلا ما جاء عن الغرب من نظريات فلسفية ، وأفكار ثورية ، فإذا أرادوا توجيه نقدهم ، وإظهار تمردهم كان مصدرهم في ذلك المخزون الفكري الغربي .

يقول محمد العبدحمود عن دعاة الحداثة :

« فقد لجأ هؤلاء إلى المخزون الفكري الغربي ، سواء كان ذلك من خلال المراجع الأجنبية ، أو من خلال الكتب المترجمة ، أو المقالات

---

(١) فاتحة لنهايات القرن ص ٣٢٠ .

(٢) انظر:المصدر السابق ص ٣٢٢،وانظر مجلة شعر ع ٤٢،صيف ١٩٦٩م، ص ٧٠ ، ٧١ .

المنشورة على صفحات المجلات أو الجرائد ...»[1].

ويعتمد إنتاج كثير من الحداثيين العرب على الرمزية والغموض ، ومعظم آرائهم في هذا المجال مقتبس عن الحداثة الغربية ، بل قد نجد توافقاً ملفتاً للنظر ، حتى في بعض المظاهر التاريخية المحضة ، فقد انتشرت الرمزية في الولايات المتحدة بفضل مجلة (شعر) الغربية ، التي أسسها هاريت مونرو عام ١٩١٢م[2].

وكذلك كان الحال في لبنان في مطلع الخمسينات مع ظهور مجلة (شعر) العربية ، وسطوح نجم شعراء من أمثال أدونيس،ويوسف الخال وخليل الحاوي ، ونذير العظمة ، وغيرهم في لبنان ، والسياب،والبياتي،وبلند الحيدري،وسعدي يوسف،وغيرهم في العراق[3].

لقد كانت آراء هؤلاء الحداثيين متطابقة مع كبار الحداثيين في الغرب ، وكان كل همهم أن يبدعوا شعراً عربياً يتطابق مع شعر كبار هذا المذهب في الغرب ، ولا بأس أن نورد هنا ما عرف عن خليل حاوي من أنه كان يستمع إلى تسجيل لقصائد أليوت قبل أن يباشر بنفسه عملية الإبداع الأدبي»[4].

وكذلك توافقوا في التنظير ، وقلدوهم في التعبير ، يقول الحداثي المصري عزالدين إسماعيل :

«توافق شعراء الحداثة مع الغربيين في التنظير ،فكان من نتيجة ذلك السعي للتوافق في التعبير ، هكذا نفهم كيف أصبح الإكثار من استخدام الرمز والأسطورة من أبرز الظواهر الفنية التي تلفت النظر في

---

(١) الحداثة في الشعر العربي المعاصر– بيانها ومظاهرها ص ٩٢.

(٢) انظر: الأدب الرمزي ص ٨٧ .

(٣) انظر: الرمزية والسريالية في الشعر الغربي والعربي ص ١٧٩ .

(٤) الحداثة في الشعر العربي المعاصر – بيانها ومظاهرها ص ١٢٠ .

تجربة الشعر الجديدة»[١].

وكانت حداثة الحداثي الانكليزي ت.س.أليوت من أعظم المصادر للحداثة العربية ، وهذا ما قرره كثير من أهل الاختصاص في هذا المجال»[٢].

يقول أحمد كمال زكي عن أثر أليوت :

« يكفي أن يقال إنه أفسد شعراءنا العرب وغير العرب المحدثين، لنعرف كيف امتدت يده إلى شعر القرن العشرين كله ...»[٣].

ثم يتحدث عن أثر قصيدة (الأرض الخراب) لأليوت ، فيقول :

« ولقد نبهت هذه القصيدة شعراءنا إلى نتاج أليوت كله ، فتأثر بها صلاح عبدالصبور تأثراً قوياً ، كما تأثر به خليل حاوي والبياتي وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعلى أحمد سعيد ويوسف الخال ، حيث استقوا منه بصورة مباشرة أحياناً ، ومما استقى منه هو أحياناً أخرى ؛ إذ لا يكفي الوقوف على القديم ثم عرضه في إطاره الأول ؛ لأن الشاعر الحقيقي هو الذي يستطيع استغلال الماضي في إبداع شيء لم يسبق إليه»[٤].

---

(١) الشعر العربي المعاصر ص ١٩٥ .

(٢) انظر الأساطير ص ٧٨ ، ٩٤ ، ٩٥ ، وبدر شاكر السياب رائد الشعر العربي الحديث ص ٧١ ، ٩٦ ، والشعر العربي المعاصر ص ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٣٠ ، والأدب العربي المعاصر – أعمال مؤتمر روما ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، وشعرنا الحديث إلى أين ص ١١٤ .

(٣) الأساطير ص ٨٧ .

(٤) المصدر السابق ص ٩٤ ، ٩٥ .

استعمال المصطلحات والمفاهيم النصرانية

ويتضح الأثر النصراني على بعض الحداثيين العرب بكثرة استعمالهم للألفاظ النصرانية كالصلب ، والفداء ، والخطيئة والتكفير ، وغيرها ، مع انتسابهم للإسلام[١] ، بل إن بعضهم يوافق النصارى حتى في المعتقد الصليبي الباطل .

اقرأ (إبداع)! من ينتسب إلي الإسلام من المبدعين العرب ، وهو محمد الماغوط حيث يقول :

« أشتهي أن أكون صفصافة خضراء قرب الكنيسة
أو صليباً من الذهب على صدر عذراء
تقلي السمك لحبيبها العائد من المقهى ...» [٢] .

وهذا عبدالوهاب البياتي ، الحداثي العراقي ، يغني للشعب المسلم الذي قاتل حملة الصليب في الجزائر ، فيقول :

« أقسمت يا جزائري الحبيبة
أن أحمل الصليب
وأن أطأ اللهيب»[٣] .

ويقول الحداثي السوري على أحمد سعيد (أدونيس) :

« صارت لي الكؤوس والأكمام
وسادة ... حلماً على الوسادة
من زمن الولادة .

---

(١) انظر : التجديد في الشعر الحديث – بواعثه النفسية وجذوره الفكرية ص ٢٦٢.

(٢) الآثار الكاملة ص ٢٦ .

(٣) ديوان عبدالوهاب البياتي ٥٠٧/١ .

في غابة الرضاع والعظام
أنقل أجراساً في الليل إلى كنيسة النهار
النّسغ قداس بين الطلع والثمار
والورق والعمادة»[١] .
ويقول محمود درويش :
« المغني ، على طريق المدينة
ساحرُ اللحن .. كالسهر
قال للريح في ضجرْ :
– دمّريني ما دمت أنتِ حياتي
مثلما يدعي القدر –
.. واشربيني نَخب انتصار الرفاتِ
هكذا ينزل المطر
يا شفاه المدينة الملعونة !
أبعدُوا عنه سامعيهْ
والسكارى .....
المغني على صليب الألمْ
جرحُه ساطع كنجم
قال للناس حوله
كلّ شيء .. سوى الندم :
هكذا متُّ واقفاً
واقفاً متُّ كالشجر !
هكذا يصبح الصليبْ

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ١/٤٣٨ .

منبراً .. أو عصا نغمم

ومساميره .. وتر !

هكذا ينزل المطر

هكذا يكبر الشجر ..»[١] .

ويقول صلاح عبدالصبور :

« أنا مصلوب والحب صليبي

وحملتُ عن الناس الأحزان

في حب إله مكذوب»[٢] .

ويقول الحداثي اليمني عبدالعزيز المقالح :

« نفاني وروحدني – في الجموع – الألم

سئمت السأم

حملت الصليب على كاهل مثقل بالندم...

وقفت أعانق حتفي

أواصل رحلة عمري بلا هدف أو قرار...

حياتي هبا»[٣]! .

وتأمل قوله الخطير :

« لو لم يمت على صليبه المسيح

لو لم تزين هامة البطل

أيقونة العُلَيق

ما عرفت روما قداسة الحريق

---

(١) ديوان محمود درويش ص ٨٦ – ٨٨ .

(٢) ديوان صلاح عبدالصبور ١/١٢٤ .

(٣) ديوان عبدالعزيز المقالح ص ١١٥، ١١٦ .

ولا مشينا خلفه حيث رحل
ولم تسر تلك الحشود في ركابه
ولم تقف حزينة جموعنا ببابه
تطلب أن يبقى مكانه
وأن يظل»[١] .

ويقول حسين أحمد حيدر :
« إنني أتساءل أيها الأحبة
ما قيمة مسيح بلا خشبة صلبه ؟...
وما قيمة الحسين بلا كربلائه ؟»[٢] .

وفي موضع آخر أكد أن الحب عندهم جميعاً هو « امتلاك وقهر وعبودية»[٣].

ويقـول :« ... ، يطل علينا دم المصلوب الأول ..صليل الحزن ... ، يذكرنا بصليل المسمار في كف المسيح .. ، فعملية الصلب منذ كان المسيح، ومن قبله .. وما زالت حتى يومنا هذا»[٤] .

ويقول – أيضاً – :

« فالمبدعون هم أعداء البشرية .. ، فالفنان المبدع ، والشاعر المبدع ، وكذلك الفيلسوف المبدع ، هم جميعاً أعداء البشرية ... .

وإذ يحترق المبدعون لينيروا عقول الناس تأبى هذه البشرية المتردية إلا أن تصليهم على أعواد مشانقها ، أو توقد المبدعين بنارها اللاهبة البليدة .. كما صلبت المسيح ... ، وقتلت الحسين ، وغيرهم من بناة التاريخ .

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٨ .

(٢) تحديث وتغريب ص ٢١ .

(٣) انظر : المصدر السابق ص ٥٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

منبراً .. أو عصا نغمم

ومساميره .. وتر !

هكذا ينزل المطر

هكذا يكبر الشجر ..»[1] .

ويقول صلاح عبدالصبور :

« أنا مصلوب والحب صليبي

وحملتُ عن الناس الأحزان

في حب إله مكذوب»[2] .

ويقول الحداثي اليمني عبدالعزيز المقالح :

« نفاني ووحدني - في الجموع - الألم

سئمت السأم

حملت الصليب على كاهل مثقل بالندم...

وقفت أعانق حتفي

أواصل رحلة عمري بلا هدف أو قرار...

حياتي هبا»[3]! .

وتأمل قوله الخطير :

« لو لم يمت على صليبه المسيح

لو لم تزين هامة البطل

أيقونة العُلّيق

ما عرفت روما قداسة الحريق

---

(١) ديوان محمود درويش ص ٨٦ - ٨٨ .

(٢) ديوان صلاح عبدالصبور ١/١٢٤ .

(٣) ديوان عبدالعزيز المقالح ص ١١٥، ١١٦ .

ولا مشينا خلفه حيث رحل
ولم تسر تلك الحشود في ركابه
ولم تقف حزينة جموعنا ببابه
تطلب أن يبقى مكانه
وأن يظل»[1] .

ويقول حسين أحمد حيدر :

« إنني أتساءل أيها الأحبة
ما قيمة مسيح بلا خشبة صلبه ؟...
وما قيمة الحسين بلا كربلائه ؟»[2] .

وفي موضع آخر أكد أن الحب عندهم جميعاً هو « امتلاك وقهر وعبودية»[3] .

ويقول :« ... ، يطل علينا دم المصلوب الأول ..صليل الحزن ... ، يذكرنا بصليل المسمار في كف المسيح .. ، فعملية الصلب منذ كان المسيح، ومن قبله .. وما زالت حتى يومنا هذا»[4] .

ويقول – أيضاً – :

« فالمبدعون هم أعداء البشرية .. ، فالفنان المبدع ، والشاعر المبدع ، وكذلك الفيلسوف المبدع ، هم جميعاً أعداء البشرية ... .

وإذ يحترق المبدعون لينيروا عقول الناس تأبى هذه البشرية المتردية إلا أن تصلبهم على أعواد مشانقها ، أو توقد المبدعين بنارها اللاهبه البليدة ..

كما صلبت المسيح ... ، وقتلت الحسين ، وغيرهم من بناة التاريخ .

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٨ .

(٢) تحديث وتغريب ص ٢١ .

(٣) انظر : المصدر السابق ص ٥٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

ولكن بعدما تكتشف البشرية حقيقة المبدعين والنوابغ تأبى إلا أن ترفع تماثيلهم وصورهم ... ، ويأبى الناس إلا أن يركعوا عند صخرة أقدام المنقذين النوابغ ، ليغسلوها بدموع التوبة ، وآهات الندم .. وهكذا يرتفع المسيح فاديا أعظم ...»[١] .

وللحداثي العراقي بدر شاكر السيّاب قصيدة بعنوان (المسيح بعد الصلب) ، ومما جاء فيها :

« بعدما أنزلوني سمعت الرياح

في نواح طويل تسف النخيل ...

والصليب الذي سمروني عليه طوال الأصيل ...

متّ كي يؤكل الخبز باسمي ، لكي يزرعوني مع الموسم ...

ألقيتُ الصخر على صدري

أوَ ما صلبوني أمس ؟ ... فها أنا في قبري ...»[٢] .

ولقد أحب السيّاب امرأة نصرانية كاثوليكية يقال لها (اديت سيتويل) ، فقلدها في شعرها ، وحتى في ألفاظها النصرانية .

يقول الناقد العراقي يوسف عزالدين في معرض نقده للسيّاب :

« وقد وجد مسرباً آخر من مسارب التّنفيس عن الحرمان الجنسي ، وإرواء الظمأ الروحي ، الذي لم يجده في حياته الواقعية ، عندما انصرف إلى رقة شعر (سيتويل) يدرسه ويقلده ، وهو يحس بحنان المرأة ... ، قلدها بدر تقليداً ملك عليه لبه ، واستولى على مشاعره وجوارحه ، ووجد في شعرها تعبيرا عن رغبات نفسه العطشى ....

---

(١) نفسه ص ١٤٠ ، ١٤١ .

(٢) ديوان بدر شاكر السيّاب ١/٤٥٧ – ٤٦٢، وهي قصيدة طويلة ومليئة بالألفاظ النصرانية وانظر : ص ٤٢٣ و ٤٦٠ ، ٢٣٠، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٣٦٩ .

وكان من جراء هذا الانغماس والإعجاب أن تسربت إلى شعره الرموز المسيحية ، والأساطير التوراتية ، كالصلب والقتل والتعذيب والآلام والمخلص ، كما ورد اليعاز الاسخر بوطي ، إلى جانب الناقوس ، والكنيسة ، وتعليق المسيح بالمسامير ، ونزول دمه ، ووضع الشوك على رأسه سخرية ، بدلا من التاج الذي ظن الحالم أنه يطمع به .

إن شعراء الغرب متأثرون بالإنجيل والتوراة ، ولا تختلف الشاعرة (اديت سيتويل) عن غيرها من شعراء الغرب ، إن الرموز المسيحية التي وظفها الشاعر هي تعنق لا شعوري بالشاعرة ، حبا بالأنثى ، إن الشاعرة امرأة كاثوليكية شديدة التعلق بالمسيحية»[1] .

واقرأ قول الحداثي المصري أحمد عبدالمعطي حجازي ، حيث يقول :

« كان المريض راقداً

يبكي على الصليب

حين أطل رأس غصن

من حديد النافذه ثم انفلت ...»[2] .

وحداثي مصري آخر ، هو صلاح عبدالصبور له قصيدة بعنوان (الظل والصليب) ، ومما جاء فيها :

« هذا زمان السأم

نفخ الأراجيل سأم

دبيب فخذ امرأة ما بين إليتي رجل ... { كذا}

أنا الذي أحيا بلا ظلٍ ... بلا صليب ...

---

(١) التجديد في الشعر الحديث – بواعثه النفسية وجذوره الفكرية ص ١٧٠ – ١٧٢.

(٢) ديوان مدينة بلا قلب قصيدة (ليس لنا) ص ٣٧ ، والأعمال الكاملة للشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي ص ١١٧ – ١١٨ .

ومن يعش بظله يمشي إلى الصليب ، في نهاية الطريق...
تصلبُني ياشجر الصفصاف لو فكرّتْ
تصلبني يا شجر الصفصاف لو ذكرت
تصلبني يا شجر الصفصاف لو حَمَلْتُ ظلِّي فوق كتفي ،
وانطلقت ...»[١].

ويقول حسين أحمد حيدر :

« وفي نظرية (الفن للفن) يستوي ممزق ستر المرأة ، بغاسل خشبة الصليب بالدمع ، سواء بسواء ، ففي مضمار التقييم الفني يستوي ، الشعر الغزلي بالشعر الوطني بشعر الرثاء»[٢] .

والبياتي أهدى ديوانه بهذه الصياغة :

« الإهداء
إلى زوجتي ..
التي حملَتْ معي
صليب الألم
من منفى
إلى منفى»[٣] .

ويقول في ديوانه :

« لكنني المغلوب
فوق صليبِ كلماتي أبداً مصلوب»[٤] .

---

(١) ديوان صلاح عبدالصبور ١/١٤٨ – ١٥٠، والقصيدة طويلة وفيها قدح بالذات الإلهية والقرآن انظر:ص ١٥١، وتغنيه بالصليب في موضع آخر ص ١٢٤.

(٢) تحديث وتغريب ص ١١٤ ، وانظر : ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٤١ .

(٣) ديوان عبدالوهاب البياتي ١/٥ .

(٤) المصدر السابق ص ٧٢ .

وتقول الحداثية الكويتية سعاد الصباح :

« فإن جرّحوني فأجمل ما في الوجود غزال جريح

وإن صلبوني فشكراً لهم

لقد جعلوني بصف المسيح»[١] !! .

---

(١) مجلة مزون ع ١٨، يوليو / أغسطس ١٩٩٣م، ص ٥٩ .

اعتزازهم بالتتلمذ على اليهود والنصارى

ومن العجب أن يفتخر أحد النقاد العرب بأن الحداثيين لجأوا إلى الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى ، لأنها كانت «مصدر استلهام فني في الشعر الأوروبي»[١] .

ويسخر ناقد آخر ممن يكتب في أدبه عن الرسول - ﷺ - ، ويعلل فعل ذلك برصولنا إلى درجة التزمت [٢] .

ويقول غالي شكري :

« وعندما أقول الشعراء الجدد ، وأذكر مفهوم الحداثة عندهم... إنما أتمثل كبار شعراء الحركة الحديثة من أمثال أدونيس ، وبدر شاكر السياب ، وصلاح عبدالصبور ، وعبدالوهاب البياتي ، وخليل حاوي .

عند هؤلاء سوف نعثر على أليوت ، وعزراباوند ، وربما على رواسب من رامبو ، وفاليري ، وربما على ملامح من أحدث شعراء العصر في أوروبا وأمريكا ...»[٣] .

وأليوت هذا نصراني متعصب ، وعزراباوند يهودي صهيوني ، كان من أكبر الضالعين في الدعوة إلى الكيان الصهيوني في فلسطين [٤] .

وألف الحداثي فؤاد رفقة كتاباً ، فملأه بأقوال جماعة من الغربيين من أمثال : نيتشه ، هايدغر ، ريلكه ، هلدرلن ، باشيلار ، وغيرهم ، واستشهد بكلامهم باللغتين ، العربية والانكليزية ، وتبنى ما قالوه بالشرح والتوضيح [٥] .

---

(١) الأسطورة في الشعر العربي الحديث ص ١٤٤، ١٤٥ .

(٢) محمد مندور وتنظير النقد العربي ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٣) شعرنا الحديث إلى أين ١١٤ .

(٤) انظر : الحداثة في الشعر المعاصر ٣٥ .

(٥) انظر : كتابه الشعر والموت ،لا سيما ص ٢٣ .

ويقول أدونيس عن أحد كتبه :

« ... ، وعليّ أن أشير أخيراً إلى أن هذه الدراسة تستقي كثيراً من الدراسات التي كتبت عن الحداثة في أوروبا»[١] .

ويقول عن نفسه معترفاً :

« أحبّ هنا أن أعترف بأنني كنت بين من أخذوا بثقافة الغرب... ، أحب أن أعترف ، أيضاً ، أنني لم أتعرف على الحداثة الشعرية العربية من داخل النظام الثقافي العربي السائد ، وأجهزته المعرفية ، فقراءة بودلير هي التي غيّرت معرفتي بأبي نواس ... ، وقراءة مالارميه هي التي أوضحت لي أسرار اللغة الشعرية وأبعادها الحديثة عند أبي تمام ، وقراءة رامبو ، ونرفال ، وبريتون هي التي قادتني إلى اكتشاف التجربة الصوفية بفرادتها وبهائها ، وقراءة النقد الفرنسي الحديث هي التي دلتني على حداثة النظر النقدي عند الجرجاني ... ، ولست أجد أية مفارقة في قولي إن حداثة الغرب المتأخرة هي التي جعلتني أكتشف حداثتنا العربية المتقدمة ...»[٢] .

ويقول عن غيره من الحداثيين والشعراء العرب :

« نشأ الشعراء والنقاد والأدباء والمفكرون منذ الخمسينات بين تقليدين ثقافيين : تقليد للذات القديمة ، الأصولية ، وتقليد للآخر الحديث ، الأوروبي – الأمريكي»[٣] .

وانظر إلى المصدر الغربي اليهودي للحداثة في العالم العربي ،

---

(١) زمن الشعر ص ٨، وانظر : قول الحداثي يوسف سامي اليوسف في وصفه لحداثة أدونيس بأنها أمريكية في قضايا الشعر العربي المعاصر دراسات وشهادات ص ٨١ .

(٢) الشعرية العربية ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٨٦ .

عندما يمتدح أحد الحداثيين العرب الفيلسوف اليهودي فرويد ونظريته النفسية الجنسية ، ويأسف لتقصير الفكر العربي عن تبنيها فيتساءل ويقول: « بالنسبة للفرويدية ، لماذا لا نجدها حاضرة في الفكر العربي الحديث والمعاصر ... ؟ مع الأسف ... ، فالفرويدية ليست لا عقلانية بالمعنى المطلق ، كلا ، ... ، أما فكر لا عقلاني كفكرنا فهو دون مستوى استيعاب الفرويدية ، ولاحتى فهمها ، أي الفرويدية كنتاج فكري مبني على فروض ، الفرويدية كبناء نظري هي بناء عقلاني ... ، وبدون عقلانية متينه لا أعتقد أن بمستطاع الإنسان أن ينتقد فرويد أو يكتشف الجوانب اللاعقلانية فيه ، أو أن يصفه بأنه لا عقلاني ... ، الفرويدية لنا هي هتك لمحظورات كرستها التقاليد ، وهذا جانب عقلاني فيها»[1] .

ويصرح الحداثي المصري صلاح عبدالصبور بأن النظريات اليهودية والفلسفات الغربية أخرجته من تدينه وصلاته وركوعه وسجوده إلى الإنكار ، بغض النظر عن مصداقية وصحة تدينه قبل ذلك .

يقول في ديوانه :

« كنت في صباي الأول متديناً أعمق التدين ، حتى أنني أذكر ذات مرة أني أخذت أصلي ليلة كاملة ، طمعاً في أن أصل إلى المرتبة التي تحدث عنها بعض الصالحين ، حين تخلو قلوبهم من كل شيء إلا ذكر الله... ، وما زلت أصلي حتى كدت أن أتهالك إعياءً ، ودفع بي الإعياء والتركيز إلى حالة من الوجد حتى أننى زعمت لنفسي ساعتها أننى رأيت

---

(١) التراث والحداثة – دراسات ومناقشات ص ٢٤٩ وانظر : الخطاب العربي المعاصر – دراسة تحليلية نقدية ص ١٢ وراجع قول يوسف عزالدين حول هذا الموضوع فى كتابه التجديد في الشعر الحديث – بواعثه النفسية وجذوره الفكرية ص ١٥ ، ١٦ .

الله، وأذكر أن بعض أهلي أدركوني حتى لا يصيبني الجنون . . . .

لم تمنحني هذه التجربة السكينة ، بل لعلها زادت قلقي ، إن يكن ذلك عطاء من الله ، فلم لم يعطه لي دون جهد ، وإذا كان الله تبدى لي فأين كان في الأماكن الأخرى . . . .

وكما تولد الحياة والموت في الجسم نطفة أو جرثومه ، وُلِدَ الانكار في نفسي ، لا أذكر كيف ترعرع حتى طلب أن يخرج ، وخرج انكاراً كأوضح الإنكار ، وربما كانت قراءة بعض بسائط الداروينية بتلخيص سلامه موسى ، وقراءة نيتشه في صيحته المرعبة : (إن الله قد مات) هي التي دفعت بي إلى الطرف الآخر من الموضوع .

أصبحت أتزين بالإنكار وأجمع القرائن عليه من كل الفلسفات والأفكار ،كما يجمع المدعي أدلة الاتهام ، واطمأننت أو حاولت أن أطمئن إلى هذا الموقف .

ساعدتني الفلسفة المادية ، التي كنت اقتربت منها اقتراباً كبيراً، وبخاصة بعد تخرجي من الجامعة عام ١٩٥١م على أن أجد في الإنكار لوناً من الموقف الفكري الموحد المتماسك ، وقد تكون مرحلة ديواني (الناس في بلادي) ، هي المعبرة عن ذلك الإحساس ، في قصيدة (الناس في بلادي)، عام ١٩٥٥م أحكي قصة قرية ريفية تعيش تحت طغيان فكرة (الله) ، وصورته تصطبغ فى ذهنها من خلال الوعظ والتخويف . . . »[1] .

ويشيد حسن حنفي بالوعي الأوروبي ، والحضارة الغربية ، التي قامت على أسس جديدة ، نقدت الموروث ، وتحررت منه ، يوضح ذلك فيقول :

« إنه فى عصر النهضة بدأ تأسيس الوعي الأوروبي على أسس جديدة بنقد الموروث حتى يمكن التحرر منه كمصدر للعلم وكقيمة للسلوك ،

---

(١) ديوان صلاح عبدالصبور ٣/١٤٧ – ١٥٠ .

والتحول إلى العقل والطبيعة ... ، ووضع الإنسان مركزاً للكون ... ، ثم أتت العقلانية في القرن السابع عشر تتويجاً للعقل الذى أصبح له سلطان على كل شيء : الدين ، الفلسفة ، العلم ، السياسة ، الاجتماع ، الأخلاق والقانون ، ثم أتى عصر التنوير في القرن الثامن عشر بعد تفجير العقل في المجتمع ، فاندلعت الثورات ، واهتزت الأنظمة ، وسقطت العروش ، وخرجت أفكار الحرية والعدالة والمساواة والتقدم والإنسان والطبيعة والتاريخ ، وتحولت الفلسفة إلى ثورة ، والفيلسوف إلى كاتب للجماهير وقائد لهم ...، ثم أتى عصر الثورة الصناعية عندما تراكم العلم ، وظهرت الاكتشافات العلمية ، والاختراعات الحديثة ، وحلت الآلة محل الإنسان في الإنتاج ... ، وظهرت الطبقة العمالية ، وقامت الثورات الاشتراكية ... ، ثم أتى القرن العشرون لإحداث ثورة صناعية ثانية ، هي عصر التقنية»[١] .

وتحت عنوان « من الأصول الفكرية للحداثة» أكد شكري محمد عياد أن «النصرانية» المنحرفة من مصادر الحداثة وجنورها الفكرية ، حيث قالت النصرانية المنحرفة بتجسد الإله فى الإنسان ، وهو ما دعت إليه الحداثة ، حيث نادت بموت الله – تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، ودعت إلى تعظيم الإنسان ، بل تأليهه ، وانتقال مصادر المعرفة والقيم من الوحي الإلهي إلى الفكر الإنساني [٢] .

وتحدث شوقي بغدادي عن جنور « الحداثة العربية» فقال :

« ثمة عوامل كثيرة خلف حركة الحداثة ، غير أن تأثير الآداب الأجنبية – والأوروبية تحديداً – هو بلا شك أقوى هذه العوامل ، فمنذ أكثر من مائة عام والعرب ما زالوا يفركون عيونهم ، مبهورين بصدمة الاحتكاك

(١) مجلة المستقبل العربي، السنة ٨، ع ٧٦، حزيران ١٩٨٥م، ص ٨٣ – ٨٤ .

(٢) انظر : قضايا وشهادات ٣/١٨٥ .

بالغرب ، ويجهدون إلى إثبات وجودهم في الزحام العالمي عن طريق تقليد الفاتحين»[١] !!!.

ويقول محمد التهامي ، في معرض حديثه عن الحداثة :

« إن حركات التجديد هذه ارتبطت وتأثرت بشكل واضح بكثير من الشعر الأجنبي ، وخاصة للشاعر ت.س.اليوت ، وغالبية هؤلاء المجددين مثقفون ثقافات أجنبية ، والمنافذ الإعلامية استجابت لهذا الانطلاق الجديد ... .

للأسف المذاهب العلمية الجديدة الطارئة – سواء أكانت يسارية أم يمينية – أغلبها وافد ، ليس ناشئاً منا ، فهذا الوفود الأجنبي يصاحب ويؤيد الوفود الأدبي الأجنبي أيضاً ، فناصر مجموعة من الشباب المثقف المرتبط ببعض الأيديولوجيات هذه الحركة التجديدية في الشعر ، لأن بينهما صلة»[٢].

ويؤكد جبرا ابراهيم جبرا أن «حركة الشعر الجديد متصلة بحركة الفن الحديث في أوروبا – أو قل في العالم كله – أكثر من أي شيء آخر بغير مواربة ، فالتجديد قد جاءنا من هناك ، ولابد من الإقرار بذلك ، لقد جاءنا التجديد كصورة نفسية لا في الشعر وحده ، بل في تفكيرنا السياسي والاجتماعي برمته»[٣] .

وصدق عبدالله أبوهيف حيث قال :

« على الرغم من عراقة النقد الأدبي في التراث العربي ؛ فإن الناقد الأدبي العربي مسكون بهاجس الحداثة بمعنى الاتصال بالغرب واللحاق به ...»[٤] .

---

(١) مجلة الشروق ع ١٠ ، ١٠ – ١٦ /١٢/١٤١٢هـ،ص ٩٨ .

(٢) مجلة المنتدى ع ٩٨ ، صفر ١٤١٢هـ،ص ٩ .

(٣) الرحلة الثامنة ص ٨ ، ٩ .

(٤) الأدب العربي وتحديات الحداثة دراسة وشهادات ص ٨٥ .

ويعترف غالي شكري بالمصدر الغربي قائلاً :

« وعندما أعود بالأسس التراثية للشعر الحديث إلى مصادرها في الشعر الغربي ؛ فإنني لا أعني أن شعراءنا كانوا مقلدين ، بل كانوا في مستوى العصر ، تماماً كما استطاع رواد المسرح والرواية في اللغة العربية أن يشيدوا دعائم هذين الفنين ، دون أن يكون لدينا تراث حقيقي لهما ، أجل لقد عرف تراثنا أشكالاً من القصص ، ولكن كتّاب الرواية عندنا تجاوزوا هذه الأشكال إلى مستوى العصر ، فاستمدوا من أوروبا مباشرة ما يحتاجون إليه ... ، فإذا أضفنا أننا في كافة مجالات المعرفة قد انتقلنا منذ بداية القرن العشرين من مستوى القرون الوسطى إلى قلب العصر الحديث ...؛ فإننا ندرك على الفور أننا قد أخذنا عن أوروبا أقصى ما وصلت إليه الحضارة في ذلك الوقت»[١] .

ويقول الحداثي المغربي محمد عابد الجابري أثناء حديثه عن الحداثة في الفكر العربي المعاصر : « فهي تستوحي أطروحتها ، وتطلب المصداقية لخطابها من الحداثة الأوروبية ، التي تتخذها أصولاً لها»[٢] .

وكذلك الحداثي المغربي سعيد بنسعيد يعتبر العالم الغربي « نموذجاً لعالم الحداثة المأمول»[٣] .

لذا نرى الحداثي العراقي عبدالوهاب البياتي يؤلف ديواناً ، ويقدم له بمقولة لأحد كبار كتاب العبث الأوروبيين (البيركامي) ، تقول العبارة:

« كل فنان يحتفظ في أعماقه بينبوع فريد ، يشكل مصدر تصرفاته وأقواله طوال حياته ، إن هذا الينبوع بالنسبة إلى يظل أبداً

---

(١) شعرنا الحديث إلى أين ص ١١٣ .

(٢) التراث والحداثة – دراسات ومناقشات ص ١٦ .

(٣) الأيديولوجيا والحداثة – قراءات في الفكر العربي المعاصر ص ٨ .

ذكريات عالم البؤس والضوء ، الذي عشت فيه لفترة طويلة»[١] .

هذا الديوان بعنوان « الذي يأتي ولا يأتي» ، وهو « عبارة عن صرخة في عالم الأكاذيب واللامعقول والعبث ، الذي يعيشه الإنسان العربي منذ فترة كتابة الديوان في الستينات حتى الآن { في نظر الكاتب } ، كما أنه صرخة في الوضع الإنساني المتدهور ، الذي عبر عنه أيضاً أدباء آخرون مثل البيركامي وكتاب العبث واللامعقول .

ولذلك فإن التيار السائد في الديوان هوالتيار العبثي، وعبدالوهاب البياتي مدرك جداً لهذا الاتجاه ، وواع تماماً بما يقول ، ومن ثَمَّ فإنه يبدأ الديوان بكلمة لشيخ كتاب العبث (البيركامي) ... وتستطيع أن تقرأ أي قصيدة في هذا الديوان ؛ كي تجد تيار العبث سارياً في كل كلماتها»[٢] .

وقد سعت مجلة (شعر) إلى استقطاب الحداثيين والثوريين الغربيين ، ونشر مقالاتهم في كثير من أعدادها مع دراسات شاملة لتلك المقالات – وقد سار على نهج مجلة شعر كثير غيرها ، ولكني خصصتها هنا، لأنها من أول وأقوى المجلات الحداثية ، بل هي أول المجلات التي دعت إلى الحداثة ، واستقطبت الحداثيين من العالم العربي وخارجه ، حيث أسسها تجمع شعر الحداثي ، ونادوا باسم الحداثة كمذهب له أصوله وأسسه – .

جاء في افتتاحية أحد أعداد مجلة شعر قولهم :

« يشترك في تحرير هذا العدد ، بيارجان جوف ، وكريستيان تزارا ، وجاك بريفيو ، وهم من كبار الشعراء الفرنسيين ... ، ومن المشتركين في التحرير أيضاً رود ولفو أوسيل ... ، وذلك بالإضافة إلى شعراء فرنسيين وانكليز معاصرين ، يتألقون اليوم في سماء الشعر الحديث،

(١) ديوان عبدالوهاب البياتي ٢/٥٩ .

(٢) عبدالوهاب البياتي في أسبانيا ص ٧٧ .

وفي العدد رسالة من باريس عن الشعر الفرنسي عام ١٩٦٠م لآلان بوسكيه ، وبحث في الرؤيا الجمالية عند هيرقليطس ، خصنا به المفكر الفرنسي من أصل يوناني كوستاس اكسيلوس ...»[1] .

وتحدثت قبل ذلك عن عملها ومنهجها فقالت : « هذا اللقاء في مجلة عربية يحدث للمرة الأولى بمثل هذا العمق والاتساع ، إنه يعزز الشعور بوحدة الحضارة الإنسانية ، ويساعد على توسيع آفاق العقل العربي وراء الحدود الإقليمية ... ، فمن قرأنا في الأعداد السابقة من المجلة ، ويقرأنا اليوم في هذا العدد جنباً إلى جنب مع نخبة من زملائنا في العالم يجد لأي مدى حققنا بالفعل لا بالقول والوعد الشراكة»[2] .

تبعية الحداثيين العرب للدعوات الحداثية الغربية

ومن شدة تعلق الحداثيين بالغربيين وإفادتهم من فلسفاتهم ، تقليدهم في جميع دعواتهم الحداثية .

١- فقد دعا الغربيون إلى تفجير اللغة ، وابتداع ألفاظ جديدة ، كما يقول (مالارميه) : « إنني ابتدع لغة منها ينبثق شعر جديد ، شعر لا يدور على وصف ، بل من ألفاظ ذات نوايا ، بحيث تغيب قيم الألفاظ المعنوية أمام شعورنا»[3] .

ولقد سار الحداثيون العرب على طريق الحداثيين الغربيين في نظرتهم للغة شأنهم في كل موضوع ، ثم بدأوا بعد ذلك يدعون إلى هذا المنهج بالنظرية والتطبيق ، زاعمين أن الكشف عن الجوانب الجديدة في الحياة يلزم

---

(١) مجلة شعر ع ١٨، عام ١٩٦١م، ص ٨٧ .

(٢) المصدر السابق ع ١٥، ١٩٦١م ص ١٣١، وانظر: ع ١٢، ١٩٥٩م، ص ٢ .

(٣) الرمزية ص ٥٧ ، وانظر : المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا ص ٢٧٥ .

منه بالضرورة الكشف عن لغة جديدة ، فليس من المعقول في شيء – على حد زعمهم – أن تعبر اللغة القديمة عن تجربة جديدة [١] .

يقول أدونيس :

« ليست اللغة وسيلة تعبير وحسب ، وإنما هي كذلك طريقة تفكير ، لكل وضع اجتماعي إذن لغتة ، لغتنا السائدة هي لغة أوضاعنا السائدة ، وهذه أوضاع متخلفة على جميع المستويات ، لهذا كانت لغتنا متخلفة على جميع المستويات ، إنها لغة بيانية صنعية زخرفية ، والمجتمع هنا يستهلك اللفظة كمتعة فردية ، أي كما يستهلك السلعة»[٢] .

وتأمل قول اللبناني محمد علي شمس الدين ، عندما تحدث عن بعض الدعوات الغربية وتقليد الحداثيين العرب لها ، فقال بأنه يجب على الشاعر أن يكون : « قصبة مثقوبة ، ومفتوحه لكافة أنواع الرياح ودرجاتها»[٣] .

٢– واشتهر عن الحداثيين الغربيين ما أطلقوا عليه (قصيدة النثر) ، لا سيما في كتابات (رامبو) ، كموسم فى الجحيم واشراقات [٤] .

ثم استورد الحداثيون العرب هذا المصطلح حتى شاع فى لبنان في مطلع الخمسينات ، ثم تبنته مجلة شعر ، وغيرها .

« وليس غريباً أن يظهر هذا الشكل الفني الغريب في لبنان ، وأن يترعرع فيه ، ثم يحاول بعد أن يربي له الركائز في البلدان العربية المختلفة أن يغزو ساحاتها الثقافية ، فلبنان من أكثر البلدان العربية ارتواء من منابع

---

(١) انظر : الشعر العربي المعاصر ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) زمن الشعر ص ١٢٩ ، وانظر : فاتحة لنهايات القرن ص ٣٢ .

(٣) رياح حجرية ص ٢١ .

(٤) انظر : الرحلة الثامنة ص ١٥ .

الثقافة الأوروبية الحديثة ، والتي تزفر عبرها الحضارة الغربية نفثات الاحتضار»[١] .

يقول محمد عبدالغني حسن :

« عجيب أن يترك شعراء المهجر تقليد شعر آبائهم ، ليقلدوا شعر الغربيين في أثوابه الجدد ، ولقد كتب جبران وأمين الريحاني من الغربيين كتابة فتنت شباب الأقطار العربية ، فتابعوهما ، وشغفوا بطريقتهما ...»[٢] .

وصَدَق صبري حافظ عندما وصف الحداثيين أصحاب قصيدة النثر بأنهم « يملكون تاريخاً طويلاً من التسكع على أرصفة الحضارة الأوروبية المحتضرة ... ، وليس غريباً أن تستشري هذه الحركة في الواقع العربي ما دام الاستعمار وراء ها»[٣] .

ويدعو أحد الشعراء العرب إلى تبني قصيدة النثر بحجة « أن الشعر المنثور ضرب من ضروب الشعر ، معترف به لدى جميع الأمم الراقية، ولا يمكننا بحال أن نجحده»[٤] .

وناقد عربي آخر حجته « أن الانجليز ، وهم أكبر منا ، قد أقدموا على التجديد»[٥] .

ويصف الحداثي المصري غالي شكري انتاج بعض الحداثيين العرب بأنه « ترجمات للشعر المرسل ، أو الشعر المنثور عن اللغات الأوروبية، أو كانت تقليداً له في كثير من الأحوال»[٦] .

---

(١) مجلة الآداب ع ٣ آذار – مارس ١٩٦٦ ص ١٥٢ .

(٢) الحداثة في الشعر العربي المعاصر بيانها ومظاهرها ص ٣٧ .

(٣) مجلة الآداب – العدد السابق – ص ١٥٣ ، ١٥٦ .

(٤) جماعة أبوللو وأثرها في الشعر الحديث ص ٣٢٥ .

(٥) قضية الشعر الجديد ص ٣٣٤ .

(٦) شعرنا الحديث إلى أين ١١٢ ، ١١٣ .

ويؤكد الحداثي المصري المتعصب أحمد عبدالمعطي حجازي علاقة القصيدة الحداثية بالثقافة الأجنبية ، ويقول :

«علاقة القصيدة الجديدة بالثقافة الأجنبية علاقة قوية لسببين :

الأول : ثقافي عام ، فهذه القصيدة الجديدة في أحد جوانبها ثمرة للقاء المتواصل بين الشعر العربي الحديث والثقافة الأجنبية ، التي أصبحت عنصراً مهماً من عناصر تكوين الشاعر العربي ، ولو لم يكن يعرف غير لغته .

والثاني : سبب فني يتمثل في ازدياد العناصر المشتركة في الفنون الحديثة ، وفي كون القصيدة الحديثة في العالم قصيدة بحث وتجريب»[١] .

وتحدث يوسف الخال عن قصيدة النثر ، فقال :

« كنا أول من تبناها في مجلة (شعر) ، وعلى كل حال قصيدة النثر هذه هي طبعاً حركة من ضمن تطور الشعر الغربي»[٢] .

وقد وجِّه إلى أدونيس هذا السؤال : « هل يمكنك بمثل هذا الكلام أن ترد على من يتهمك بأن كثيراً مما قلته في نظرية الشعر أخذته عن نقاد غربيين ، وبشكل مطابق ؟» .

فأجاب أدونيس :

« أنا أشرت مرتين في بداية مجلة (شعر) في دراستين قدمتهما ، واحدة اسمها (محاولة لتعريف الشعر الحديث) ، والأخرى (في قصيدة النثر) أشرت إلى أنني اعتمد على مصادر غربية ، لتوضيح نظرية الشعر

---

(١) في قضايا الشعر العربي المعاصر – دراسات وشهادات ص ٢٣٦ .

(٢) مجلة الشروق ع ٥١، ٣-٩/١٠/١٤١٣هـ، ص ٤٥ ، وانظر : حول «قصيدة النثر» مجلة الرؤية ع ١٩ ، تشرين أول ١٩٩١م، ص ١٤ – ٢٧ .

الحديث ، وقلت هذا في المقالة الثانية في قصيدة النثر ، حيث ذكرت أنني اعتمدت على تنظيرات في هذا الموضوع ، وبخاصة على كتاب مشهور ، وهو أطروحة دكتوراه لوزان برنار .

لقد كررت وأكرر إننا في بداية أعمالنا ونشاطاتنا كانت معرفتنا بالثقافة الأجنبية ، وباللغة ، محدودة ، فاجتهدنا لننقل إلى القارىء العربي مناخاً آخر ، مختلفاً لكي يفكر فيه ، ولدينا أخطاء ومآخذ كثيرة : أضف إلى ذلك أن القضايا التي كنا نجابهها كانت جيدة ، وليس في موروثنا النقدي ما يفيدنا في بحثها وتحليلها ، وهذا مما اضطرنا إلى الإفادة من النقد الأوروبي وتحليلاته ، لكننا وضعنا هذه الإفادة ، أي ما اقتبسناه في سياق جديد مختلف ، وهذا هو المهم»(١) .

٣- ومن أبرز سمات الحداثة الغربية دعوتها إلى التطور والتغير في كل شيء ، في الفكر والقصيدة والقانون ، وعلى هذا المنهج سار الحداثيون العرب ، مطالبين بتغيير مصادر المعرفة ، وتطوير الحياة كلها بجميع مجالاتها ، الدينية والسياسية والاجتماعية .

يقول مناف منصور :

« لقد استعار شعراء الحداثة العرب صلب الرؤية الغربية في طلب التغيير ...

فالسعي إلى تغيير العالم بعداً لتحقيق الذات يصدر أساساً عن موقف حضاري لا يقيم للدين الشأن الأكبر في هذا العالم ، كما تؤمن حضارة الشرق ، بل يؤمن بطاقات الإنسان المتفوق وقدراته»(٢) .

ولذا قد لا نعجب عندما نجد أحد الحداثيين العرب ، وهو يوسف

---

(١) مجلة العربي ربيع الأول ١٤١٠هـ .

(٢) الإنسان وعالم المدنية ص ٢٢ .

الخال ، يطلب المغفرة من عزراباوند ، وذلك في بداية مجموعته الشعرية (البئر المهجورة) ، إذ يخاطبه بقوله : « سألناك ورقة تين ، فإنا عراة ، أثمنا إلى الشعر فاغفر لنا ، ورد إلينا الحياة»[1] .

ويوسف الخال هذا من أوائل من دعا إلى الحداثة في العالم العربي بعد مجيئه من أمريكا ؛ إذ كان من أعضاء تجمع شعر ، وكان ينطلق من تقسيم العالم إلى قسمين ، عالم حديث فى الغرب ذو حداثة وتقدم ، وعالم قديم في بلاد العرب ذو رجعية وتأخر ، فلابد للعالم العربي أن يتخذ العالم الغربي عالماً له بعد أن يمحو الحواجز بينهما»[2] .

وسيأتي الحديث عن هذه المسألة في الفصل التالي – إن شاء الله تعالي – .

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٩٧ .

(٢) الحداثة في العشر ص ٥ ٦ .

أثر مؤتمر روما الماسوني في تربية الحداثيين العرب

في تشرين الأول سنة ١٩٦١م عقد في روما مؤتمر بعنوان (الأدب العربي المعاصر) ، قام بالإشراف عليه معهد الشرق الايطالي ، والمنظمة العالمية لحرية الثقافة ، وهي معروفة كأحد وجوه وكالة المخابرات الأمريكية [١] .

ناقش مؤتمر روما الأدب العربي المعاصر وصلته بالحداثة ، وقد اشترك فيه ما يقارب خمسين باحثا من العالم العربي وأوروبا وأمريكا .

يقول مدير برامج المؤتمر سيمون جارجي :

« كنا نرى في هذه الاجتماعات شاعراً عراقياً يناقش مستشرقاً إيطالياً ، وكاتباً جزائرياً يتحدث إلى شاعر انكليزي ، وناقداً امريكياً يباسط شاعراً لبنانياً ، وكانت تفعم الكل رغبة مشتركة صادقة في التعرف إلى مقام الأدب العربي الحديث في حقل الثقافة العالمية»[٢] .

وقد مثل الدول العربية في المؤتمر مجموعة من الحداثيين العرب من أشهرهم أدونيس ويوسف الخال وجبرا ابراهيم جبرا والسياب ومحمد برّادي وجميل صليبا وخليل رامز وسلمى الجيوسي ، وغيرهم .

ومن الجانب الأوروبي والأمريكي مجموعة من المستشرقين والمنصّرين ، برزت أهدافهم في تشجيع الحداثه ، ونشرها في العالم العربي مع ما تتضمنه من أفكار غربية ثورية .

يقول عبدالحميد جيدة بعد أن عدد المشاركين فى مؤتمر روما :

« ومن يتأمل هذه الأسماء يجد أن المستشرقين يشكلون فئة كبيرة في هذا المؤتمر ، ليوجهوا الحداثة في الأدب العربي المعاصر ، وليكون

---

(١) انظر : بحثاً عن الحداثة – نقد الوعي النقدي في تجربة الشعر العربي المعاصر ص ٤٢ .

(٢) الأدب العربي المعاصر – أعمال مؤتمر روما ص ٧ .

لهم تأثير مباشر في المشتركين من بلاد العرب .

إن هذا المؤتمر كان الأول من نوعه في إعلان عالمية الأدب العربي المعاصر ، ومناقشته على أسس النقد العربي الحديث ، إن هذا المؤتمر أعطى الحداثة الشعرية العربية زخماً جديداً ، ومفاهيم ورؤى جديدة .

بمؤتمر روما اكتسب الأدب العربي المعاصر صيغة العالمية ، وبرزت فيه حركة الحداثة العربية ، التي قبلت كل الدعوات الغربية الحديثة بدون خوف أو وجل من أي خطر لها على أدبها المعاصر»[١] .

ثم يبين دور المستشرقين في المؤتمر ، ويقول :

« ... ، كما أن المستشرقين ما زالوا يلعبون دوراً بارزاً في الدعوة إلى الجديد والحداثة بطريقتهم المعهودة ، وهذا ما ظهر في هذا المؤتمر ، كما أن الصراع بين القديم والجديد برزت معالمه في هذا المؤتمر ، وبخاصة بين أدباء ومفكري العرب المحدثين »[٢] .

وفي افتتاح المؤتمر أكد المستشرق ديلافيدا أثر الحركات الفكرية الأوروبية على ما قام به الأدب العربي ، فقال :

« ... ، ففي هذه الوثبة العجيبة التي قام بها الأدب العربي منذ خمسين سنة تقريباً يلاحظ الجميع أن أثر العقلية الأوروبية واضح المعالم، هذه العقلية التي توالت عليها الحركات الفكرية والدينية والسياسية ، حركات النهضة والإصلاح والعقلانية والثورة الرومانسية»[٣] .

---

(١) الحداثة في الشعر العربي المعاصر بين التنظير والتطبيق ١/٣٤ .

(٢) الأصالة والحداثة في تكوين الفكر العربي النقدي الحديث ص ٢٧١، وللاستزادة من معرفة دور المستشرقين انظر : عبدالوهاب البياتي في أسبانيا ص ٧٣ ، ٧٤

(٣) الأدب العربي المعاصر – أعمال مؤتمر روما ص ٢٧ .

وتقول سلمى الجيوسي التي حضرت مؤتمر روما :

« إن منظميه لم يكونوا أمريكيين فقط ، بل كانوا من الصهاينة أيضاً »[١] ، وقد عللت استجابة بعض الأدباء العرب إلى مثل هذه الأنشطة بالسذاجة ، التي كانت صفة غالبة – في رأيها –على أدباء الخمسينات [٢].

وفي الجلسة الأولى لهذا المؤتمر أكد الحداثي العربي يوسف الخال على دور المتنصرين والمستعمرين في التقدم العربي ، معلناً حربه للسلطنة العثمانية ، التي هي من أهم العوائق التي تحول دون التقدم على حد تعبيره .

ومما قال في ذلك :

« فأجانا العالم الحديث في أعقاب الحرب الكونية الأولى ، كان قد بدأ يتسرّب إلينا منذ أواخر القرن الثامن عشر حملة نابليون على مصر ، قيام محمد علي ، نشاط الإرساليات التبشيرية والتربوية في لبنان وفلسطين على الخصوص ، استمرار الصلاة المذهبية بروسيا وفرنسا والفاتيكان ، على أن العالم الحديث لم يصبح عالمنا بالفعل إلا بزوال السلطنة العثمانية عن ربوعنا »[٣] .

وفي الجلسة الثانية تحدث الحداثي الأردني عيسى الناعوري قائلاً :

« ... ، هذه السهولة في الاتصال ، وهذا السير في التبادل ، اللذان جعلا من العالم الواسع ذي القارات المتعددة المترامية ، التي تفصل بينها بحار ومحيطات ، عالماً صغيراً ، كان لهما أثرهما المباشر كذلك في جعل الأديب العربي يندمج في تيار الفكر الإنساني ، ويتغلغل في مختلف فنونه ومدارسه ومذاهبه واتجاهاته وتطوراته ، ويتصل اتصالاً مباشراً وثيقا

---

(١) بحثاً عن الحداثة – نقد الوعي النقدي في تجربة الشعر العربي المعاصر ص ٤٢ ، ٥٧ .

(٢) انظر : المصدر السابق ص ٥٧ .

(٣) الأدب العربي المعاصر – أعمال مؤتمر روما ص ٣٧ .

بأعلامه وبما ينتجون من روائع ... ، وأستطيع أن أؤكدّ هنا أن للأديب العربي ميّزة على غيره من أدباء العالم ، هي أنه يعرفهم ولا يعرفونه ، ويعيش معهم ولا يحسون به ، ويراقب تطور إنتاجهم وتفكيرهم ، ولا يدرون من أمره شيئا ، إنه يعرف لغاتهم فيقرأ آدابهم فيها مباشرة ، وما لا يقرأ في لغته الأصلية يقرأه مترجماً إلى لغة أخرى أجنبية أو إلي العربية ، فهو مع أدب كل أمة ، وأدب كل عصر ، يقرأ ويفهم ، ويقتبس ويتأثر ، وهو بالتالي يطور أدبه على ضوء ذلك كله ، بحيث يصبح أدباً إنسانياً كغيره من آداب الأمم الراقية الأخرى»[١] .

هكذا حال الحداثة في العالم العربي جاء ت من الغرب عن طريق الذين عرفوا حداثته وفكره وعاشوا مع الحداثيين والثوريين الغربيين وترجموا ما عندهم وطبقوه على واقعهم ، ونادوا بتحديث الأفكار والمبادىء ، أي تغيير العقائد والشرائع ، كما فعل أسيادهم ومعلموهم وقدوتهم هناك ، فشكلت الحداثة زلزالاً عنيفاً أثارت البلبلة والاضطراب فى أفكار بعض الناس في العالم العربي .

يقول محمد العبدحمود :

« لم يعرف الشعر العربي في مسيرته الطويلة زلزالاً بالعنف الذى عرفه مع حركة الحداثة ، فقد حققت هذه الحركة بالقول والفعل تغييراً جذريا في طبيعة هذا الشعر وبناه ومضامينه بعد أن دمرت الحواجز بين هذه الأمور جميعاً ، وواقع الأمر أن هذه الحركة أعلنت منذ البدء رفضها المطلق لمحاولة الفصل بين الشكل والمضمون ... .

... ، فالحداثة قطعاً أكثر من مجرد محاولة في قول الشعر ، ولا أظنني أذيع سراً فى هذا التأكيد»[٢] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) الحداثة في الشعر العربي المعاصر – بيانها ومظاهرها ص ٥ ، ٤٩ .

من مصادر الحداثيين في الجزيرة العربية

ومن أوائل المتأثرين بالفكر الغربي الحداثي من الجزيرة العربية الشاعر محمد حسن عواد ، ويتضح ذلك من ثورته على اللغة العربية وسخريته من العلماء أصحاب اللحى والعمائم وتمجيده أصحاب الفكر التجديدي العصري من الغربيين وذوي الأدمغة العربية ، المطربشة والمبرنطة ، على حد قوله ، الذي فصله في كتابه (خواطر مصرحة) ، والذي أصدره في عام ١٣٤٤هـ ، ١٩٢٦م .

تحدث فيه عن البلاغة العربية فقال :

« ... ، تلمستها في الجرائد ، فإذا هي خروق بالية ، وأديم ممزق ... ، وجدتها في كثير من شعر وكتابة مسيحي لبنان تسلس عن قيادها ، ثم وجدتها في مترجمات (هيجو) و(موليير) و(شكسبير) و(بايرون)، فقلت : واها لمجد شعر العرب !.

هناك البلاغة العربية فانشدوها ، نعم هناك بين ثنايا تلك الأوراق النقية الناصعة ... .

فيا أيتها البلاغة العربية : ما أسمى ذوقك حينما اخترت مقراً للموتور الكهربائي ، الذي يفيض عليك نوره وناره ، تلك الأدمغة العربية المطربشة والمبرنطة ، ذوات فكرة التجدد العصري ، والذكاء النجيب ، وضربت صفحاً ، بل ربأت بنفسك أن تتدفقي من رؤوس غلاظ أفسدها ثقل العمائم وطول اللحى ، إذا كنت برزت من سهول الحجاز فسوف لا يجد لك الحجازي طعماً ، وسوف لا يفهم لك معنى ، وسوف لا يعرف من أنت ما دامت في الحجاز كتب البلاغة السقيمة ... .

ويا أيتها الناشئة الحجازية المتعلمة : امحوا تلك القصائد ، وهاتيك المقطعات المأخوذة من تراثهم ، وطهروا أفكاركم الصغيرة الحرة من

تلك الأمراض والسموم ، وتلك الجراثيم والميكروبات والأوبئة»[١] .

وقد قدّم للكتاب الأستاذ عبدالوهاب آشي – وهو صديق للعواد وزميل له – بمقدمة أحسن فيها حين قال :

« وهناك نظرة أخرى نحب أن نناقش الأستاذ فيها ، وهي تغنيه بالغرب ، وولوعه بذكر عجائبه وتمجيده ، ودعاؤنا إلى مضاهاته ، مما تكاد مقالاته لا تخلو منه ، إنه لحسن في ظاهره ، ولكن رويداً ، ما هو الغرب وما عجائبه !؟ ، أليس هو أوروبا ، التي لا تزال تهددنا بأهوالها لا عجائبها ، وتجدّ في سحق معنوياتنا من وجه الكون !؟ ، وهل ما أنجبه سوى المدمرات الموبقات ؟! .

وإن كان لديه حسنة فما هي إلا نتيجة تحديه لمدنيتنا السالفة ، أضعناها فورثها أبناؤه ، وأهملناها فاتخذوها حلية لأنفسهم يفتخرون بها علينا ، فواها علينا ثم واها .

كان الأحرى بالأستاذ أن يرجع بنا إلى ما كان في عهد أجدادنا الغابرين أساتذة العالم ورواده في ميادين العمل الصحيح والمدنية القويمة ، ففيه الغناء عن ذكرأي مفخرة يجب أن تحتذى بعده»[٢] .

وقد علّق على هذا الموضوع الدكتور محمد بن سعد بن حسين فقال :

« وإذا كانت تلك الدعوة إلى التغريب قد جدت في مصر والشام، فإن عدواها قد سرت إلى جميع البلاد العربية ، حتى جزيرة العرب ، التي نبتت فيها العربية ، ونمت ، ومنها انطلق العربي بدينه ولسانه ينشرها في الآفاق .

وعلى سبيل المثال هذا محمد حسن عواد يقول إنه بقي زمنا طويلا يبحث عن البلاغة العربية حتى لم يترك مكاناً ولا كتاباً ولا صحيفة

---

(١) خواطر مصرحة ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) مقدمة كتاب خواطر مصرحة ص ١٢ .

عربية إلا طرقها ، بحثاً عن البلاغة فلم يجدها إلا في مقالات مسيحي سوريا ولبنان وكتّاب الغرب»[١] .

ولعل أصرح وصف لفلسفة العواد ما ذكره على المصري بقوله عنها :

« فلسفة القوة والعتيّ والتمرد ، وقد لاقت نفس العواد الشاب بعضاً من مزقها متناثرة في فلسفات (نيتشه) و(فولتير) و(رسو) و(جبران) ، فراح ينهل من نتاجهم حتى تكونّت لديه ذخيرة تلائم وثبات روحه الفوّارة »[٢] .

والمتابع لما يكتبه الحداثيون في الجزيرة العربية يتبين له مدى تعلقهم واقتدائهم بالحداثيين خارجها ، سواء من الغرب أم الشرق أم ممن ينتسب للعروبة والإسلام .

يقول عبدالله بن عبدالرحمن الزيد :

« أستاذنا المبدع الأثير المحبوب عبدالله محمد الغذامي ... ، إني أرشحك أن تكون جبيننا المرفوع أمام المبدعين الآخرين ووجهنا المضيء في كل احتفال مبهج بالكلمة والإيقاع ... ، تماماً كما عبدالعزيز المقالح في اليمن ، وعزالدين إسماعيل في مصر ، وماجد السامرائي في العراق وكما أدونيس في الوطن كله ...»[٣] .

ويقول في الثناء على الحداثي اليمني عبدالعزيز المقالح :

« إلى رمزنا الثقافي الجميل د. عبدالعزيز المقالح ... ، ائذن لي أستاذنا أن أعبر لك عن إيقاع الثقافة بين جوانحنا ، وعما نكنه لك هنا من إكبار وابتهاج ، وبتكوينك النادر جداً كانت معرفتنا ، ولاهتمامك وإدراكنا للخارطة الثقافية التي تديرها كان ذلك في ذاته ما أشعل إعجابنا بك

---

(١) الشعر الحديث بين المحافظة والتجديد ص ٤١ .

(٢) ومضات في ديوان العواد ص ٥٧ .

(٣) مجلة اليمامة ع ٩٤٠، ٢٨/٥/١٤٠٧هـ، ص ٥٤ .

وتقديرنا واحتفاء نا ...»[١] .

وعبدالعزيز المقالح هذا يقول :

« صار الله رماداً صمتاً رعباً في كف الجلادين ، حقلاً ينبت سبحات وعمائم ، بين الرب الأغنية الثروة ، والرب القادم من هوليود ، كان الله قديماً ، حباً ، كان سحابة ، كان نهاراً في الليل ، أغنية تغسل بالأمطار الخضراء تجاعيد الأرض ...»[٢] .

ويقول عبدالله بن عبدالرحمن الزيد – أيضاً – عن المقالح :

« ... ، غير أن ما عرفنا بعد ذلك من متابعتك لأبنائك الشباب في جزيرتنا العربية ، ومعرفتك الجادة لأسمائهم ونوعيات أعمالهم كان إضافة خرافية إلى حجم الإعجاب والإكبار والإغباط ، هذا الشيء قد يكون وصل إليك ، لأني أثق تماماً من أن الشباب لم يكونوا يصبروا عن التعبير لك عما نحمله لك من إعزاز وإجلال ، غير أن الشيء الذي قد لا يكون في دائرة شعورك الحضاري هو أنك أصبحت عاملاً مؤرقا بالرواء من عوامل زوال حزننا الكتابي وكآبتنا الثقافيه ...»[٣] .

ومن كبار الحداثيين في العالم العربي الحداثي العراقي عبدالوهاب البياتي ، ومن أقواله الكفرية ما جاء في ديوانه من قوله :

الله في مدينتي يبيعه اليهود

الله في مدينتي مشرد طريد

أراده الغزاة أن يكون

لهم أجيراً شاعراً قواد

---

(١) المصدر السابق ع ٨٩٧، ١٤٠٦/٧/٩هـ، ص ٥٦ .

(٢) الكتابة بسيف الثائر علي بن الفضل ص ٥ – ٩ .

(٣) مجلة اليمامة ع ٨٩٧، ١٤٠٦/٧/٩هـ، ص ٥٦ .

يخدع في قيثاره المذهّب العباد

لكنه أصيب بالجنون ...»[1] .

وقد أثنى على البياتي الحداثي السعودي سعيد السريحي كثيراً، وكتب عنه ثلاث خطرات بعنوان (٣ خطرات في حضرة البياتي)[2] .

وكتبت عنه إحدى الصحف فقالت :

« الشاعر الكبير عبدالوهاب البياتي يشعل قناديل الشعر في ليل جدة »[3] .

وكتبت عنه إحدى المجلات السعودية فقالت :

« ... ، ديوان شعر صدر مؤخراً للمبدع الكبير الأستاذ عبدالوهاب ... ، والديوان حركة بياتية خارجة عن المألوف شكلاً ومحتوى... ، أما المحتوى فماذا نقول الآن ، وقد قيل في البياتي أشياء كثيرة تدعو إلى الاعتزاز بموهبته وعطائه ، كما أنها تستحث الغيرة والحسد في نفوس أقرانه ومنافسيه ...»[4] .

وفي صحيفة الرياض ، كتب حسين بافقيه ، يقول :

« ولكن من أين لي وقلة من الزملاء أن نحظى بهذه النومة الهنيئة ! ، من أين لي ذلك ، وقد عرفتُ طريقي إلى زكي نجيب محمود ، والجابري ، وأحمد كمال زكي ، والغذاميّ ، ومجلة فصول» ، وكذلك ذكر محمود درويش ، وو أستا ذه الرائع علي البطل»[5] .

---

(١) ديوان عبدالوهاب البياتي ٣٦٨/١ .

(٢) صحيفة عكاظ ع ٧٥٦٦، ١٤٠٧/٧/١٦هـ، ص ٧ .

(٣) صحيفة الشرق الأوسط ١٩٨٧/٣/٨م، ص ١٣ .

(٤) مجلة اليمامه ع ٨٧٩، ١٤٠٦/٣/٣ هـ، ص ٥٣ .

(٥) صحيفة الرياض ع ٩١٩١، ١٤١٤/٣/٦هـ، ص ٧ .

وأدونيس ، وهو من أكبر منظري الحداثة في العالم العربي ، وله أقوال كفرية كثيرة ، منها قوله :

« من أنت من تختارُ يا مهيارْ ؟
أنىّ اتجهت ، اللهُ أو هاوية الشيطان . . .
لا الله أختار ولا الشيطانْ
كلاهما جدارْ
كلاهما يغلق لي عيني
هل أبدل الجدار بالجدار . . .
أعبر فوق الله والشيطانْ . . . »[١] .

وقوله : « . . . ، ومن هنا كان بناءُ عالم جديد يقتضي قتلَ الله نفسه مبدأ العالم القديم ، بتعبير آخر لا يمكننا الارتفاع إلى مستوى الله إلا بأن نهدم صورة العالم الراهن ، وقتلُ الله نفسه مبدأ هذه الصورة هو الذى يسمح لنا بخلق عالم آخر ، ذلك أن الإنسان لا يقدر بأن يخلق إلا إذا كانت له سلطته الكاملة ، ولا تكون له هذه السلطة إلا إذا قتل الكائن الذي سلبه إياها ، أعني الله . . . »[٢] .

وعلى الرغم من ذلك فإن لأدونيس محبين ومعجبين وتلامذة في الجزيرة العربية وفي غيرها .

يقول عبدالله الغذامي :

« يبدو لي أن مسألة أدونيس والأدونيسية مسألة في غاية الحساسية ، قد يكون أدونيس شاعراً متمكناً ومثقفاً واسع الاطلاع ، واطلاعه هنا منبثق من معرفته بالثقافة العربية التقليدية مثل ما هو وثيق

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ١/٢٢٨ ، ٢٨٩ .

(٢) الثابت والمتحول ٢/١١٣ .

المعرفه بالثقافة الغربية الفرنسية والانكليزية ... ، فهو سيظل مدرسة متفردة ... صحيح أنها مدرسة متميزة ورائعة لكن خروجها على السياق العربي خروج كبير جداً لا يمكن السياقات التالية لها من الصمود والبقاء داخل جسد القصيدة العربية»[١] .

ونقرأ في إحدى المجلات السعودية وتحت عنوان (للأنهار منابعها ولها أيضاً مصبات) ، قولها :

« نقرأ لأدونيس بعض أعماله فنشعر بنشوة ما بعدها نشوة ، ونكاد نقول شكراً أدونيس رسالتك وصلت»[٢] .

وهذا محمد الحربي يفتخر بنجومه من أمثال أدونيس والبياتي وبقية الحداثيين فيقول :

« ألا ترى معي أننا الأمة الوحيدة التي تتنكر لمبدعيها ومفكريها، لقادتها ولنجومها ، وللمتميزين عبر تجاوزاتهم للسائد والنمطي .

ألا ترى معي هذه الحملة ضد درويش ... ، ولعلك تراجع ما يقال عن الحاضرين : البياتي ، يوسف الصائغ ، محمود درويش ، مظفر النواب ، أدونيس ، إلخ ... القائمة ، ولعلك تراجع ما يقال عن الراحلين : السياب ، عبدالصبور ، دنقل ...»[٣] .

وقد صدقت حيث ذكرت مجلة (الشروق) أن الحداثة في المملكة العربية السعودية تأسست في «الفترة التي أتاحت للكتاب والأدباء والمثقفين في السعودية الانفتاح على النتاجات الحداثية الإبداعية ، والنظريات والمناهج النقدية الحديثة في الغرب عموماً ، من دون أن ننسى انفتاحهم

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط ١٩٨٧/٧/١٤م، ص ١٣ .

(٢) مجلة اليمامة ع ٩١١، ١٤٠٦/٩/١٧هـ، ص ٨١ .

(٣) المصدر السابق ع ٨٩٣، ١٤٠٦/٦/١١هـ، ص ١٠١ .

وتواصلهم مع النتاج الأدبي العربي أيضاً ، ومن المهم أن نلاحظ كذلك الأثر النوعي الذي يساهم به أولئك النقّاد في ساحتهم ، خصوصاً بعد عودة البعض منهم بشهادات أكاديمية من جامعات غربية عريقة مثل السوربون ، وغيرها»[١] .

ولهذا يشترط الحداثي عبدالله الغذامي للحداثي أن يكون « ليبرالياً وديموقراطياً ، ومنفتحاً»[٢] .

ويؤكد الحداثي السعودي سعد البازعي أن « الانفتاح على الفكر العربي والعالمي» من أسباب نشأة الحداثة في دول الخليج [٣] .

وعن أحد التيارات الأدبية – في الجزيرة العربية – ذات الأصول الحداثية ، يقرر بكري شيخ أمين أن مصدره التيار الغربي ، فيقول :

« ولقد كان ظهور هذا التيار في قلب الجزيرة العربية نتيجة لعوامل تشبه العوامل التي أدت إلى ظهوره في الغرب ... .

فإن الإعجاب بالأدب الرومانسي الغربي ، سواء أورَد بلغته الأصلية ، أم عن طريق المدرسة المهجرية أو المصرية ، أم مترجماً ، له أثر في التوجيه نحو رومانسية سعودية»[٤] .

ولا شك أن الحداثيين العرب قد أصيبوا بالعقد النفسية ، وبالنقص المركب ، الذي أدى بهم إلى التخبط ، والبحث عن استيراد فلسفات غربية ، وإنشاء فلسفات عربية ، ذات مصادر غربية ثائرة على المعرفة الإسلامية ومصادرها الصحيحة ، وما أصيبوا بذلك إلا بسبب بعدهم عن

---

(١) مجلة الشرق ع ٢٤ ، ١٩ – ٢٥/٣/١٤١٣هـ ، ص ٤٢ .

(٢) انظر : مجلة الحوادث ٢٩/١٠/١٩٩٣م ، ص ٦٧ .

(٣) انظر : المصدر السابق ص ٤٣ .

(٤) الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، وانظر : التيارات الأدبية في مكة والجزيرة ص ٢٧٣ .

المنهج الإسلامي القويم ، الصالح لجميع مجالات الحياة ، وفي كل زمان ومكان ، زد على ذلك المؤامرات الماسونية والتنصيرية الموجهة إلى العالم الإسلامي ، ودورها في إثارة الشبهات حول مصادر الدين الإسلامي وأصول المعرفة الحقة .

يقول عثمان الصوينع :

« كان الوطن العربي غارقاً في دياجير الأمية والفقر والفاقة والمرض ، وهمّ المواطنين العرب الأعلى المسيطر على أفكارهم هو الحصول على لقمة العيش من أي طريق وبأي وسيلة ، ولقد حيكت ضد هذا الوطن المؤامرات من الداخل والخارج حتى قوضت دولته المسلمة ، فغرق العالم العربي في لجة كالحة من الظلمة المطبقة ، وخدعتهم الثورة الفرنسية بشعاراتها المضللة ، الحرية ، الإخاء ، المساواة ، فأخذت أبصارهم بروقها ، فظنوا أنها هي سفينة النجاة ، التي سوف تخرجهم من الظلمات الحوالك إلى شواطيء النور والسلامة ، التي يبحث عنها كل حي مبصر ، فكانت السبب في التحرر من جزء من ظلمات الجهل ، ولكن وقعوا في حبائل التبشير النصراني والغزو الفكري المركز»[١] .

ولهذا يرى الحداثي السعودي عبدالله الغذامي أنه ليس عيباً أن يكون مصدر الحداثة غربياً ، فإن الثقافة الغربية وفلسفتها صالحة لجميع الأمكنة والأزمنة ، فهي ليست لزمانها فحسب ، كما أن الفلسفة اليونانية صالحة لزمانها ، وكذلك صالحة في كل زمان ، إذ أفاد منها الغربيون وغيرهم ، وكذلك أفاد الفلاسفة المتأخرون من الفلاسفة الغربيين المتقدمين ، وهكذا [٢] .

ويقول منصور الحازمي – وهو أحد السعوديين الذين يدركون

---

(١) حركات التجديد في الشعر السعودي المعاصر ٢/٤٠٨ .

(٢) انظر : مجلة الحوادث ٢٩/١٠/١٩٩٣م ، ص ٦٦ .

الاستيراد الثقافي من الغرب – :

« لقد تأثر الأدباء العرب المحدثون ، ومازالوا بكثير من هذه التيارات الغربية ... .

والحقيقة أن أكثر الأدباء العرب اندفاعاً نحو التأثر بالحضارة الغربية ، في الربع الأول من هذا القرن هم من طبقة الشباب و الذين احتكوا بالغرب احتكاكاً مباشراً ، إما عن طريق الهجرة إليه ، وإما عن طريق التعلّم في مدارسه ومعاهده ، وإما عن طريق القراءة لتراثه وآثاره ، ولكن هؤلاء الشباب لم يكونوا على درجه واحدة من الثقافة ، أو التفكير ، فقد كان فريق منهم مبتور الصلة بالماضي ، فلا يكاد يعرف عن الأدب العربي إلا القليل ... .

أما الفريق الآخر فقد كان يجمع بين الثقافتين العربية والأوروبية، فكان تأثر هؤلاء في الغالب الأعم بالنظريات النقدية الغربية ، ومناهج البحث العلمي»[(١)] .

ولا ريب أن الحداثة في مقدمة ما تأثر به الأدباء والمفكرون العرب فتبنوها، فمنهم من قطع صلته بالماضي كله، ومنهم من آمن بتراث ماض مجرد عن الثوابت ، إذ أن رؤيته الحداثية تأبى أن يؤمن بثوابت وأصول حقه.

وصدق يوسف عزالدين عندما علل تعلّق بعض العرب بما عند الغرب من نظريات فلسفية ، فقال :

« إنه مركب النقص الذي ما زال مسيطراً على الكثير من الكتاب، وحتى الكبار منهم أضاع جانباً كبيراً من أصالتهم الفردية ، وأصالتهم القومية ، والأصالة الأدبية والفنية ...»[(٢)] .

ثم قال :

---

(١) في البحث عن الواقع ص ١٦ ، ١٧ .

(٢) قضايا من الفكر العربي ص ٦٦ .

« ... ، فكثير من الأدباء السطحيين يقلدون أدباء الرمز الفرنسيين في الكتب المترجمة ترجمات ضعيفة من الفرنسية إلى الانكليزية ، ومن الانكليزية إلى العربية ، ... .

إن أكثر المترجمين ضعاف في لغتهم العربية ، ولا يعرفون أن رواد الرمزية أكثرهم شاذ الطبع مريض الجسم ، شديد الحياة انعكس كل هذا في شعره ....

وكل ما في الأمر { أن بعض الأدباء العرب } وجد نفسه بحاجة إلى التعبير عن مشكلات قومه ، ومصائب شعبه { وعقده النفسية وهزائمه }، فجاء أسلوبه غامضاً ، وأراؤه سادتها الفوضى وتاه بين خضم الآراء الغربية الفلسفية وبين عواطفه الجامحة ، وقد شجع على هذا رغبة المجلات والجرائد على نشر مثل هذا الإنتاج»(١) .

وبعض الحداثيين قد يُسمي حداثته تجديداً في الأدب والشعر ، أما حقيقة عمله فهو الدعوة إلى تقليد الغرب في ثوراته وفلسفاته ، يقول محمد الأسعد :

« إن هاجس ملاحقة الغرب ، سواء بدعوى التماثل مع إنجازاته، أو منافسته ، يطبع هذه الحركة بأكثر سماتها وضوحاً ، وذلك حين بدأ النقاد والشعراء يطرحون الغرب كنموذج منذ وقت مبكر»(٢) .

ويقول الرصافي :

« إن هناك فريقاً من أهل الأدب يدعون إلى التجديد في الشعر ، وكلما حاولت أن أفهم معنى صحيحاً للتجديد الذي يدعون إليه لم أستطع ، ولم أفهم ماذا يريدون من التجديد ، ثُمّ قرّ رأيي على ما استنتجته من أقاويلهم أن التجديد هو تقليد الغربيين في شعرهم وأدبهم»(٣) .

---

(١) المرجع السابق ص ٦٧ .

(٢) بحثاً عن الحداثة – نقد الوعي النقدي في تجربة الشعر العربي المعاصر ص ١٣.

(٣) تطور الشعر الحديث في العراق ص ١٠٠ .

المصدر الثاني
الماركسية

من خلال الاستعراض السابق يتبين أن للتيارات الماركسية والاشتراكية دوراً كبيراً في نشأة وتشجيع بعض الاتجاهات والأفكار الحداثية في العالم العربي ، لا سيما التيار الواقعي الاشتراكي ، فإن دوره في التأثير على بعض الحداثيين واضح وجلي .

وأكثر ما يتجلى هذا الاتجاه عند رئيف خوري ، وسليم خياطة ، ونجلاء عبدالمسيح ، ومحمود أمين العالم ، وعبدالعظيم أنيس ، وحسين مروّة، كما يتضح في أدب وشعر كمال عبدالحليم ، وصلاح عبدالصبور ، وبدر شاكر السياب ، وعبدالوهاب البياتي ، وسعدي يوسف ، وكاظم جواد ، وعبدالله العروي ، وأحمد عبدالمعطي حجازي ، وجابر عصفور ، وسعيد السريحي ، وعبدالعزيز المقالح ، وغيرهم كثير .

ويتضح هذا الاتجاه – أيضاً – في الأعمال الروائية لعبدالرحمن الشرقاوي ، وفؤادي حجازي ، وحسن محسب ، وصنع الله إبراهيم ، ويوسف القعيد ، وإبراهيم عبدالمجيد ، وغيرهم في مصر .

وفي أعمال غائب طعمه فرحان ، وموفق خضر ، وإسماعيل فهد إسماعيل ، وعبدالرحمن الربيعي ، وغيرهم في العراق .

وكذلك في أعمال حليم بركات ، وأديب نحوي ، وفارس زرزور ، وغسان كنفاني ، وتوفيق فياض ، وأميل حبيبي وغيرهم في بلاد الشام .

وفي أعمال أبي بكر خالد ، وإبراهيم إسحق وغيرهما في السودان.

وفي روايات الطاهر وطار ، ومصطفى الفارس ، وعبدالمجيد

عطيه، وغيرهم في الشمال الافريقي [١] .

وفي نتاج محمد عابد الجابري ومحمد نبيس وعبدالله العروي وسعيد بنسعيد من المغرب .

كما يتضح المصدر الماركسي في تحليلات حسين مروة ، وحسن حنفي ، ومحمد أركون ، ومحمد دكروب ، ومهدي عامل ، وطيب تزيني ، ورفعت السعيد ، وطارق البشري ، وهادي العلوي ، وفؤاد مرسي ، وغيرهم [٢].

وإن المتأمل في دراسات الحداثيين وأبحاثهم وتحليلاتهم ليجزم بأن الماركسية بقوانينها المعروفة ، مصدر رئيس للثورة الحداثية في العالم العربي ، بل هو المصدر الأول ، الذي يعتمدون عليه في دراسة التراث الإسلامي ، وجميع الظواهر الأخرى .

وقد حدد أولئك الأدباء والحداثيون التيار الاشتراكي بأنه :

« ممارسة ثورية ، وعمل انقلابي ، يهدف إلى تنوير الجماهير الشعبية ، لتعي ذاتها ، وتعرف ذاتها ، وتحتل مكاناً تحت الشمس»[٣] .

كما برز أثر التيار الواقعي الاشتراكي في القصص القصيرة لعدد كثير من الكتّاب الإبداعيين ، ومن أشهرهم : « في مصر صبري العسكري ، ومحمود السعدني ، وصلاح حافظ ، ويوسف ادريس ، ومحمد صدقي ، ويضيق المقام عن ذكر روادها في البلاد العربية الأخرى ، وتتميز جميعها بالالتزام الذى يفرضه هذا التيار ...»[٤] .

---

(١) انظر : الاتجاهات الفكرية في العالم العربي وأثرها على الإبداع ص ١٢ ، ١٣.

(٢) انظر : كتاب دراسات في الإسلام ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٣) بحثاً عن الحداثة – نقد الوعي النقدي في تجربة الشعر العربي المعاصر ص ٣٥ .

(٤) الاتجاهات الفكرية في العالم العربي وأثرها على الإبداع ص ١٣ .

ومما لا شك فيه : « أن آراء أدونيس في الحداثة والثورة والتجاوز والهدم تصدر عن فكر ماركسي ، فالثورة التي يدعو إليها الفكر الماركسي تعني تماماً كل هذه الأفكار السابقة ، فهي تتناقض بكل تأكيد مع قيم الماضي بكل أشكالها ، دينية كانت ، أو ثقافية ، أو فنية ، أو اجتماعية ، ويتأكد من خلال تلك الاستشهادات ، التي يشير إليها أدونيس في عروضه لتلك القضايا، فآراء لينين وماركس ونيتشه يتردد صداها في كتبه»[١] .

يقول سهيل إبراهيم :

: « لا أعرف مناخاً أدبياً في العالم تعفرت فيه قيم الواقعية والواقعية الاشتراكية كما هو في المناخ العربي المعاصر ، فتحت خيمة الواقعية الاشتراكية تقترف اليوم كل هذه الجرائم الأدبية والشعرية خصوصا في الوطن العربي ، إن تخريب المألوف في الحياة العربية مطلب وطني اليوم ولكن على أن يتم هذا التخريب عبر الإنسان ، وعبر قدراته وطاقاته المادية والفكرية ، وليس في تحطيم جوهر اللغة وقاموس الأدب العربي الموروث فقط»[٢] .

وعن أثر الثورة الاشتراكية يقول عمر الدقاق :

« هذه الثورة الفكرية والاجتماعية التي تلفح الآن بلهيبها أفكار الجيل العربي المعاصر في سورية ، وتتوهج في نفسه آمالاً مشرقة بيوم الخلاص ، هذه الثورة تمخضت عنها أحداث جسام هزت كيان الأمة ، كما أذكت تأججها أعاصير الثورات الخارجية التي هبت على عقول الطليعة العربية ، ورفدتها بما زادها غنى ومضاء ، ولقد كان للشعر نصيب كبير في دفع هذا التيار الجديد العارم إلى مداه .

---

(١) مجلة عالم الفكر ، مج ١٩ ع ٣ ، ١٩٨٨م ، ص ٢٧ .

(٢) الأدب العربي وتحديات الحداثة دراسة وشهادات ص ١٤٨ .

كان لابد من تهديم العادات النخرة ، والمفاهيم المهترئة ، التي تقيد المجتمع بسلاسلها الصدئة،وتعوق انطلاقته الماردة ، فنزار قباني ما فتيء يثور على هذا الوضع المزري ، الذي استمرأه المجتمع العربي داخل أسرة الشرق الكبيرة»[1] .

ونزار قباني يقول في ديوانه :

« فالملايين التي تركض من غير نعال

والتي تؤمن في أربع زوجاتٍ

وفي يوم القيامة

الملايين التي لا تلتقي بالخبز

إلا في الخيال

والتي تسكن في الليل بيوتاً من سُعالِ

أبداً ما عرفتْ شكل الدواء ...»[2] .

ويقول عمر الدقاق عن الاتجاه الحداثي الاشتراكي في سوريا :

« أما الشاعر وصفي قرنفلي فقد جعلته عقيدته الماركسية المتفائلة مؤمناً بحتمية الثورة الانقلابية ... ، ويتردد نذير الثورة لدى الشاعر سليمان العيسى في منحى متمرد ... .

لقد أصبح دق طبول الثورة لحناً محبباً إلى قلوب الشعراء اليساريين ، فشوقي بغدادي ينذر بيوم رهيب لا يبقي ولا يذر .. .

وكان الشعراء المنتمون إلى حزب البعث العربي الاشتركي شأنهم شأن الشعراء الماركسيين ، وسائر التقدميين ، ينذرون بقرب الانفجار ، وإن

---

(١) فنون الأدب المعاصر في سوريا ص ٣٨٤ .

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ٣٦٧/١ .

لفظة الاشتراكية التي ظلت مقصورة أمداً طويلاً على النثر اقتحمت قوالب الشعر ، مجلجلة مدوية في قصائد تلك الفئة من الشعراء .

وهكذا كانت هذه القصيدة لصابر فلحوط ،إرهاصاً بالثورة المرتقبة :

اشتراكي أنا ، كوخي على　　كتف السفح بقايا من رماد

لن يطول الليل إني لأرى　　ألف فجر من جراح الشعب باد

بورك الفقر فمن ثورته　　يولد البعث على درب الجهاد

كذلك دأب سليمان العيسى بلا هوادة على جمل نفير الثورة ، لقد آن أوان الشد : فلنجمدها على كل الشفاه الضارعات .

ولكن ما كنة الثورة التي يريد الشاعر إلهابها ، ويرقب اشتعالها ؟ ، هي في عقيدته ثورة سوداء طاغية تمتح من حقد السنين ، وتجرف معها الظلم والظالمين : ثورة كالظلم سوداء .. وويل للطغاة»[1] .

وهذه الثورة الحداثية الاشتراكية ليست مقصورة علي بلد معين ، بل هي ضد النظام السائد في جميع الدول العربية [2] .

ثم هذا الشاعر الحداثي محمد الماغوط يتغنى بالثورة فيقول :

... ، وأنا أسرح شعري كل صباح

وأهرع كالعاشق فى موعده الأول

لانتظارها ، لانتظار الثورة

التى يبست قدماي بانتظارها [3] .

يقول حسن صعب ، وهو حداثي ذو اتجاه ماركسي :

---

(١) فنون الأدب المعاصر في سوريا ص ٣٨٦ - ٣٩١ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٣٩١ .

(٣) المرجع نفسه ص ٣٩٢ .

« ما دام التحديث ضرورة للتقدم ، والتقدم يجري بالسرعة الخارقة التي نشهدها ، فإن التمهّل في إزالة عوائقه باسم التدرج أو التطور هو إيغال في التخلف بوعي أو بدون وعي .

إن التحديث طريق ثوري للتقدم ، إنه يتطلب تغييرات نوعية وكمية سريعة في الفكر والسلوك ... ، وليس النضال في سبيل التقدم أي في سبيل التحديث أقل خطراً من النضال في سبيل التحرر السياسي ؛ لذلك يبدو العنف فيه حقاً للإنسان المناضل ، أو الثائر في سبيله إذا تعذر عليه الاقناع السلمي »[١] .

ويقول الحداثي الماركسي ياسين الحافظ :

« قدمت لي الماركسية مشروعاً ثورياً شمولياً ينقض بلا هوادة البنيان المخرب المفوت الذي للمجتمع العربي ، ويعوّضه بمجتمع حديث عادل عقلاني»[٢] .

ويقول فادي إسماعيل متحدثاً عن بعض الحداثيين الماركسيين :

« لقد قادت الحداثة والرغبة في الثورة التي تضمنها الفكر العربي الحديث إلى تبني الماركسية ، ... ، لقد أنقذت الماركسية أيديولوجية الحداثة من طابعها الفج المعادي بشكل ظاهر للمجتمع والجماعة من خلال عدائها للتقاليد التي أصبح المجتمع رمزاً له ، ووضعتها في سياق أيديولوجيه عالمية إنسانيه ، فأصبحت الثورة على المجتمع ثورة للمجتمع .

بلغت أيديولوجيا الحداثة مع الماركسية - كقماط لها - ذروة طمحت معها أن تكون فلسفة للتقدم ، ولعلّ أفضل من عبر عن هذا الطموح عبدالله العروي

---

(١) تحديث العقل العربي ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٢) الهزيمة الأيديولوجية المهزومة ص ٢٤ ، ٢٥ .

في الأيديولوجيا العربيةالمعاصرة ، والعرب والفكر التأريخي ...»[١] .

ويقرر يوسف عزالدين أن اتجاهات النقد والأدب كالرمزية ، والسريالية ، وأدب اللامعقول جاءت عن طريق ترجمة الفكر الماركسي والوجودي والفوضوي والاشتراكي [٢] .

وهذا الحداثي المغربي محمد بنيس يبين علاقته بالماركسية ، فيقول : « ... ، وهذا النص الذي أساهم به إلى جانبكم في القسم الشعري، هونص حر عن علاقتي شعرياً بالماركسية ... .

هو لقاء فردي وخصوصي بالماركسية ... .

لذلك كان افتضاض الغشاء الشفاف الذي وصلت إليه الكتابة شرطاً مسبقاً للتعاقد مع الماركسية كرؤية ومنهج تغييرين للعالم ، بما فيه الذات الكاتبة ... .

للبيت الماركسي في عموم العالم العربي هيئة خيمة القبائل الرّحّل، لم يتجذر بعد في المكان ، له كل الأمكنة ولا مكان له ....

بقدر ما منحتني الماركسية جسارة معرفية تصلني إلى الهجوم على المخابىء المريضة ... ، بقدر ما تحولت بعد مدة اختيار ليست بالطويلة... إلى موانع لها سلطة في أقصى حالات الاستنفار ، وبدل أن تمزق الحُجُب في الوطن العربي هنا وهناك ... ، تحولت إلى أيديولوجية معلقة ، مقدسة ، مختزلة في استشهادات مبتورة ، تقول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة ، عبر مجمل التراث الماركسي وفي خطابه كل من يسعى على

---

(١) الخطاب العربي المعاصر ص ١٤٦ ، ١٤٧ ؛ وانظر : ما ذكره الحداثي المغربي كمال عبداللطيف في :إشكاليات المنهاج في الفكر العربي ... ص ٤٩.

(٢) انظر : قول في النقد وحداثة الأدب ص ٢٢ .

مصطلح أو مصطلحين .

إن مجتمعنا كمجتمع ... لا هوتي ، تراثي ، قبائلي ، تحتضن فيه الواحديةُ الوثنية لم يستنطق بعدُ ذاته ، وقد كان من الممكن أن يتم لهذه الآثار المحفورة في وعينا ولا وعينا تدمير وإبدال بمعاول الماركسيين العرب وسواعدهم ، لو أنهم ساءلُوا آثار الذات وأشباح الحداثة ...»[١] .

ويثبت محمد العبدحمود في كتابه (الحداثة في الشعر العربي المعاصر - بيانها ومظاهرها) : أن هناك «ثورتين متصلتين اتصالاً وثيقاً بتطور الشعر الحديث ، وبرسم الوجهات التي يسير فيها ، وهما الثورة السريالية والثورة الماركسية»[٢] .

وهذا الحداثي اليمني يرسل قُبلة إلى بكين الشيوعية ، ويسجل إعجابه بالشيوعي الصيني (ماو) وببقية الشيوعيين ، فيقول :

« قبلة إلى بكين ... ، متى أمر تحت قوس النصر في ساحتك الحمراء ... ، أرسم قبلة على الجبين ، جبينك الأخضر يا بكين ، أطلق باسم اليمن الخضراء حمامة بيضاء ، متى أسير لو أمتار في الدرب حيث سارت رحلة النهار ، رحلة (ماو) والرجال والأنصار ، رحلة كل الطيبين ، متى متى أراك يا بكين»[٣] .

ولهذا فهو يخاطب وطنه ويقول :

---

(١) - حداثة السؤال - بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة ص ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ وقد نشر هذا المقال بعنوان (حين مستني الأرض) في مجلة الطريق ، بيروت ، السنة الثالثة والأربعون ، العدد الأول ، فبراير ١٩٨٤م ، وانظر : الشعر العربي المعاصر ص ٥١ .

(٢) ص ٢٢٧ .

(٣) ديوان عبدالعزيز المقالح ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

« وطني ... لا عيد لي حتى أراك بثورة

حمراء عاصفة من التجديد»[١] .

ويتغنى الحداثي العراقي عبدالوهاب البياتي بالشيوعية وروادها فيقول :

« صوت لينين الأخضر العميق لا يزال

يهدر في العالم

والرايات في الجبال ...

...

وفي أقوال

لينين وهي تلهم الأجيال

وتصنع الرجال

ألمحها في وطني تزلزل الجبال

يا إخوتي العمال»[٢] .

ويقول الحداثي المغربي عبدالله العروي :

« إذا لم نحدد الماركسية كنظام فكري شامل يوحد النخبة الثورية ويصلح كمعيار للتحليل وكمنارة للعمل ، أي فائدة للماركسية في ظروف الأمة العربية التاريخية»[٣] .

ويدعو عبدالله العروي المجتمعات العربية إلى اكتساب الليبرالية من منظور «التاريخانية الماركسية» المرتبطة بالفعل والتغيير ، والتي تقبل الفكر الليبرالي وتتمثله ، وهي التي تدعو إلى «تحديث» المجتمع ، و«تثوير»

---

(١) المصدر السابق ص ١٨١ .

(٢) ديوان عبدالوهاب البياتي ١/٢٤٣ .

(٣) العرب والفكر التاريخي ص ٦٥ .

الواقع وتغييره ، ويؤكد هذا فيقول :

« منذ النهضة ونحن نعيش بأجسامنا في قرن سابق ، بدعوى المحافظة على الروح الأصلي ، وتلك كانت خدعة من القسم المتأخر في نفسياتنا وفي مجتمعنا ؛ لاستمرار التأخر واستغلاله ، وستبقى مسألة الخصوصية والميزات مطروحة ، لكن في نطاق الاعتراف بوحدة التاريخ ، ونفي إمكانية الوفاء الدائم لنمط أصيل .

الغرض من التحليل التاريخي هو أن نفصل آخر الأمر الخصوصية عن الأصالة ، والأولى حركية متطورة ، والثانية سكونية متجمدة، ملتفتة إلى الماضي» ، وكما أنه يؤكد أن المنهج الماركسي قادر على أن يزودنا بمنطق العالم الحديث ؛ لأننا في ظل التراث والعقيدة – على حد زعمه – لم نعش أطوار العالم الحديث المتتابعة ، ولم نستوعب بنيته الكامنة»[١] .

وعبدالله العروي ، حداثي مغربي ، جميع تحليلاته التأريخية والفكرية والفلسفية تنطلق من منظوره الماركسي [٢] .

وبدر شاكر السياب ، أحد الحداثيين في العالم العربي ، كان منتمياً للحزب الشيوعي العراقي ، متحمساً له [٣] ، موجهاً أشعاره في سبيله ، ثم تحول بعد ذلك من الشيوعية إلى القومية العربية – فصرف جهوده لها – مع احتفاظه بكثير من المفاهيم الاشتراكية [٤] .

---

(١) المصدر السابق ص ٦٧ وانظر : دراسات في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق ص ١٩ ، ٢٠ ، ٥٣ .

(٢) انظر : معهم حيث هم ، لقاءات فكرية ص ٤٢ فما بعدها ، والعرب والفكر التاريخي.

(٣) انظر : بدر شاكر السياب رائد الشعر العربي الحديث ص ٢٣ ، ٣٦ ، ٦٢ .

(٤) انظر : الالتزام في الشعر العربي ص ٤٠٢ .

وقد شارك في مؤتمر روما ، وتحدث في الجلسة السابعة منه فقال :

« صار في وسع الشيوعيين أن يصدروا مجلاتهم في عدد من العواصم العربية ، كمجلة الفجر الجديد ، التي كانت تصدر في القاهرة ، ومجلة أم درمان ، التي كانت تصدر في الخرطوم ، ومجلة الطريق ، التي كانت تصدر في بيروت ... ، وفي ذلك الحين ظهرت نغمة جديدة كان الشيوعيون عازفيها ، تلك النغمة هي الفن للفن ،أو الفن للمجتمع ، وأصبح في وسع الشيوعيين بجماهيرهم الواسعة المهيئة أكفّها للتصفيق وصحافتهم أن يرفعوا أي شعرور أو متأدب ينضوي تحت لوائهم ، أو يجاريهم على الأقل، إلى مرتبة ما كان ليصلها حتى نهاية حياته لو لم يرفعوه إليها ، بل إن بعض الشعراء المبدعين بحق لم يستطيعوا الصمود أمام ذلك الإغراء الشيوعي ، فانحرفوا مع التيار الأحمر ، مضحين بنفسهم ، وإنسانيتهم ، وبكل ما يحرص الأديب عليه ، ... ، ولقد بسط الشيوعيون مسألة الالتزام وعدمه ، أو مسألة الفن للفن – بما في ذلك الأدب – والفن للمجتمع تبسيطاً أخفى جوهر القضية ، بل ومسخ معنى الأدب الملتزم ، أو الأدب للمجتمع ، أو الأدب الواقعي ...»[١] .

ثم نقد السياب الشيوعيين ، الذين يعتقدون أن الفلسفة الصحيحة الوحيدة هي الفلسفة المادية الديالكتيكية ، وأن ليس هناك حلول ناجحة للعالم العربي إلا الحلول الشيوعية وما يستمد من فلسفتها ؛ ولذا طبق الشيوعيون العرب مقاييسهم الماركسية على الشعر العربي المعاصر ، رافعين شعارات (السلام) و(الراية الحمراء) ، و(الكادحين) وغير ذلك [٢] .

---

(١) الأدب العربي المعاصر – أعمال مؤتمر روما ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(٢) انظر : المصدر السابق ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

وكذلك الحداثي العراقي عبدالوهاب البياتي كان مشتركاً في تحرير مجلة «الثقافة الجديدة» ذات التوجه الماركسي ، مما جعله يعدّها مرحلة انتقالية في تكوينه الفكري بعد أن انضم « بحزم إلى الاتجاهات اليسارية – ماركسية أو غيرها – خلال الوضع السياسي المضطرب ، الذي أدى إلى قيام الثورة الجمهورية القومية الاشتراكية عام ١٩٥٨م»[1] .

وفي مقابلة معه وجه إليه هذا السؤال : « ... ، إذن فأنت تقف في جانب التفسير الهيجلي للتاريخ ؟ { فأجاب } البياتي : نعم ، والماركسية استكملت وطورت الهيجلية ، وكانت الأولى { أي الهيجلية } هي أساس الأخيرة ، أحد أسسها ، كان لدى هيجل منهج وضاء ، أكيد ، وإن كان داخل مفهوم مثالي .

وأنا استخدم المنطق الهيجلي في سياق الواقع ، في حياة الناس ، وفي الفكر الذي يوجز الواقع»[2] .

ومن كبار الحداثيين الماركسيين العرب ، الحداثي المصري محمود أمين العالم ، وكذلك عبدالعظيم أنيس ، ويتضح صدورهما عن الماركسية في كتاباتهما ، لا سيما في كتابهما «في الثقافة المصرية»[3] .

وفي القاهرة أقيم مهرجان للإبداع العربي بعنوان (مهرجان القاهرة الأول للبداع العربي) وذلك في عام ١٩٨٤م ، في المدة من الثالث والعشرين من شهر مارس (آذار) إلى الحادي والثلاثين منه .

وخلال هذا المهرجان عقدت ندوة حول موضوع (الحداثة في اللغة

---

(١) انظر : عبدالوهاب البياتي في أسبانيا ص ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ١١٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٣ .

(٣) وانظر : كتاب محمود أمين العالم : مفاهيم وقضايا إشكالية .

والأدب) ، شارك فيها طائفة من الباحثين العرب والمستشرقين .

والذي يهمنا في هذا المقام من تلك الندوه هو ما قرره محمد برادة من أن كل مفاهيم الحداثة في الفكر والأدب العربيين تؤول إلى واحدة من اثنتين :

إما حداثة طوباوية ، تتوسل بالرفض والتجديد والأسئلة الجذرية، والمراهنة على قوة الإبداع في تجاوز مأزق العصرية .

وإما حداثة جدلية ، تؤمن بجدلية التغيير وضرورة ممارسة النقد الأيديولوجي من منظور التاريخانية الماركسية .

ويقول محمد برادة :

« نجد في كتابات الأستاذ العروي طرحاً عميقاً لمسألة الحداثة العربية من خلال إعادته النظر في الأيديولوجية العربية ، والكشف عن مصادرها ، وانتقاد العوائق التي تحول بين المجتمعات العربية وتحقيق حداثتها ، أي الثورة المتيحة لتجاوز التأخر والانتقائية والسلفية ، ومن ثَمّ الارتقاء إلى منطق العصر لحماية المصالح ، وتأمين الدفاع عن النفس ضد أطماع الآخر ...»[١] .

ومن الواضح من كلام محمد برادة في ذلك المؤتمر أنه يحدد للحداثة العربية مرجعين ، الأول طوباوي ويقوم به أدونيس ، ويسير على نهجه أتباع ، والثاني جدلي ماركسي ، ويقوم به عبدالله العروى ، وله كذلك أتباع ..

وكذلك ينتسب الحداثيان محمود درويش وسميح القاسم إلى الحزب الشيوعي اليهودي الصهيوني «راكاح» ، وقد وصف محمود درويش

---

(١) مجلة فصول ، مج ٤ ، ع ٣ ، سنة ١٩٨٤م ، ص ١٨ ، وانظر : الحداثة في الشعر العربي المعاصر – بين التنظير والتطبيق ١/١٦٢ ، ١٦٣ .

سفره إلى صوفيا ممثلاً حزب «راكاح» اليهودي «الاسرائيلي» ، ضمن وفده من «الشابات والشبان» ، وذكر أنه كان في صوفيا بنايتان ، يظلل إحداهما العلم الإسرائيلي ، والأخرى يظللها العلم الفلسطيني ، وأنه وقف محتاراً إلى أيهما يذهب ! ، ثم اختار أن يذهب إلى «الاسرائيليين» ، ومن ثَمَّ يعترف محمود درويش نفسه بأن «التحالف مع راكاح هو اندماج في حياة الدولة الإسرائيلية»[1] .

أما سميح القاسم فقد كتب قصيدة ««طلب انتساب للحزب» ، جاء في مقدمتها : « إلى ما يرفلنر - وهو رئيس حزب راكاح الإسرائيلي - وشيوعيين لا أعرف أسماء هم من أسيوط واللاذقية وفولغوغراد ومرسيليا ، ونيويورك وأزمير ... إلخ»[2] .

وقد كتب الناشر مقدمة للقصيدة ، قال فيها : «قد سبق أن نشر شعر الأرض المحتلة ، ولكن هذه القصائد بالذات لم يسبق نشرها ، لأنها ذات نفس ماركسي ... .

وكان الذين يحذفون هذه القصائد في البلاد العربية يحتجون بأن هويتها السياسية اليسارية تسيء إلى الشاعر المناضل أكثر مما تحسن إليه... ، وفي الحقيقة فإن هذا الزعم باطل ، لأن محاولة إخفاء الهوية السياسية لكاتب يعتبر الكلمة رصاصة ، ومهنة الأدب كفاحاً ، وينبض كل حرف من حروفه بموقف واضح الدلالة والرؤيا إنما هو عبث شبيه بحركة النعامة ... ، ونذكر مع هذا أن الهوية الماركسية لم تعد كفراً سياسياً ، ولا إلحاداً قومياً»[3] .

---

(١) انظر : مجلة شؤون فلسطينية ، ع ١٩ ، آذار ١٩٧٣ ، ص ٢ .

(٢) انظر : ديوانه ص ٢٧١ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، ص ٢٦٥ -٢٦٧ ، وهذا الكلام بقلم الناشر : أحمد =

ويتغني سميح القاسم بالحركات الشيوعية في العالم فيقول :

« لو يصدق الكلام

وتحمل الريح ·· ولو سلام

لثائرين إخوة ·· لا فرق

في النيل ·· في الكونغو ·· في فيتنام »[١] ·

وفي قصيدة له بعنوان « عزيزي إيفان الكسيفتش » يقول :

« وجاء معلمي الجوال

من الفولغا أتاني

من ذرى الأورال { وهما في الاتحاد السوفياتي } ،

من الهند الشقية جاء ني

من مصر ·· من لبنان ···

أتاني من بلاد الصين

من كوبا ··· من الصومال

أتاني ··· آه يا إيفان »[٢] ·

ويقول عن برلين الشيوعية :

« ربى الشيوعيون شعرك

طيبوه ودللوه

ربوه بالفرح المقدس »[٣] ·

= سعيد محمدية ، دار العودة ، بيروت ·

(١) ديوان سميح القاسم ص ٤٨٧ ·

(٢) المصدر السابق ص ٥٢٢ ·

(٣) المصدر نفسه ص ٣١١ ·

ويقول عنها :

« برلين تعرفني

وتذكر قامتي ودمي وصوتي »[١] .

وله قصائد كثيرة يعظم فيها عدداً من الشيوعيين ، أمثال كاسترو رئيس كوبا ، وناظم حكمت الشيوعي التركي ، والشيوعي الأسباني لوركا ، والشيوعي اليوناني فيكيس وغيرهم [٢] .

ويتغني محمود درويش بالبلاد الشيوعية ، معظماً إياها ويقول :

« دعوني أكمل الإنشاد

مع الكونغو ... مع الغابات

دعوني أكمل الإنشاد

مع الدانوب والأردن والفولغا »[٣] .

ويقول

« عيناك وكوبا أغلى من دمي

وحياتكما أحلى من موتي

يا كوبا يا أمي »[٤] .

ولمحمود درويش معشوقة يهودية ، يقال لها «شوليت» ، انتزعها منه يهودي يقال له «سيمون» فقال درويش قصيدة جاء فيها :

« وأتى سيمون يدعوها إلى الرقص

---

(١) نفسه ص ٧٢١ .

(٢) راجع المصدر السابق .

(٣) ديوان محمود درويش ص ٣٤٩ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٣٢ .

فلبّت

كان جندياً وسيم

كان يحميها من الوحدة في البار ،

ويحميها من الحب القديم

ومن الكفر بقوميتها ...

شوليت انتظرت سيمون – لا بأس إذن

فليأت محمود ... أنا أنتظر الليلة عشرين سنة ...»[1] .

وانظر تعلق أدونيس بأفكار ماركس في كثرة استشهاده بأقواله وكتاباته ، وسائر كتابات الماركسيين والشيوعيين ، مما يدل على موافقة الحداثة للماركسية في كثير من أسسها وتعاليمها ، وذلك بسبب إفادتها منها .

يقول أدونيس :

« كتب ماركس سنة ١٨٤٣ (إن مهمتنا هي أن نعري العالم القديم تعرية تامة ... ، نريد أن نجد العالم الجديد بنقد العالم القديم ...، إننا نعلم علم اليقين ما يجب علينا أن نحققه في الحاضر ، وهو نقد النظام القائم كله نقداً لا هوادة فيه ...) ....

ولما كانت بنية الثقافة والحياة العربيتين السائدين تقوم في جوهرهما بالدين فإننا نفهم أبعاد ما يقوله ماركس من أن (نقد الدين شرط لكل نقد) ... ، وإذا فهمنا بالتالي أن النقد عند ماركس ليس عقلياً تجريدياً، بل عملي ... نستطيع أن نقول : إن النقد الثوري للموروثات العربية شرط لكل عمل ثوري عربي»[2] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٠ .

(٢) مجلة مواقف ع ٦ ، ١٩٦٩م ، الافتتاحية .

ويدعو أدونيس صراحة إلى الماركسية ، ويطالب بالانفتاح عليها، وجعل سبيل الحداثة سبيل الثورة الاشتراكية ، التي هي « الرؤيا الحديثة بامتياز» على حد زعمه [١] .

وتأمل قول أدونيس ، عندما تحدث عن الفتن التي وقعت في عهد عثمان بن عفان – رضي الله عنه – وما أعقبت مقتله ، فعلّق على ذلك أدونيس قائلاً :

« غير أن هذا كله تم بمقتضى التطور التاريخي ، وصراع الطبقات الاجتماعية ، والأوضاع والظروف الحياتية في مختلف أشكالها ، أكثر مما تم بمقتضى سياسة الخلافة ؛ لذلك لم يحل دون قيام الثورات على الخلافة ، بل على العكس ، كان مما عمق الحركة الثورية ، وأعطاها بعداً أكثر جذرية .

وهكذا واكب نشوء الخلافة العباسية نشوء الثورة عليها ،تماماً كما كانت الحال في العهد الأموي ...»[٢] .

يعلق على هذا القول ، أحمد الشيباني ، فيقول : « ويتضح مما قاله أدونيس القانون الأول من قوانين الديالكتيك ، أي قانون التناقض ووحدة الأضداد وصراعها ، أي المقولة الماركسية الصريحة ، والقائلة بأن كل قضية (أطروحة) تحمل نقيضها (الطباق) في أحشائها ...»[٣] .

ونجد أدونيس في ثورته على البنية العقدية السائدة في العالم العربي يستعين بآراء لينين ، ومما قاله أدونيس في ذلك :

---

(١) انظر : فاتحة لنهايات القرن ص ٣٢ .

(٢) الثابت والمتحول ٢/٦٤ .

(٣) صحيفة الرياض ١٥/٩/١٤٠٨هـ ، ص ٥ .

« كان لينين يأخذ على الديمقراطيين البورجوازيين الصغار تقليدهم الذليل للماضي ، وهذا ما يمكن أن نأخذه على ممثلي الثقافة السائدة في الحياة العربية»[1] .

ويصف الحداثي المصري غالي شكري الشعر الحديث في العالم العربي فيقول :

« شعرنا الحديث في مختلف مراحل تطوره ، ومنذ بدايات الحمل به إلى مولده ، اقترن إلى حد كبير بحركة الأدب الواقعي من ناحية ، والمد الثوري للشعوب العربية من ناحية أخرى ، أي أنه التزم – جمالياً – بصياغة النماذج الواقعية في الأدب الاشتراكي ، كما التزم – اجتماعياً – بالنضال الجماهيري في بلادنا ...»[2] .

ولغالي شكري كتاب بعنوان «الماركسية والأدب» ، ضمنه تمجيداً عظيماً للماركسيين وأدبهم .

ويعترف الحداثي المصري صلاح عبدالصبور بأثر الفلسفة المادية على منهجه الحداثي ، حيث قال :

« ساعدتني الفلسفة المادية التى كنت قد اقتربت منها اقتراباً كبيراً ، وبخاصة بعد تخرجي من الجامعة عام ١٩٥١م على أن أجد في الإنكار لوناً من الوقت الفكري الموحد المتماسك»[3] .

ويقسم الحداثي المغربي محمد عابد الجابري الغرب إلي قسمين ،

---

(١) زمن الشعر ص ٨٧ ، وانظر : أقوالاً له حول ذلك في الأدب الجديد والثورة كتابات نقدية ص ١١٨ .

(٢) شعرنا الحديث إلى أين ص ٢٢ .

(٣) حياتي في الشعر ص ١٥٠ .

مذموم وهو الاستعماري ، وممدوح وهو «غرب الأنوار ، وغرب الليبرالية ، وغرب الماركسية ، وغرب العقلانية»[١] .

ثم يفتخر بالممارسة الماركسية فى العالم العربي ، والتي – على حد زعمه – « ستحررنا من التمسك الصوفي بالقوالب الجاهزة ، ومن غياب الروح النقدية تلك ، طبعا ، يمكن تفسير المسألة من جوانب أخرى ، ولكن المهم في اعتقادي هو أن المسألة ليست مسألة صميمية في الفكر العربي ، ولكنها مرحلة ، مرحلة فقط ، مرتبطة ، طبعاً ، بالمرحلة التي عاشتها الستالينية كأيديولوجية مهيمنة»[٢] .

لذا قال عنه كمال عبداللطيف :

« يستحضر الجابري في دراساته سلطاً مرجعية فلسفية ، ومنهجية متعددة ، ... طموحات الديكارتية ... ، فلسفة الأنوار ... ، الفلسفة المعاصر ... ، بعض مفاهيم فوكو وبياجي وألتوسير وغرامشي... إلخ ، بالإضافة إلى كل ما سبق نجد عنده تفتحاً على بعض المفاهيم الماركسية في صورتها النقدية»[٣] .

وفي موضع آخر يصرّح الجابري بارتباطه بالماركسية وغيرها من الفلسفات ، فيقول في مقدمة أحد كتبه :

« سيلاحظ القارىء أننا نوظف مفاهيم تنتمي إلى فلسفات ، أو منهجيات ، أو قراءات مختلفة متباينة ، مفاهيم يمكن الرجوع ببعضها إلى كانت ، أو فرويد ، أو باشلار ، أو ألتوسير ، أو فوكو ، بالإضافة إلى عدد

---

(١) التراث والحداثة – دراسات ومناقشات ٢٤٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٥١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٨٠ .

من المقولات الماركسية ، التي أصبح الفكر المعاصر لا يتنفس بدونها»[١] .

فهل الفكر المعاصر لا يستطيع أن يتنفس بدون المقولات الماركسية ؟!! ، أبداً ، إلا عند الحداثيين وأمثالهم .

ويقول الحداثي السوري سليمان العيسي ، واصفاً تأثره بالماركسيين ، وغيرهم من الفلاسفة الأوروبيين :

« وبالنسبة للشعر الأجنبي أنا تأثرت ، وأنا تميز بالشعر الأجنبي ... ، لوركا لا يزال يهزني ، كلما قرأته منذ ربع قرن إلى الآن... ، تأثرت كثيراً بالشعر الأجنبي ، وأنا مدين له بكثير من الصور والأفكار حتى الانفعالات التي أخذتها ، لوركا مثلاً ، مايكوفسكي ...»[٢] .

ويصرّح الحداثي المغربي سعيد بنسعيد بدعوته إلى وجوب تبني الماركسية ، فيقول أثناء حديثه عن ضرورة النقد الأيديولوجي كسبيل للتحديث :

« القول بالنقد الأيديولوجي كسبيل ومنهج لمجاوزة النقص الأيديولوجي ، التعبير الفكري الحقيقي عن التأخر التاريخي ، هو قول يجعل المثقف العربي المعاصر ينتهي في نهاية تحليلاته إلى التقرير بوجوب تبني الماركسية ، الماركسية المؤولة على نحو معين هو النحو الذي يلائم ظروف وواقع هذا المثقف ، هذا يعني أنه يطلب من الماركسية شيئاً واضحاً محدداً ، يبحث عن ماركس الذي يعنيه ، أي الذي يرسم له الطريق لمجاوزة التأخّر التاريخي - ماركس الذي يمكنه بما هو في حاجة إليه من سلاح النقد الأيديولوجي»[٣] .

---

(١) الخطاب العربي المعاصر - دراسة تحليلية نقدية ص ١٢ .

(٢) في قضايا الشعر العربي المعاصر - دراسات وشهادات ص ٢٨٧ .

(٣) الأيديولوجيا والحداثة - قراءات في الفكر العربي المعاصر ص ٤٤ .

فهو يدعو إلى « فهم الدرس الماركسي في حقيقته كدرس ناجع عملياً ومفيد تطبيقيا ؛ ولكي نفهم الدرس ينبغي أن نتأمل حالة المجتمعات التي كانت توجد في وضعية شبيهة بوضعية مجتمعات العالم الثالث ، أي وضعية المجتمعات التي استطاعت أن تتدارك التأخر التاريخي ، لنأخذ مثالين قويين وشهيرين معاً : مثال ألمانيا ، ومثال روسيا ...»[١] .

ثم يصرّح أكثر فيقول :

« هذا هو المعنى الدقيق للنقد الأيديولوجي : إنه نقد لا تستطيع أن تمارسه إلا الماركسية وحدها ، إلا نوع واحد من الماركسية ، هو هذا الذى يأتي التقاء المثقف العربي به التقاءً حتمياً ، وهو ماركسية ماركس الأيديولوجي ، أو الماركسية التاريخية»[٢] .

ومن الحداثيين الداعين للاشتراكية والثورة الماركسية ، المطبقين لها في دراساتهم النقدية للتراث ، الحداثي محمد دكروب ، فإنه يدعو إلى : « معركة التغييرات الجذرية في تركيب المجتمع العربي ، معركة التوجه نحو الاشتراكية ، وهي خصوصاً معركة حرية كل القوى الوطنية والتقدمية في الإسهام الفعلي في هذه المعركة ، إن دمقراطية الجماهير هنا ، أي حرية قواها الوطنية والتقدمية هي العامل الأساسي في التوجه الجدي نحو التحرر والاشتراكية والوحدة القومية ، وبدون هذه الدمقراطية لا يمكن أن يقوم بناء

---

(١) المصدر السابق ص ٤٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧ ، والكتاب كله يبحث في تحديث الفكر العربي وإعادة النظر فيه ، وفي مصادره من منظور ماركسي ، نقد تأريخي ، ثورة وصراع وجدل مع الماضي ، حتميه تأريخية ، ضرورة التغير والتحول ... إلى غير ذلك من المصطلحات الماركسية ، فليراجع الكتاب للاستزادة من الأقوال النظرية والتطبيقات العملية .

راسخ للوحدة وللاشتراكية في بلادنا ، ولا يمكن أن نصل إلى انتصار حقيقي في معركة المصير»[١] .

ومرة أخرى أعود إلى الحداثي النصيري الثائر ، أدونيس ، حيث يدعو إلى اليسار في ندائه الثوري ، إذ يقول :

« كي تستوي ... كي تكون .. خذ يدها من هنا ... خذ وجهها ...

– وابتكر شرارة

– واستبح زُنّارها ... والكتِف الجامدة ..

واشدد إلى اليسار .. محورها الحنون ... وحرِّك الزاوية (القاعدة) ... وغيِّر الأساس ... والحجارة .. وغيِّر القاعدة ...»[٢] .

يعلق حسين أحمد حيدر على قول أدونيس ، فيقول :

« لذلك فأدونيس يطالبنا بتناول القاعدة ، وشدها حتى (تستوي) ، فهو يراها مائلة ، وهي لديه بليدة جامدة ، غير قادرة على التطور؛ لذلك فهو يطالبنا بإيقاظها من غفلتها ، وشدها نحو (اليسار) ؛ لأن الاشتراكية هي قدر كوني محض ، إنه يطالبنا بالتغيير القواعدي»[٣] .

لذا فإن حسين أحمد حيدر يعلل وجود (النشاز) في الأدباء بقلة اطلاعهم على الفكر الاشتراكي [٤] .

---

(١) الأدب الجديد والثورة – كتابات نقدية ص ٦٠ ، وليراجع الكتاب ، فإن أغلبه دراسات نقدية على ضوء المنهج الثوري الماركسي ، يدعو إليها المؤلف ويطبقها على الفكر العربي والأيديولوجية السائدة في العالم العربي ، وانظر: إشادته بلينين ص ٧٧ وغيرها .

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ١٥٨/٢ .

(٣) تحديث وتغريب ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٤) انظر : المصدر السابق ص ١٠٠ ، ١٠١ .

وفي مقابلة معه قال أدونيس :

« أنا أعتبر الماركسية منهجاً... ، إنها تقدم لي منهجاً في التفكير»[١] .

ويؤكد عبدالعزيز النعماني أن منابع الثورة الحداثية هي عصارة الماركسية والنظريات اليهودية والفلسفات العقلانية ، تلك المذاهب التي برزت في القرن التاسع عشر الميلادي .

وفي ذلك يقول :

« إن المفهوم الحضاري الحديث يعني ذلك التصور الجديد للعالم، الذي اقتحم نظرة الإنسان إلى الكون والإنسان والمجتمع في العقدين الأخيرين من هذا القرن ، ولئن كانت هناك إرهاصات متنوعة عرفها الفكر الإنساني في بداية هذا القرن ، ومع مقدمات الحرب العالمية الأولى ؛ فإنها لا تعدو كونها إرهاصات آذنت بالتغير الثوري الجديد، ولم تكن التغيير نفسه .

وإذا جاز لنا أن نقول : إن الانقلابات الفكرية التي صاحبت القرن الماضي هي التي مهدت ورافقت وتفاعلت مع ثورة القرن العشرين ؛ فإن هذا لا يمكننا من تحديد المنابع الثورية لحضارتنا الراهنة ما لم نعد إلى تلك الجذور المتشابكة في المساحة الزمنية للقرن التاسع عشر ، التى تغلب عليها عصارة الماركسية والداروينية والميثولوجية ، فقد كان التفكير المادي ، العلمي ، العقلاني السمة الجذرية لحضارة ذلك العصر . ... .

لقد كانت العقلانية والتجربة في القرن التاسع عشر أساس الاتجاهات الفنية والأدبية ، التي ظهرت آنذاك من الواقعية والطبيعية بل والرومانسية أحياناً ، كذلك كانت رؤيا القرن العشرين أساساً للاتجاهات

---

(١) أسئلة الشعر في حركة الخلق وكمال الحداثة وموتها ص ١٤٢ .

الأدبية والفنية المعاصرة ، من الحدس واللاتحدد وغيرهما من أساليب الفكر اللاعقلي المضاد للتجربة والعلم ، بل إن هذه الاتجاهات كانت أساساً للسريالية والدادية والعبثية والشيئية ... إلخ»[١] .

والملحوظ أن عدداً كبيراً من الحداثين في العالم العربي لهم ارتباط عضوي بالأحزاب الشيوعية ، وعدداً آخر دعا إلى الفكر الماركسي دعوة صريحة [٢]، وبعضهم انتسب إلى الماركسية وتستر بمسميات شتى خشية الفضيحة .

ويؤكد الحداثي السوري عبدالكريم الناعم أن الحداثيين « تعبق رائحة الماركسية في كتاباتهم ، أو فيما يوحون ، أو يصرّحون به»[٣] .

كما يؤكد أن الحداثة ترتبط « عربياً بالفكر القومي التقدمي الاشتراكي»[٤] .

ويتحدث حسين مروّة عن نشأة الإسلام ، وعن القرآن ، والتوحيد، كظواهر ثورية ، تمردت على عصرها ، ويحلل التراث الإسلامي من منظور مادي ماركسي ، ويصرّح بأنه يتبنى « الاتجاه النقدي الثوري ، الذى يعارض نزعة التقديس للماضي ، بل ينظر إليه في ضوء القوانين العامة لحركة التطور التاريخي ...»[٥] ، وقد طبق قوانينه الماركسية في دراسته للإسلام والقرآن والتوحيد ، ونحو ذلك [٦] .

---

(١) فن الشعر بين التراث والحداثة ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٢) الحداثة في منظور إيماني ص ٢٧٨ .

(٣) في أقانيم الشعر ص ١٩ .

(٤) المصدر السابق ص ٧٤ ، وانظر : ص ١٠٦ .

(٥) دراسات في الإسلام ص ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٨ .

(٦) انظر : المصدر السابق ص ٧-٣٧ ، وانظر : ص ١٢٨ ، وراجع كتابه النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية .

ويقول الحداثي الماركسي المصري حسن حنفي :

« وأنا هنا ماركسي أكثر من الماركسيين ، إن الحزب البروليتاري هو الوريث الوحيد للأفكار» ، وقبل هذا دعا إلى التعاون مع « الماركسيين والوطنيين والليبراليين» ، وكذلك - في موضع آخر - أثنى على تطور الماركسية ، ومناهجها [1] .

وقد أنشأ الحزب الشيوعي اللبناني مجلة «الثقافة الوطنية» وكان الحداثي اللبناني حسين مروة وصديقه الحداثي محمد دكروب محرريها الأساسيين [2] .

ويتغنى عبدالرحمن الخميسي بـ«موسكو» الشيوعية ، فيقول :

« أغنيك يا موسكو وأجنحة السنا   تهيم بطير الفجر فوق الأزاهر

وآه لهذا النور إني عبدته   وقاتلت - كي يهفو - وحوش الدياجر» [3]

ويثني الحداثي السوري حليم بركات على ماركس ، ودعوته الإلحادية فيقول :

« دعا ماركس للقول إن الدين يشكّل مصدراً من العزاء والتسويغ والسعادة الوهمية من هنا قوله : إن الدين هو (آهة المخلوق المضطهد ، وعاطفة عالم بلا قلب ، وروح أوضاع لا روح لها ، إنه أفيون الشعوب)... .

كان هاجس ماركس تغيير الأوضاع ، التي تولد مثل هذه الأوهام؛ ولذلك لم يكن من الغريب أن تلقى دعوته استجابة بين جماعات لاهوتية التحرير في أمريكا اللاتينية ، واليسار الإسلامي » [4].

---

(١) انظر : ندوة مواقف ، الإسلام والحداثة ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ .

(٢) انظر : هموم الثقافة العربية ص ٥٥ .

(٣) أشواق إنسان ص ٧١ .

(٤) ندوة مواقف - الإسلام والحداثة ص ٢٥٥ .

ويفتخر الحداثي السوري انطون مقدسي بانتسابه إلى « الحزب العربي الاشتراكي » ، وكان من الذين صاغوا دستوره ، كما أنه يثني كثيراً على الماركسية ، ويقول :

« أنا عمري ما كنت ضد الماركسية ، ماركس فيلسوف أصيل ، فكيف يمكن أن أكون ضده ! ذلك سخف ، وحتى الحركات الشيوعية العربية... لم أكن يوماً ضدها ... » ثم أثنى على ماركس ولينين وأمثالهما [١].

والحداثي هادي العلوي يؤكد انتماءه إلى ماركس ولينين ، وانتهاجه منهج الماركسية ، بل يؤكد انتهاج الحداثة منهج الماركسية ، فهو يقول عن نفسه :

« كماركسي لينيني ترتهن الحداثة في نظري بحيثيات التطور الاجتصادي { أي الاجتماعي – الاقتصادي } ، المتوجه بأفق ثوري نحو إنهاض الأمة من خلال إنهاض الطبقات الاجتماعية المسحوقة ... ، وإقامة غرارنا الخاص بنا من التطور الاجتصادي المضبوط بالمبادىء العامة للماركسية » [٢].

واقرأ قوله عن الحداثة :

« إن الحداثة كفعل ماركسي ستكون أشمل لمناحي الحياة البشرية من الحداثة المستندة إلى شرط الغربنة الليبرالي ، وهي بالتالي حداثة إنسانية الجوهر » [٣].

كذلك أثنى الحداثي هادي العلوي ، كثيراً على الصين « بثورتها

---

(١) انظر : قضايا وشهادات ٣/٩-١١ ، وانظر ص ٦٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٩٤ .

الشيوعية » ، و« بناء المجتمع الصيني الحديث بالماركسية اللينينية ...» [١].

وتحت عنوان « موقف الفلسفة الماركسية من مفهوم الحداثة » أكد الحداثي رمضان بسطاويسي محمد أن الحداثة « جدلية تؤمن بجدلية التغيير، وضرورة ممارسة النقد الأيديولوجي من منظور التاريخية الماركسية » [٢].

كما أنه أكد أن ماركس كان مهتماً بموضوع الحداثة وأيديولوجيتها ، وأن تحليله لها ، ودعوته إلى تطبيقها كان أدق من غيره ، حيث طبقها في دراساته الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية ، وكان ينهج منهجها ، وإن كان لا يستعمل لفظ الحداثة كثيراً .

كذلك حاول رمضان بسطاويسي محمد أن يثبت اهتمام الماركسيين عموماً بالحداثة ، وأنهم أسبق من غيرهم في تعريفها وتطبيقها [٣].

ويتساءل الحداثي محمد دكروب عن النقد الحداثي : « هل يمكن أن يتكوّن ، مثلاً ، خارج تيارالفكر الماركسي المتقدم والديمقراطي » ، ثم أجاب بنفسه قائلاً :

« لعلّي أرى أن الفكر الماركسي العربي هو المؤهل والمطالب بأن يرفع راية هذه المرحلة الجديدة في النقد ، بل لعلّي أقول : إنه آخذ بالدخول فيها وخوض غمارها » [٤].

وفي موضع آخر قال : « لَعَلّي أرى تباشير نقد أدبي ماركسي

---

(١) انظر : المصدر السابق ص ٩٤ – ٩٦ .

(٢) انظر : المصدر نفسه ص ١٩١ .

(٣) انظر : المصدر نفسه ص ١٨٨ – ٢٠٤ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٢٠ ، وانظر : ما كتبه الحداثي المصري غالي شكري عن الماركسية وتمجيده لها ، في مجلة الناقد ، تموز /يوليو١٩٨٩، ص٥٣ .

أكثر واقعية بقدر ما يكون أكثر علمية ، وأدق تحديداً ، وأشمل في نظرته إلى العمل الفني ككل ، في علاقاته الداخلية المتشابكة ، وعلاقاته مع مختلف البنى المرجعية المحيطة به ، والداخلة فيه »[(١)].

وقد ذكر نزار قباني أن غالبية الحداثيين « يساريون ، واشتراكيون تقدميون »[(٢)].

ولهذا فإن الحزب الشيوعي الثقافي في ما كان يسمى « الاتحاد السوفيتي » كان يوجه الدعوات إلى الحداثيين في العالم العربي لزيارة تلك المنطقة ، والمشاركة في مهرجاناتها الفكرية الماركسية[(٣)].

وقد ذكر إبراهيم العواجي أن « الحداثة ، والواقعية ، وبعض الأشكال الأدبية ، حملها إلينا اليسار العربي »[(٤)].

يقول أحمد الشيباني :

« إن معظم الحداثيين من كتاب وشعراء وروائيين وقصصيين ، وعلى الأقل في المشرق العربي ، ينسجون على منوال قطبهم أدونيس ، وذلك من حيث الأسلوب والمنهج والمذهب ، فأسلوبهم قد تحرر من معظم القواعد ، أو بالأحرى القيود التقليدية ، وبخاصة في ميدان الشعر والرواية والقصة ، أما منهجهم في تطلعاتهم الاجتماعية ، وطموحاتهم السياسية فهو المنهج الثوري ، وأخيراً فإن مذهبهم يتفرع عن الفلسفة المادية بعامة ، والماركسية بخاصة ، وذلك من حيث الممارسة ، أي من حيث ارتباط النظرية بالفعل ، أي

---

(١) قضايا وشهادات ٢/٢٢٣ .

(٢) انظر : الكون الشعري عند نزار قباني ص ١٩ .

(٣) انظر : محمد مندور وتنظير النقد العربي ص ١٢٤ ، ٢١٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧ .

(٤) مجلة الحرس الوطني ، ربيع الثاني ١٤١٢هـ ، ص ٩٥ .

من حيث تحوير كافة أشكال وألوان النشاط الموجه نحو تحرير الطبيعة والمجتمع ، كما يزعم الماركسيون ، الأمر الذي يجعل رفض الاتباع ، والقول بالتحول ، أي الإبداع ، كما يفهمه أدونيس ، أمراً ضرورياً ، وبذلك يكون الإبداع فعل ثورة ، الثورة على جميع الأعراف والتقاليد والشرائع والأخلاق والمعتقدات ، أي أنه يكون وفقاً للقانون الثاني من قوانين الجدلية ، نقيض الأطروحة ، أو بالأحرى نفيها »[1].

ثم يوضح كلامه أكثر فيقول :

« إن الحداثيين الأوروبيين ، وبخاصة آباء الحداثة الاوروبية (الرومانسيين والرمزيين) ، كانوا المتمردين والرافضين للمادية ، وكانوا لا الانعطاف عنها بل الانسلاخ عنها ، بينما نرى أن معظم أصحاب الحداثة من العرب لا يزيدون على كونهم امتداداً ، لا بل نمواً ورقياً للماركسية بماديتها الجدلية ، وتوأمها المادية التاريخية ، كأدونيس ، عبدالوهاب البياتي ، عبدالعزيز المقالح ، أحمد عبدالمعطي حجازي ، علي الجندي ، وسواهم »[2].

وقال عن أدونيس :

« من الطبيعي ، ونحن نعرف من يكون أدونيس ، أن يتبع منهج المادية التاريخية في تفسير التاريخ ، الذي يتمحور كما تقول الماركسية حول صراع الطبقات ، ويستند إلى العامل الاقتصادي المحض في تفسير تطور المجتمع »[3].

وتحدث محمد مصطفى هدارة عن مفهوم الحداثة ، وكان مما قاله عنه

---

(١) صحيفة الرياض ، ١٥ /١٤٠٨/٩ هـ ، ص ٥ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

« وهو يبدو في مظهره غريباً عن الفكر الماركسي ، ولكنه في الحقيقة وثيق الصلة بهذا الفكر ، وقد قيل : إن ماركس بحث عن المطلق والخفي في التأريخ ، وفي العلاقات الاجتماعية حتى خرج بنظريته ، وهذا هو المنطلق نفسه ، الذي صدر عنه أصحاب الحداثة ، كما أن فكرة الإنسان الكامل ، التي يتبناها أصحاب الحداثة بوصف الإنسان مركز الكون ، تقابل فكرة الإنسان الكلي في الماركسية ، وتتفق الحداثة مع الماركسية اتفاقاً كاملاً في الثورة على المفاهيم السائدة في مجتمع ما ، وعلى تقاليده وتراثه ، وفي محاولة هدم كل ما هو أصيل وثابت فيه ، وتأتي العقيدة في مقدمة ذلك .

ولهذا لا نستغرب أن يكون معظم الداعين للحداثة في العالم الغربي من الشيوعيين المعروفين ، مثل لوي اراجون ١٨٩٧ - ١٩٨١ م ، وهنري لوفيفر ، وأوجين جرندال ١٨٩٥- ١٩٥٢م ، حتى رولان بارت كان مولعاً بماركس .

وسنجد الداعين للحداثة في العالم العربي - دون تعيين أسمائهم - من أصحاب اليسار والباطنية والفكر القومي السوري ، وغير ذلك من تلك النحل الشاذة »[١].

ويقول عبدالباسط بدر :

« توزع قسم من أدبنا بين المعسكرين الشرقي والغربي ، ووجدت الكتلة الشرقية أدباء يجسّدون أفكارها ويدعون - من خلال أعمالهم الأدبية - إلى الالتحاق بها ، أمثال : عبدالوهاب البياتي ، ومحمد الفيتوري ، وعبدالرحمن الخميسي ، وعبدالرحمن الشرقاوي ، ومحمود درويش ، وتوفيق زياد ، وأحمد سليمان الأحمد ... وغيرهم .

---

(١) دراسات في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق ص ١٠ .

ووجدت نقّاداً يجتهدون في تثبيت الواقعية الاشتراكية (الصياغة الأدبية للماركسية)، أمثال : محمود أمين العالم ، وعبدالعظيم أنيس ، ورجاء النقاش ، وحسين مروة ، ومحمد مندور ، وعبدالمنعم تليمة ... ، ووجدت الكتلة الغربية أبواقاً تدعو بقوة إلى اعتناق حضارتها ... أمثال : أدونيس ، ويوسف الخال ، وسعيد عقل ، وغالي شكري وغيرهم »[(١)].

وإن مما يدل على أن الشيوعية مصدر قوي للحداثيين في العالم العربي كثرة استعمالهم للألفاظ الشيوعية كالحتمية ، والجدلية ، والصراع والنقيض ، والتضاد ، والثورة ، والتحول والتغيير ، والمرحلية ، وأمثال ذلك.

ومن الأمثلة من كلام الحداثيين مايلي :

١- يقول أدونيس :

« إذا كانت القصيدة الخليلية مجبرة على اختبار الأشكال التي تفرضها القاعدة أو التقليد الموروث ؛ فإن القصيدة الجديدة نثراً أو وزنا حرة في اختبار الأشكال التي تفرضها تجربة الشاعر ، وهي من هذه الناحية تركيب جدلي رحب ، وحوار لا نهائي بين هدم الأشكال وبنائها »[(٢)].

٢- ويقول أيضاً :

« ... ، وهكذا تكتمل رؤيا الشاعر في جدلية الأنا والآخر الشخصي والتاريخ ، الذات والموضوع ، الواقع وما فوق الواقع .

والاتجاه إلى الممكنات ثورة دائمة ضد التقليد والثبات ، والشاعر يطمح إلى أن يكون وأن يبقى ثورة بهيام آخر ، بهوى مغاير يقتلع الإنسان ويرميه في بوتقة الطاقة والتحول ، حيث لا يعود له يقين غير يقين الإنسان،الكل والكون ... .

---

(١) مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي ص ٥٧ .

(٢) مقدمة للشعر العربي ص ١١٤ .

ومن هنا يعيش الشاعر ويكتب مأخوذاً بالمستقبل ، وهاجس المستقبل هاجس صيرورة واستباق ، هاجس تحول ، التحول وطنه الشعري ، والتحول يفترض الذروة والهاوية ، كل ذروة جزء من الهاوية وامتداد لها ، كل هاوية جزء من الذروة وامتداد لها ، الذروة والهاوية ، الماء والنار ، الرفض والقبول ، وجهان لحركة واحداة ، والإنسان جدل دائم بين حياته وموته ، بين بدايته ونهايته ، بين ما هو وما سيكون ، والشاعر يقيم شعرياً في أحضان الجدل المتحول ... .

ومن هنا يحدث أن يبدو الشاعر غامضاً ، متناقضاً ، تتعانق في كلماته ومشاعره النار والماء ، حتى ليخيل للكثيرين أن قصائده كأمواج البحر يمحو بعضها البعض الآخر .

ومن هنا غنائية الصيرورة والتحول في كل شعر عظيم تجرف التناقضات من كل نوع وتصهرها في بوتقة هدير واحد ، الريادة التي تكتشف المجهول في حركة التحول والصيرورة ... » [١].

٣- يقول الحداثي كمال أبو ديب في مقدمة أحد كتبه :

« ليست البنيوية فلسفة لكنها طريقة في الرؤية ، ومنهج في معاينة الوجود ؛ ولأنها كذلك فهي تثوير جذري للفكر وعلاقته بالعالم وموقعه منه وبإزائه ... ، تغيِّر الفكر المعاين للغة والمجتمع والشعر وتحوله إلى فكر متسائل قلق متوثب ، مكتنه ، متقصٍّ ، فكر جدلي شمولي في رهافة الفكر الخالق ... .

ولأنها كذلك تصبح البنيوية ثالث حركات ثلاث في تاريخ الفكر الحديث ، يستحيل بعدها أن نرى العالم ونعاينه كما كان الفكر السابق علينا

---

(١) المصدر السابق ص ١٢١ ، ١٢٢ .

يرى العالم ويعاينه ، مع ماركس ومفهومي الجدلية والصراع الطبقي بشكل خاص أصبح محالاً أن نعاين المجتمع كما كان يعاينه الذين سبقوا ماركس، ومع الفن الحديث ، وبعد أن رسم بيكاسو كراسيه - كما يعبر روجيه جارودي - أصبح محالاً أن نرى كرسياً كما كان يراه الذين سبقوا بيكاسو، ومع البنيوية ومفاهيم التزامن والثنائيات الضدية والإصرار على أن العلاقات بين العلامات ، لا العلامات نفسها هي التي تعني ، أصبح محالاً أن نعاين الوجود - الإنسان والثقافة والطبيعة - كما كان يعاينه الذين سبقوا البنيويه .

بهذا التصور ، وبالإصرار عليه ، يكون هذا الكتاب - الذي يهدف إلى اكتناه جدلية الخفاء والتجلي وأسرار البنية العميقة وتحولاتها - طموحاً لا إلى فهم عدد محدد من النصوص أو الظواهر في الشعر والوجود ، بل إلى أبعد من ذلك بكثير ، إلى تغيير الفكر العربي في معاينته للثقافة والإنسان والشعر ... .

وبهذا التصور أيضاً ، فإن طموح هذا الكتاب ثوريٌ تأسيسي ، وفي الآن نفسه رفضي نقضي ... »[١].

٤- يقول عبدالله الغذامي في كتابه الموسوم بالخطيئة والتكفير :

«... ، ففي قوله تعالى :﴿ **طلعها كأنه رؤوس الشياطين** ﴾[٢]، نحن لسنا بحاجة إلى الوجود العيني للشياطين كي ننفعل بهذه الآية ، فالجملة هنا تقوم بتأسيس انفعالها في نفس المتلقي عن طريق طاقتها التخييلية ، الذي هو التحكم الذاتي ... ، بأن تعتمد البنية على نفسها لا

---

(١) جدلية الخفاء والتجلي - دراسات بنيوية في الشعر ص ٧ ، ٨ .

(٢) سورة الصافات ، الآية ٦٥ .

على شيء خارج عنها ، وهذه النظرة التكاملية في تصور الوحدة تخدم في تقديم العمل الأدبي ... على أنه قيمة جوهرية ذاتية التولد وذاتية التحول ... »[١].

٥- ويقول أيضاً :

« الشفرات الرمزية ، وهي تقوم على التصور البنيوي في أن الدلالة تنبثق من خلال مبدأ التعارض الثنائي ، الذي يقوم على الاختلاف بين العناصر المكونة للنص ... ، أو التعارض الثنائي الذي ينشأ بين الجنسين، ويتفتح في مطلع حياة الإنسان عندما يلحظ وهو طفل أن آباه وأمه كائنان مختلفان ، وأنه يشبه أحدهما ، ويختلف عن الآخر ... »[٢].

ثم يقول :

« وهكذا يدخل آدم ومن بعده بنوه في صراع دائم بين قطبين أزليين هما الخطيئة والتكفير »[٣].

٦- ويقول عبدالله الغذامي - أيضاً - في حديثه عن شعر الحداثي محمد الثبيتي :

« كانت الخلفية الشعرية واضحة المعالم ، وكانت تنم عن مشاعر مجرب يعرف ما هي القصيدة ، ويعلم أنها عالم معقد ، عالم واسع ، مشروع غامض ، وأنها دخول في الزمن ، وأنها مسافة شاسعة بين الواقع وبين الحلم ؛ وهي لذلك لا علاقة لها بالواقع ؛ لأنها واقع نقيض ، هو الحلم في النهاية »[٤].

---

(١) الخطيئة والتكفير - من البنيوية إلى التشريحية ، قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر ص ٣٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ١١٢ .

(٤) صحيفة عكاظ ع ٧٥١٧ ، ٢٦ /٥/١٤٠٧هـ ، ص ١٠ .

٧- يقول عبدالرؤوف الغزال :

« هناك قناعات خاصة بي بدأت تتبلور في وعيي ، وهي عن جدوى النقد المطروح في الساحة ، معظمه نقد اللحظة الآنية ، هو مجرد تعليق على قصيدة نشرت في صحيفة أو قصة ألقيت في أمسية عابرة ، وذلك غير مجد بتاتاً ، قد يقول البعض : إن ذلك ضرورة مرحلية ، لكنها مرحلية أن يتأسس عبرها فكر نظري ، أو نقد تطبيقي ، يجب أن يتهيأ نقاد وباحثون يشتغلون على مشاريع متكاملة ، يؤسسون عبرها للمتغيرات الاجتماعية في المستقبل »[1].

٨- يقول الحداثي محمد العلي :

« لا شك أن الشروط الاجتماعية التي أفرزت الحداثة الغربية ليست متوفرة لدينا ، ولا يمكن توفرها إلا بعد عقود عديدة ، فالحداثة هي ذلك الإفراز الجدلي ، الذي يتم بين السياقات ، ووفق صراع لا يدرك بالعين المجردة ؛ ذلك الإفراز الجدلي المتقدم إلى الأجمل والأعمق في رؤية الإنسان والحياة هو ما أسميه وأعتقد بأنه الحداثة »[2].

٩- يقول الحداثي السعودي سعيد بن مصطلح السريحي :

« وإذا كانت خصوصية رؤيا الفنان هي أولى علامات انفصاله عن الجماعة ؛ فإنها هي التي تستعلي به إلى مرتبة الفن ، وهذه الرؤيا الإبداعية تنبثق من خلال العلاقة الجدلية التي تربط الذات بالعالم ... .

إن الرؤيا الإبداعية هي تحرر الروح من أسار الضرورة وانطلاقها وراء حدود الامكان ، وتشوفها نحو المثالي ، وسعيها باتجاه المطلق ، وذلك هو جوهر الفن كما يراه رائد الجدلية المثالية هيجل »[3].

---

(١) المصدر السابق ع ٧٤٦١ ، ١٤٠٧/٣/٢٩ هـ، ص ١٣ .

(٢) المصدر نفسه ع ٧٤١٢ ، ١٤٠٧/٢/١٠هـ ، ص ٩ .

(٣) الكتاب خارج الأقواس - دراسات في الشعر والقصة ص ٣٨ ، ٣٩ .

المصدر الثالث
الوجودية

الوجودية من أشهر مصادر الحداثة في العالم العربي ، ويتضح ذلك من خلال حديث الحداثيين في العالم العربي عن الوجود الإنساني ، والذات الإنسانية والأحلام والخيالات أحياناً ، والتشاؤم والنفور والاكتئاب والقلق في حالات كثيرة ، وكذلك كثرة إشادتهم بفلاسفة الوجودية وأقوالهم .

انتقلت الوجودية من الغرب إلى العالم العربي ، وقد كان عبدالرحمن بدوي من أبرز من ترجم أصولها الغربية ، وروج لها في البلاد العربية ، وحاول أن يوفق بينها وبين الصوفيه والفلاسفة المنتسبين للإسلام، فهو يقرر أن :

« الوجود الذي تتخذه كل من الصوفية والوجودية موضعاً لها هو الوجود الإنساني » [(١)] ، وأن « بين كلتا النزعتين ، الصوفية والوجودية صلات عميقة في المبدأ والمنهج والغاية » [(٢)].

وقد أشاد عبدالرحمن بدوي بالاتجاه الوجودي الذي سلكه (بودلير) في كتابه أزهار الشر ، ومن ثمَّ قرر أنه لا شأن للوجودي « بأية أحكام تقويمية خارجه عن نطاقه الفني الخالص ، سواء أصدرت هذه الأحكام عن الدين أم عن الأخلاق ، ومعنى هذا بكل وضوح أنه إذا وجد الرذيلة أو القبح أو الشر أوفر حظاً في التمكين من الإبداع فلا جناح عليه مطلقاً في أن يتخذها ... ، الخطايا والشرور والرذائل وما إليها أدل على

---

(١) الإنسانية والوجودية في الفكر العربي ص ٧٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٣ .

حقيقة الوجود ، وأقدر على الكشف عن نسيجه »[١].

وقد نادى محمد النقاش بالوجودية ؛ لأنها « تمثل الاستجابة المباشرة لحاجة الإنسان المعاصر إلى إعادة النظر في مقومات وجوده ، ثم محاولة تكييفها على شكل جديد بإرادته واختياره »[٢].

ويرى أحد الباحثين في الحداثة أن مجلة الآداب البيروتية رسخت الفكرة الوجودية في الإبداع العربي

ثم قادت مجلة شعر البيروتية – أيضاً – الصيغة الوجودية إلى نهايتها المنطقية [٣].

ومما لا شك فيه أن اليأس والاغتراب والقلق وغيرها من المضامين الوجودية الغربية ، كالانفصال واللامكانية واللاتاريخية لها أثر واضح عند شعراء الحداثة في العالم العربي ، كالبياتي مثلاً ، لا سيما في قصيدته (مسافر بلا حقائب) في ديوانه (أباريق مهشمة) [٤].

كما ظهر الأثر الوجودي في شعر السياب ، وكأنه يستلهم بودلير في موقفه الوجودي ، الذي يعبر عنه بالتمرد ، ورؤية الجمال في القبح والشر والرذيلة .

ويرى أحد الباحثين أن صرخة جان بول سارتر (الجحيم هو الآخرون) تتردد عند السياب [٥]، في قوله :

« وعر هو المرقى إلى الجلجلة

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٩ .

(٢) مجلة الآداب ، حول الأدب الديموقراطي ، نوفمبر ١٩٥٣م ، ص ٤٣ .

(٣) بحثاً عن الحداثة ص ٣٧ .

(٤) انظر : الشعر العربي المعاصر ص ٢١٢ وانظر : ديوان البياتي ١/١٣٤ .

(٥) انظر : حركة الحداثة الشعرية ص ٤٩ .

والصخر ياسيزيف ما أثقله

سيزيف إن الصخرة الآخرون »[١].

وتبرز تلك المضامين الوجودية في شعر الحداثيين ، صلاح عبدالصبور، وأدونيس ، ويوسف الخال ، وخليل حاوي ، وجبرا إبراهيم جبرا وغيرهم .

« وشعر أدونيس يتسع للأفكار الوجودية بكل أصولها وجزئياتها فنرى فكرة التمرد تقود إلى مشكلة الاختيار الوجودية في قوله :

« ماذا ، إذن تَهْدمُ وجه الأرضْ

ترسمُ وجهاً آخراً سواهْ

ماذا ، إذن ليس لك اختيارْ

غير طريق النارْ

غير جحيم الرّفضْ

حتى تكون الأرضْ

مقصلةً خرساء أو إلهْ »[٢].

أما ديوانه (التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار) فهو تصوير ناطق بالفكر الوجودي في تمرده ورفضه وقلقه ، وفي الإحساس الحاد بالغربة »[٣].

وترى زوجته خالدة سعيد أن مفهوم قصيدته (البعث والرماد) لا يمكن أن يتضح بغير توظيف الفلسفة الوجودية [٤].

ومن يقرأ في قصص كثير من الحداثيين يتضح له الأثر الوجودي

---

(١) انظر ديوان السياب ٢٩١/١ .

(٢) أغاني مهيار ص ١١١ ، والأعمال الشعرية الكاملة ٣٥٢/١ .

(٣) الاتجاهات الفكرية في العالم العربي وأثرها على الإبداع ص ١٧ .

(٤) انظر : مجلة شعر ع ٢ ، ١٩٥٧م ، ص ٣٧ .

العميق فيها ، فمثال ذلك المجموعة القصصية المسماه (الحيطان العالية) لأدوار الخراط ، (وغرباء) ، و(الكرة ورأس الرجل) لمحمد حافظ رجب ، و (الثور والعذراء) لمحمد الصاوي ، وغيرهم كثير .

وكذا يبدو الأثر الوجودي واضحاً في روايات سهيل ادريس وجبرا إبراهيم جبرا ، ونجيب محفوظ ، وغيرهم .

ويثني أنس الحاج على الاتجاهات الحداثية الغربية ، فيقول عن إحداها:

« والمعروف اليوم أن السريالية كانت تهدف إلى معرفة كاملة للإنسان والعالم » ، ثم يمدح دعاتها فيقول : « اتفق أنهم ألقوا أهم مركز إضاءة وتفجّر وإحساس شعري في القرن العشرين » ؛ ولشدة حبه وتأثره بالوجودية ؛ فإنه يعتذر عن دراسة أحد دعاتها ، معللاً ذلك بقوله إن أرتو « يربض عليّ ولا أستطيع »[1].

وعند أدونيس يقترن اليأس بالموت ، وكل واحد منهما يستدعي الآخر ، يقول أدونيس في ديوانه :

« لن أموّه جذور الطاعون – تحت شجرة يأسي أتفيأ ،
أجلس على أهدابي وأنتظر نسر الموت .
على كتفيْ غمامةٍ هاجر الأمل . كسر مزاميره في صدري .
أسمع طريقاً تنزف شقائق وأكفاناً ، أسمع نحيباً في الشوك .
أسميك أيها اليأس لكنك لا تُسمّى . بعد الآن لن نفترق
ولن نمشي معاً بعد الآن ... »[2].

وفكرة أدونيس هذه فكرة وجودية ، فالإنسان مشغول بذاته ، مهتم بوجوده ، يعيش في يأس وحيرة ، وهو حرٌ في اختيار ما يريد .

---

(١) انظر : المصدر السابق ع ٢٤، ص ١٠٣،وانظر ع ١٦ ، عام ١٩٦٠م ، ص ٩٢ .

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ٢٣٢/١ .

وقد رفض جان بول سارتر جميع القيم المسبقة ولم يُبْقِ إلا على قيمة واحدة مطلقة هي قيمة الحرية ، وذلك على أساس أن الإنسان وجود مستمر لحريته ، وبالتالي وجود مستمر لذاتيته فالإنسان « ليس سوى ما يصنعه من نفسه ، هذا هو المبدأ الأولي للوجودية »[١].

ويقول سارتر :

« الضياع والقلق والمسؤولية تحاصرني ، وأنا مسؤول عن كل شيء ... ، الذات الوجودية لا تعاني الخوف من العالم بل تعاني القلق »[٢].

وقد استمد الحداثيون في العالم العربي بعض المفاهيم من الفلسفة الوجودية ، يقول كمال أبو ديب :

« تبدأ الحداثة العربية في اكتناه الذات ، وتنتهي برفض العالم،... يتحول التوق الصغير للبوح بما في القلب إلى انفجار عارم في وجه العالم ، وتصبح الذات معلقة بين انسحاقها القائم ونزوعها المبرح إلى الحرية ، إلى عالم فسيح كالسماء ، طليق بلا حدود »[٣].

ثم يقول بأن الحداثة تعيش « في مناخ من الحرية المطلقة ، الحرية التي تخلقها هي ذاتها ، ولا تمنح لها منحا ، وهذه الحرية مُولدة لذاتها ؛ ولأنها كذلك ، فليس ثمة من قيود تحدّها ، أو قوانين مسبقة تضبطها »[٤].

وقد أجرت إحدى المجلات حواراً مع الفيلسوف الحداثي المصري

---

(١) الاغتراب في الفلسفة المعاصرة ص ١١٩ ، وانظر : الإبداع ومصادره الثقافية عند أدونيس ص ١١٥ .

(٢) الفكر الوجودي عبر مصطلحاته ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٦٩ .

(٣) مجلة فصول ، مج ٤ ، ع ٣ ، ١٩٨٤م ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٨ .

عبدالفتاح الديدي ، فقال مجري الحوار وهو محمد متولي : « ومن خلال حوارنا معه سوف نتعرف على معطياته المنطقية والفلسفية ، كما سوف نتعرف على مواقفه من بعض قضايانا الفكرية ، المطروحة الآن في الساحة العربية ، وعلى رأسها قضية كيفية إيجاد مذاهب فلسفية عربية أصيلة ...»[١].

وكان من بين الأسئلة هذا السؤال :

« س – كنت من أنصار الفلسفة الوجودية فكيف بدأت علاقتك بهذا المذهب ، وماذا وجدت فيه من أفكار مشجعة على مناصرته ، وأين الوجودية الآن على خريطة الفلسفة العالمية ؟ » .

فأجاب : « اشتهرت الوجودية على يد د. عبدالرحمن بدوي ، الذى حرص على تقديم تعريفات بهذه الفلسفة الجديدة ، وللعلم فالوجودية انتهت كموجة خاصة بعد أن حلت محلها البنيوية على يد الفيلسوف الفرنسي (ليفي اشتراوس) ... » .

« س– وما أهم ملامح البنيوية كاتجاه فكري حل محل الوجودية، المجالات التي اهتمت بدراستها ، وتوجهاتها الفكرية ؟

جـ– البنيوية من الاتجاهات الفكرية الفرنسية ، التي حلت محل الوجودية ، وشاعت على ألسنة المفكرين في كل مكان ، وهي تهتم بدراسة البناء الذي تعتمد عليه العمليات الفكرية ، سواء من ناحية البناء النفسي أو البناء اللغوي ، والبنيوية من الفلسفات التي استطاعت أن تغزو المجالين الجامعي ، وغير الجامعي » [٢].

ولما سئل الروائي الجزائري (واسيني الأعرج) عن واقع الرواية في العالم العربي ، بيّن دور الوجودية الغربية فيها ، وكان مما قاله في ذلك ؛ ناقداً :

---

(١) مجلة الفيصل ع ١٥٨ ، شعبان ١٤١٠هـ ، ص ٥١ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٣ .

« إن كل ما يقذفه لنا الغرب هو شيء مقدس ، ويجب النظر له بشكل لاهوتي ، لا يقبل الجدل بتاتاً .

ولنا أن نذكر بالحالة في النصف الأخير من القرن العشرين ، تلقفنا الوجودية ، وهي تحتضر ، وبنينا لها صوامع لا يدخلها إلا المطهرون ، وفتحنا أعيننا على (كولن ولسن) ، و(سارتر) بشكل مندهش يقرأ العمل، لا من خلال مستوياته الفكرية ، ولكن من خلال الصحافة الغربية » [١].

ثم يعود بعد ذلك مادحاً للوجودية ، قائلاً :

« طبعاً لا يجب النظر إلى الحالة بسلبية كاملة ؛ لأن للوجودية دورها في تفتيح العقلية العربية الإقطاعية في عموميتها ، على نمط فكري جديد » [٢].

ويعلل انتقاده الأول بقوله :

« لكن المقصود هنا هو حالة السلبية ، التي واجهنا بها مثل هذا الفكر من موقف استلابي » [٣].

وممن تأثر بالوجودية الغربية ، وبشّربها في العالم العربي ، الحداثي المغربي محمد عابد الجابري ، فهو يدعو إلى الوجودية التي تكرّس الحرية كما يزعم ، حيث يقول :

« فيما يخص الوجودية أعتقد أنه يجب التمييز بين الوجودية في الفلسفة ، والوجودية في الأدب ، بالوطن العربي كانت تحاول أن تكرس هذا النوع من الحرية أو الفردية ... » [٤].

---

(١) الأدب العربي وتحديات الحداثة – دراسة وشهادات ص ٧٦ – ٧٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

(٤) التراث والحداثة – دراسات ومناقشات ص ٢٤٨ .

ثم انتقد الوجودية في الفلسفة العربية كما دعا إليها الفيلسوف الوجودي المصري عبدالرحمن بدوي ، وعلل الجابري انتقاده هذا بأن « الجانب الذي تميّزت به الوجودية في الغرب ، وخاصة مع سارتر في إشادته بالحرية ، وتمسكه بها ، وقضية الالتزام لا نجده في الوجودية في الفلسفة عند العرب ، وإنما نجد بعض أصدائه في الأدب »[1]، أي عند الحداثيين .

والحق أن الفرق بين الفلسفتين الوجوديتين ليس كبيراً ، سواء عند عبدالرحمن بدوي أم غيره .

ولما عدد عبدالوهاب البياتي العوامل المساعدة في تكوينه ، وتطوير إنتاجه ، ذكر منها « الأدب الوجودي ، وبخاصة أعمال كامي وسارتر »[2].

ويقول أحمد عودة الله الشقيرات :

« بالنسبة إلى مفاهيم الاشتراكية والوجودية ، والالتزام ، الذي تنادي به الفلسفتان كلتاهما ؛ فإننا ، نستطيع القول : إن فكرنا الحديث قد سار على نهج من هاتين الفلسفتين ، فمما لا شك فيه أن العرب حين ترجموا إلى لغتهم فكر الغرب وآدابه تأثروا بهذا الفكر ، شأنهم في ذلك شأن كل الأمم التي تترجم إلى لغاتها فكر الأمم الأخرى ، وآدابها ، قديماً وحديثاً ... ، أما الوجودية فكثيرون هم الذين يعرفون الفرنسية ، ويجيدونها ، كتابة وقراءة ، في سوريا ، ولبنان ، ومصر ، والمغرب العربي بدوله الثلاث ، فليس عجيباً أن تترجم كتب سارتر ، وغيره من الوجوديين ، كقصة الغريب ، وأسطورة سيزيف لألبير كامي ، وضياع في سوهو ، والشعر والصوفية لكولن ولسن ، وغيرها من المؤلفات الغربية في شتى الموضوعات والعلوم ... »[3].

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٩ .

(٢) مجلة شعر ع ٧٣ ، ١٩٦٨م ، ص ٥٨ . وانظر : أسئلة الشعر في حركة الخلق وكمال الحداثة وموتها ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٣) الاغتراب في شعر بدر شاكر السياب ص ٤٨ ، ٤٩ .

وتؤكد بعض الصحف أن الحداثين اختاروا الوجودية ؛ لأنها ثقافة عصرية متغربية [١].

وتحت عنوان « من الأصول الفكرية للحداثة » ذكر شكري محمد عياد أن أحد تيارات الحداثة واتجاهاتها صادر « من مذهب سابق عليها وهو الوجودية ، والمذهب الوجودي مذهب إنساني ، بل هو نهاية التطرف في المذهب الإنساني ؛ لأنه يقول إن الإنسان يخلق عالمه » ، وهو ما تقول به الحداثة [٢].

---

(١) انظر : صحيفة الأيام الثقافية ، ١٦/٣/١٤١١ ، ص ٩ .

(٢) انظر : قضايا وشهادات ١٨٥/٢ ، ١٨٦ .

المصدر الرابع
الباطنية

للباطنية دور كبير في نشأة الحداثة وانتشارها في العالم العربي ، وكان أدونيس من أوائل منظريها ، وهو نصيري باطني .

كذلك يتضح دور هذا المصدر الباطني في اهتمام الحداثيين العرب بالثورات الباطنية ، ورجال التصوف ، وحرصهم على إبراز ذلك ، واعتبار تلك الثورات والحركات الصوفية اتجاهات تمردية رفضت السائد والمألوف وثارت على الثابت والمعروف في العقائد والشرائع والسياسات (١).

لذا نجد أدونيس يتحدث عن تلك الفرقة التي وصفها بالمضطهدة والفقيرة ، إنها فرقة الشيعة ، الذين تعرضوا إلى قمع السلطة وملاحقتها واضطهادها ، مما جعلهم أكثر الناس فقراً وأكثرهم إبداعاً ، على حد زعمه .

وفوق ذلك عَدَّ أدونيس ثورة الزنج وأعمال القرامطة حركاة ثورية مضيئة أصدرها الشيعة خلال التأريخ المظلم (٢).

ولهذا يقول إحسان عباس :

« لا ريب في أن عدداً من الشعراء المحدثين ينتمي إلى الأقليات العرقية والدينية والمذهبية في العالم العربي ، وهذه الأقليات تتميز – عادة – بالقلق والدينامية ، ومحاولة تخطي الحواجز المعوقة ، والالتقاء على أصعدة أيديولوجية جديدة ، وفي هذه المحاولة يصبح التاريخ عبئاً ، والتخلص منه ضرورياً ، أو يتم اختيار (الأسطورة الثانية) ؛ لأنها تعين على الانتصاف

---

(١) انظر : مقدمة للشعر العربي ص ٨٦ – ٩٢ و ١٣٠ – ١٣٣ .

(٢) انظر : الثابت والمتحول ٢/٦٤ .

من ذلك التأريخ بإبراز دور تأريخي مناهض »[1].

ولا شك أن أدونيس يأتي على رأس هؤلاء الحداثيين المنتمين إلى أقليات باطنية بل إن الحداثيين لما ابتعدوا عن الدين الحق أصبحوا غرباء في عالمهم الإسلامي فأحسوا بالظلام والقهر والتخبط ، فثاروا على تأريخهم والمبادىء والثوابت الحقة ، وكل سائد ومألوف وقديم ما عدا الظواهر الفلسفية والباطنية والحركات الثورية .

لذا يرى أدونيس أن الحداثة في العالم العربي قديمة ، وأن هناك حداثة عربية غير ما جاء نا من الغرب وتتمثل في الحركات الثورية والباطنية .

فهو يقرر أن « مبدأ الحداثة ، ... هو الصراع بين النظام القائم على السلفية ، والرغبة العاملة لتغيير هذا النظام .

وقد تأسس هذا الصراع في أثناء العهدين الأموي والعباسي حيث نرى تيارين للحداثة :

الأول سياسي فكري ، ويتمثل من جهة في الحركات الثورية ضد النظام القائم ، بدءاً من الخوارج ، وانتهاء بثورة الزنج ، مروراً بالقرامطة ، والحركات الثورية المتطرفة ، ويتمثل من جهة ثانية في الاعتزال والعقلانية الإلحادية ، وفي الصوفية على الأخص .

وتلتقي هذه الحركات الثورية الفكرية حول هدف أساسي هو الوحدة بين الحاكم والمحكوم في نظام يساوي بين الناس اقتصادياً وسياسياً ... .

أما التيار الثاني ففني ، وهو يهدف إلى الارتباط بالحياة اليومية كما عند أبي نواس ، وإلى الخلق لا على مثال ، خارج التقليد وكل موروث كما عند أبي تمام ، الاتجاه الأول يلغي الارستوقراطية الوارثية في الحكم ،

---

(١) اتجاهات الشعر العربي المعاصر ص ١٢٩ .

والاتجاه الثاني يلغي عصمة الأوائل في الفن »[١].

كذلك اهتم أدونيس بتعظيم بعض رجال الشيعة ، فقد تحدث طويلاً عن مهيار الدمشقي ، ومظاهر الظلم الذي ورثه فأنتج قهراً وحرماناً وضياعاً ، وشبه حاله بحال مهيار ، مما جعله يؤلف ديوانا بعنوان (أغاني مهيار الدمشقي)[٢].

وتقول الحداثية خالدة سعيد عن زوجها أدونيس وكتابه :

« ... ، (الثابت والمتحول) الذي قرأ فيه الحداثة العباسية بوصفها صراعاً بين تيارين هما ، تيار الثبات الاتباعي ، المتمثل في السلطات والمؤسسات ، وتيار التحول العقلي الإبداعي المتمثل في ظهور التمرد والخروج والتفلسف ، وفضلاً عن هذا فقد أيقظ في شعره الأصوات المتمردة (الغفاري ، الحسين ، بشار) ، والشخصيات المؤسسة (صقر قريش) ، والثائرة (نادر الأسود ، علي بن محمد أمير الزنج ...) ...»[٣].

ويقول عنه يوسف سامي اليوسف :

« إن ما جعل منه نظيراً لهذا الفرنسي ، هو صدوره عن التراث السامي الأسطوري ، وعن الشعر التراثي الخصيب ، وكذلك الصوفية الإسلامية ... »[٤].

ويتحدث جابر عصفور عن جذور الحداثة ومفاهيمها فيبين أنها صادرة عن المبتدعة ، ويشيد بها ويقول :

---

(١) الثابت والمتحول ٣/٩، ١٠ وانظر : المصدر نفسه ٢/٦٤ ، ٦٥ ، وكذلك فاتحة لنهايات القرن ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

(٢) انظر : الأعمال الشعرية الكاملة ١/٢٤٥ .

(٣) مجلة فصول مج ٤ ، ع ٣ ، ج ١ ، ١٩٨٤ ، ص ٢٩ .

(٤) الشعر العربي المعاصر ص ١٩٧ .

« الحداثة مصطلح بالغ العراقة والجدة في الوقت نفسه ؛ ذلك لأنه يشير – تراثياً – إلى الصراع بين القدماء والمحدثين ؛ ذلك الصراع الذي بدأ مع القرن الثاني للهجرة ، عندما كان المحدث قرين البدعة ، وكانت البدعة قرينة تغير جذري ، يفرض إعادة النظر في الموروث من التصورات الأدبية والاجتماعية والدينية ، وكان ذلك على أساس من وعي متغير بواقع متحول من ناحية ، وعلى أساس من حوار مع تراث آخر ، يعاد إنتاجه لصالح هذا الوعي المتغير من ناحية ثانية ، وبالقدر نفسه يشير المصطلح إلى صراع جديد معاصر بين قدماء ومحدثين حول التغيرات الجذرية التي وقعت – ولا زالت تقع في القصيدة العربية المعاصرة منذ أعقاب الحرب العالمية الثانية »[1].

ويعزو أدونيس حركة الإبداع والتحول في المجتمع العربي إلى الباطنية والصوفية والثورات العقلانية والإلحادية ، فهو يقول :

« هكذا بين الثورة الاجتماعية والثورة الفكرية ، بين عقلانية المجتمع ، المقرونة بعقلانية الدين ، وإبطال النقل ، وباطنية الدين ، وإبطال الظاهر ، والمنهج الشكي الاختياري التجريبي ، وإبطال النبوة ، كانت تنمو حركة التحول والإبداع في المجتمع العربي .

وقد أخذت هذه الحركة منحى ذاتياً ، يرد الدين إلى كونه تجربة ذاتية ، ويرد الشعر إلى كونه هو الآخر تجربة ذاتية .

تجلت هذه الحركة في التصوف ، وتجلت في المنحى الشعري عند أبي نواس وأبي تمام .

أما الموضوعية الدينية فقد أخذت بعداً نقدياً جذرياً بانقلابها إلى نقيضها ، الموضوعية العقلية ، لم يعد الدين في هذا المنحى هبوطاً ليس

---

(١) مجلة فصول مج ٤ ، ع ٢ ، ج ٢ ، ١٩٨٤ ، ص ٣٥ .

للإنسان فيه غير دور التلقي والتسليم ، وإنما أصبح صعوداً أيضاً ، للإنسان فيه دور الإبداع ، هكذا بدل أن يستمر الدين غيباً يجب أن يخضع له العقل، أصبح غيباً يجب أن يخضع هو للعقل . أي لتجربة الإنسان وحياته ، فالدين للإنسان ، وليس الإنسان للدين »[١].

نفهم من هذا أن الإبداع وحركة التحول عند أدونيس – وهو من منظري الحداثة في العالم العربي – هي الثورة على الدين وإبطال النبوة وإخضاع الدين للعقل ، وعدم التسليم لنصوص الوحيين ، إنها الكفر بدين الله تعالى .

ثم يصرح بعد ذلك فيقول :

« ومن هنا نفهم طبيعة المواكبة بين الحركة الثورية والموقف النظري المتعلق بنفي الوحي وإثبات العقل ، كما تمثل عند الرازي وابن الراوندي ، فهذان يحرران الإنسان على أساس النظر العقلي ، والحركة الثورية تحرره على أساس النضال السياسي .

لقد نقد الرازي النبوة والوحي وأبطلهما ، وكان في ذلك متقدماً جداً على نقد النصوص الدينية في أوروبا القرن السابع عشر ، إن موقفه العقلي نفي للتدين الإيماني ، ودعوة إلى إلحاد يقيم الطبيعة والمحسوس مقام الغيب ، ويرى في تأملهما ودراستهما الشروط الأولى للمعرفة ، وحلول الطبيعة محل الوحي جعل العالم مفتوحاً أمام العقل ، فإذا كان للوحي بداية ونهاية ، فليس للطبيعة بداية ولا نهاية ، إنها إذن خارج الماضي والحاضر ، إنها المستقبل أبداً .

لقد مهد الرازي وابن الراوندي للتحرر من الانغلاقية الدينية ، ففي مجتمع تأسس على الدين ، باسم الدين كالمجتمع العربي لا بد أن يبدأ

---

(١) الثابت والمتحول ٢/٢١٣ .

النقد فيه بنقد الدين ذاته ، وطبيعي أن هذا النقد لا يجوز أن يكون هدفاً بذاته ولذاته ، وإنما يجب أن يكون وسيلة للهدف الأسمى : انعتاق الإنسان مما يفرّ به انعتاقاً جذرياً وكاملاً .

وهكذا اتحدت حركة التأويل ، أي تغيير المعنى القديم بحركة التثوير ، أي تغيير الواقع – الواقع القائم كتجسيد للمعاني القديمة »[1].

ويقول :

« والواقع أن التصوف من الناحية السياسية ، كان ثورة اللاتملك في عالم قوامه التملك ، القرمطية والصوفية تهدمان كل بخصوصيتها الإسلام السلطوي التقليدي ، الأولى تبني مجتمع الفقراء والاشتراكية ، والثانية ترفض الجماعية ، وتقيم الدخيلاء الذاتية ، القرمطية تجاوز لاقتلاع الفرد الذي يمثله الدين بشكله السلطوي ، والصوفية تجاوز لهذا الاقتلاع الذي يمثله الدين أيضاً بشكله الشرعي – الفقهي »[2].

وتأمل قوله – بعد أن تحدث عن فلسفات الرازي وابن الراوندي:

« .... هكذا يقدم الرازي وابن الراوندي أساساً عقلياً جديداً للحركات الثورية التحررية ، ولكل حركة تحررية على صعيدي النظر والعمل ، لقد كان فكرهما تأسيساً نظرياً للحرية ؛ ولهذا كان تمهيداً لتأسيسها تأسيساً عملياً في الثورة ... .

ومن هنا يذكر موقف الرازي بما يقوله (برودين) من أن الإنسان وجد ليحيا بلا دين أي بلا فكرة جاهزة مسبقة مطلقة أو غير مطلقة »[3].

ويشيد بالثورة القرمطية ، فيقول :

---

(١) المصدر السابق ٢/٢١٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١١ ، ٢١٢ .

(٣) المصدر السابق ١/٩١ ، ٩٢ .

« اتخذت الثورة شكلها التنظيمي الأكمل في الحركة القرمطية ...» [١].

ويقول :

« لقد أعطت القرمطية للدين وتعاليمه مفهوماً مادياً ، ففي حين كانت الدولة تقول عن الحقيقة : إنها بنت المطلق الثابت ، كانت الحركة القرمطية تقول بسلوكها وممارستها : إن الحقيقة هي بنت المتغير النسبي ، فأفكار هذه الحركة نتاج تاريخي في مرحلة محدودة ضمن انتماء طبقي محدد ، وهي تمثل تطلعات الطبقة المسحوقة » [٢].

ويقول الحداثي المصري جابر عصفور – أثناء حديثه عن حداثة أدونيس-

« لكي نفهم أدونيس ، ومع استبعادنا لثقافته الغربية ، ينبغي أن نأخذ فكرة عن نظرته إلى العالم ، فهو محسوب على فرق الشيعة ، ويؤمن هذا الفريق بالباطنية ، والصلة وثيقة بين الباطنية والفكر الصوفي ، فهو يرى أن أشكال الواقع الثابتة تتغير ، وهذا يتطلب شكلاً من أشكال اللغة المتغيرة ، أي إحداث ثورة في اللغة ، ويرى أن هناك أشكال وعي متخلفة لا بد من تغييرها عن طريق اللغة ، ولكن ما هي الأشكال الجديدة ؟ إنها غير معروفة ، إذن هناك عالم خاص بأدونيس قائم على التمرد ، ولكن لا يطرح بديلاً ... ، وهناك فرق بين البعد الصوفي عند أدونيس ، والبعد الصوفي عند البياتي » [٣].

وتتحدث خالدة سعيد عن زوجها أدونيس ، فتقول عنه :

« نشأ في بيئة دينية ، وتعلم منذ أن تجاوز الطفولة أشعار المتصوفين العلويين – كما يحصل لكل الشباب العلويين – { أي النصيريين }

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٤ .

(٢) نفسه ٢/٦٩ .

(٣) الشعر بين الرؤيا والتشكيل ص ٩١ .

، كالمكزون والمنتجب ، وقد بدا تأثره بهذا الجو في أطروحته التي قدمها لنيل الليسانس ، والتي كان موضوعها التصوف ، والبيئة في القرية العلوية البسيطة الحالمة الفقيرة بيئة مهيّئة لنشوء الروح الصوفية » [١].

ويتجلى الاتجاه النصيري الباطني في كثير من كتاباته وأشعاره، انظر مثلاً قوله – تحت عنوان « وحدة » :

« وحّدَ بي الكونُ فأجفانُهُ
تلبَسُ أجفاني ،
وَحّدَ بي الكونُ بحريّتي
فأينا يبتكرُ الثاني ؟ » [٢].

ويتحدث عن الصوفية الغالية ، ويقول عنها بأنها « أغنى تجاربنا الفكرية إطلاقاً ، في تاريخنا كله ، وواحدة من أعظم التجارب في تاريخ الفكر الإنساني » [٣].

ومن خرافاته في هذا المجال قوله :

« نعم أنا مسكون بالله ؛ فإن لدي ميلاً لأن أتوحد مع هذا السر الكامن في العالم » [٤].

وهذا الحداثي المغربي محمد عابد الجابري يدعو إلى إحياء الثورات والاتجاهات المعارضة ، ويعدّ الاهتمام بثورة الزنج ، وحركة القرامطة ضرورة أكيدة ، فهو يقول :

« لقد سيطر الاهتمام في الآونة الأخيرة على بعض المثقفين

---

(١) البحث عن الجذور ص ٩٢ .

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة ١/٧٩ .

(٣) ها أنت أيها الوقت ، سيرة شعرية ثقافية ص ١٥٨ .

(٤) مجلة المدى ع ١، ١/١/١٩٩٣م ، ص ٥٣ .

والباحثين العرب ببعض الثورات والانتفاضات والاتجاهات المعارضة ، التي عرفها تاريخنا ، كثورة الزنج ، أو حركة القرامطة ، وغيرهما من الحركات والاتجاهات التي قامت ضد الدولة .

ولا شك أن الاهتمام بهذه الجوانب المغمورة من تاريخنا ضرورة أكيدة» [١].

ويؤكد أدونيس بأن التيار الباطني والصوفي بدأ يظهر في فكر الحداثيين في الوقت الحاضر ، بيما كان يحارب سابقاً ، وذلك أثناء مقابلة معه قال فيها أدونيس :

« إذا لم يكن لدينا اليوم تيار باطني فهذا دليل فقر ثقافتنا ، وحاضرنا الفكري ، لكن هذا التيار بدأ يؤثر بشكل أو بآخر ، خصوصاً على الشعراء .

أنت تلاحظ أن التصوف كان تهمة في الخمسينات والستينات ، أي كان نوعاً من الجرم ، أما اليوم فهو ذروة ما وصل إليه بعض من أولئك الذين كانوا يصفونه بأنه جرم ، ومعنى ذلك أن التيار الصوفي أخذ في النمو» [٢].

وتحدث الحداثي البحريني علي الشرقاوي عن مدى تعامله مع التراث فقال :

« شخصياً تعاملت مع التراث من عدة زوايا ، التراث كأقنعة ، فاستخدمت قناع الخوارج والقرامطة ...» [٣].

---

(١) التراث والحداثة - دراسات ومناقشات ص ٣٩ ، وانظر : إشادته بالباطنية والفلاسفة في المصدر نفسه ص ٢٤٦ ، ٢٦٢ ، ٣٢٢ .

(٢) مجلة المنتدى ع ٨٧ ، ربيع أول ١٤١١هـ ، ص ٥ .

(٣) صحيفة الرياض ع ٩٠٦٨ ، ١٤١٣/١١/١هـ ص ٢٥ .

والناظر في فكر الحداثة وأقوال الحداثيين وأحلامهم وخيالاتهم وكشفهم يتبين له التماثل العميق بينهم وبين الصوفية وكشفهم وخيالاتهم [(١)].

فمثلاً الصوفية تعتمد الارتحال الدائم في سبيل الكشف ، كما أن التصوف اضطراب مستمر ، فإذا وقع السكون فلا تصوف .

يقول ابن عربي :

« الهدى هو أن يهتدى الإنسان إلى الحيرة ، فيعلم أن الأمر حيرة ، والحيرة قلق وحركة ، والحركة حياة ، فلا سكون ، فلا موت ، ووجود فلا عدم» [(٢)].

وهذه الحركة دائمة مستمرة ، لا تتوقف ، بل هي في تحول وتغير دائمين ، يقول ابن عربي :

« الحيرة قبل الوصول ، والحيرة في الرجوع ، فكيف لا تحار العقول والأسرار فيمن لا تقيده البصائر والأبصار» [(٣)].

وكذلك هي الحداثة تعيش في أحلام وأوهام دائمة ، وهي ارتحال لا يتوقف ، وتغير مستمر ، وكشف لواقع جديد ، كما أنها قلق وحيرة لا تنقطع .

ويستدل الحداثيون بأقوال الصوفية كثيراً ، ومن ذلك قول أدونيس عن الشعر من أنه لا يستطيع : « أن يتفتح ويزدهر إلا في مناخ الحرية الكاملة ، حيث الإنسان مصدر القيم ، لا الآلهة ، ولا الطبيعة ، حيث الإنسان ... ، (هو الكلي على الإطلاق والحقيقة) [(٤)] كما يقول محي الدين ابن عربي» [(٥)].

---

(١) راجع الثابت والمتحول ٣/١٦٦ - ١٦٩ ، ١٧٤ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، وانظر : ص ٤٦ ، ٥٨ ، ٢٣٦ ، من الشعر المعاصر لمحمد بنيس .

(٢) المواقف والمخاطبات ص ٦ .

(٣) اصطلاحات الصوفية ص ١٦١ .

(٤) إنشاء الدوائر ص ٢١ ، ٢٢ .

(٥) زمن الشعر ص ٤٣ ، وراجع حول هذا الموضوع : جدل الحداثة في الشعر ص ١٥٤ ، ١٦٠ .

لذا قال في ديوانه :

« لكنني محصّن بصوتي

محرّر

برفضي البارئ بانفجاري

كأني المَهبُ أو كأني البركانْ

باسم الغد الصديق

باسم كوكَبٍ

سمّيتهُ الإنسان ... »[1].

ويشيد أدونيس بالحركات الباطنية والاتجاهات الإلحادية فيقول :

« أما التمرد على الصعيد الثقافي العام ، فكان جذرياً ومتنوعاً ، يعارض إيمان بإيمان ، وحقيقة بحقيقة ، ثقافة بثقافة ... ، نشير هنا إلى الحركة الصوفية إلى الحلاج والنفري والسهروردي ، بشكل خاص ، نشير أيضاً بشكل خاص إلى جابر بن حيان ، وأبي بكر محمد بن زكريا الرازي ، وابن الراوندي ، وغيرهم من المفكرين والفلاسفة ، الذين ثاروا على التقليدية في الفكر الإسلامي ، وتردد في كتاباتهم القول بقدم العالم ، خلافاً للتعاليم الدينية ، وإنكار الخلق المستقل والنبوة والوحي ، وساد لديهم حب المعرفة للمعرفة ذاتها وحس البحث والثقة بالعقل الإنساني أنه قادر على اكتشاف الحقيقة بقوته هو ، لا تلقيناً ولا إيحاء .

ولعل أوضح ما يعبر عن هذه الثورة ضد ثبات القيم على الصعيد الثقافي هو الإيمان بالعقل إيماناً لا حد له ... »[2].

بل إن من دعوة الحداثيين القول بالاتحاد بالكون ، وهو قريب من

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة ٢/١١٣ .

(٢) زمن الشعر ص ٤٢ ، ٥١ .

عقيدة وحدة الوجود والاتحاد عند الصوفية ، فهذا أدونيس يحدد فكرة الاتحاد بالكون على أساس أنها « وسيلة لتخطي الكائن إلى عوالم ثانية خارج الحياة ، في مناخ الأحلام والأفراح والحسرات والمشاعر ، والرؤى الغارقة في قرارة الروح ... ، وفي هذا ما يفسر اتصالي بالصوفية ، حيث التجربة انبثاق كوني ، طوفان يغسل الواقع ، ويشيع الحياة والحلم والمادة ، فتصرخ الأشياء وتتآخى ، هكذا تؤلف الرؤيا الشعرية بين الأطراف ، وترد الكثرة إلى الوحدة فتتمازج أشياء العالم ، ويتوحد أيّ شيء مع أي شيء»[1].

« وعلى ذلك فإن ما يجمع بين الحداثة والتصوف – من خلال وحدة الوجود – هو الفناء في المطلق ، والتسامي فوق الحياة الواقعية المادية، والذوبان في كلية الوجود ...»[2].

يتحدث محمد العبدحمود عن دور الفلسفة والتصوف فيقول :

« وكان من آثار الفلسفة والمنطق أن دخلت الإصطلاحات والنظريات الفلسفية إلى الشعر ، فطلع علينا أبوالعلاء المعري بتأملات فلسفية في لزومياته ، وابن سينا بقصيدته العينية في النفس .

ومن الجدير بالذكر أخيراً أن الشعر الصوفي تضمن ظواهر جديدة مختلفة ، منها تغزل الصوفيين بالخمرة الإلهية ونشوتها وبالذات والصفات و اتفاقهم على مصطلحات مخصوصة ، استعملوها في شعرهم ونثرهم ، كذلك كان من نتائج الغيبوبة الصوفية أن أفضت بابن الفارض في التائية الكبرى ، والحلاج ، وابن عربي إلى إنتاج منطو على شيء من الغمغمة التي لا تفهم ، وهذه الغمغمة شبيهة جوهراً بالتعبير عن الحالة اللاواعية التي عني باستنباطها جماعة الرمزية ، فتلك ناجمة عن عجز التعبير

---

(١) خواطر حول تجربتي الشعرية ص ١٩٦ .

(٢) الإبداع ومصادره الثقافية عند أدونيس ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

أمام المشاهدة الكبرى ، وهذه عن الانطواء على خفايا الذات في ثنايا العقل الباطنة» [١].

ثم قال بعد ذلك :

« ومع ذلك ، ومع اصرار دعاة الحداثة على أن حركتهم منفصلة تماماً عن التراث ، فإن ما ذكرناه يمكن اعتباره بشكل أو بآخر جذوراً للحداثة نبتت في رحم التراث» [٢].

ثم يقارن بين نظرة الصوفية إلى الموت ، ونظرة الحداثيين إليه ، فيقول :

« رأقصى سعادة الصوفي أن يتمكن من جعل روحه تغادر جسده لتقترب من الذات الإلهية ، وهو يتمنى لو تطول هذه اللحظات ، ولكنه يعلم جيداً أنها ستطول يوماً عندما يعود جسده إلى التراب ، وتبقى روحه خالدة إلى الأبد ، قريبة من الذات الإلهية ، لذلك نرى الصوفي يغتبط بالموت فهو يخلصه من الجسد الذي يعوقه عن الاقتراب من الله ، وفي ذلك يقول ابن الفارض :

فالمـــوت فيـــه حياتـــي وفـــي حياتـــي قتلـــي

ولا شك أن المفهوم الصوفي للموت هو أكثر المفاهيم قرباً من نظرة المذاهب الأدبية الحديثة للموت .

فالموت بالنسبة للشاعر الرومانطيقي نهاية يتوق إليها ؛ لأنها تفتح له أبواب المغلق ، تكشف له أسرار الحب الصحيح ، الذي يفتقده في هذا العالم ، حيث لا يدوم حب ولا صداقة ، حيث لا رفيق سوى الوحدة والاغتراب ، فكأن الشاعر الذي يجسد أحلام البشرية وآلامها يجسد أيضاً غربة الإنسان وشعوره العميق بالوحدة في عالم يعج بالسكان .

---

(١) الحداثة في الشعر العربي المعاصر – بيانها ومظاهرها ص ١٩ ، ٢٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤ .

والشاعر الرومانطيقي حين لا يقصد بالموت موتاً فعلياً ، يعني به الموت الرمزي ، أو الموت عن العالم ، الذي يفرضه عليه تعبده لفنه ...» [١].

وعن الحداثة في المملكة العربية السعودية ، وتأثرها بالفلسفات الباطنية تحدث الناقد السعودي محمد عبدالله مليباري فقال :

« الحداثة في بلادنا ما زال لها وجود ؛ لأنها استطاعت أن تموه، بل تغالط الأفكار الشابة اليافعة ، بأنها ليست إلا حركة فنية أدبية محضة ، بل إن أحدهم أعلن منذ حين أن الحداثة تمت بصلة وثيقة إلى الفكر العربي ، أو الأصالة العربية ، كما قال ... .

إن الحداثة تمت إلى بعض الأفكار .. الملحدة ، التي يمثلها فكر ابن الراوندي ، الذي يؤمن بالعقل الرافض للنبوة ، وبأفكار الدرزية ، التي أخذت منها فكرة المستقبلية ، تلك الفكرة التي أعلن عنها أحد دعاة الدرزية في قوله بظهور حمزة بن علي أحد مؤسسي البدعة الدرزية ، «مبشراً بالجديد» أي المستقبلية [٢].

الحداثة تتصل بأفكار الحلاج الملحدة ، وبأفكار ابن عربي ، ووحدة الوجود ؛ لذلك أعلن ذلك الحداثي أن الحداثة تتصل بالفكر العربي ، وبالاصالة العربية ، معتبراً كل الحركات الباطنية الهدامة ، التي قامت ضد أهل السنة والجماعة ... أصالة فكرية عربية ، ولما أنه لا يستطيع إعلانه موّه ...» [٣].

ثم أكد أن الحداثيين « اتخذوا أبانواس ، وأباتمام ، وابن

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ . وانظر : القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه ص ١٥٣ – ١٦٣ ، وكذلك: تمهيد في النقد الحديث ص ٢٩٤ .

(٢) انظر : عقيدة الدروز عرض ونقض ص ٢٥٠ .

(٣) صحيفة الندوة ، ع ٨٤٨٧ ، ١٤٠٧/٥/٢٨هـ ، ص ٢ .

الراوندي ، والسهروردي ، والحلاج رموزاً حداثية ، تجد لهم ذكراً في كل كتبهم وكتاباتهم ، واستشهاداتهم التاريخية والفنية ، أو الفكرية .

وقد تسأل هل كان أبوتمام صاحب أيديولوجية ، وأقول لك : لا ، ولكنهم اتخذوه رمزاً ليستشهدوا باستعاراته اللغوية ، وتشبيهاته ، ومجازاته، التي يكتنفها لون من ألوان الغموض ، الذي هو نوع من أنواع السُّجف التي يخبئون وراء ها أفكارهم الهدامة» [١].

ويؤكد بكري شيخ أمين أثر الصوفية على بعض الاتجاهات الحداثية في المملكة العربية السعودية ، ويقول :

« وقد نقول : إن الرومانسية في الشعر السعودي ، بل في الشعر العربي عامة أثر من آثار الصوفية السلبية المتحكمة فى الشرق ...» [٢].

لذا شبَّه عبدالرحمن بن محمد الأنصارى الحداثيين بإخوان الصفا [٣].

ومن شدة تعلق أدونيس بالصوفية ، وحرصه الأخذ عنهم ، أطلق على مجلته التي يرأس تحريرها اسم (مواقف) ، تشبهاً بكتاب (المواقف والمخاطبات) للمتصوف محمد بن عبدالجبار بن الحسن النفري ، والذى أعجب به أشد الإعجاب مما جعله يقول عنه :

« لا أعرف كيف أصف دهشتي حين قرأته { أي النفري } ، أعرف أنني شعرت وأنا أقرأه أنَّ لما أقرأه فعل القتل : قتل معظم الشعر الذى سبقه ، ومعظم الشعر الذى أتى بعده» [٤].

---

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية ص ٣٨٧ . وانظر : التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية ص ٢٧٣ .

(٣) المجلة العربية ع ١٠٥ ، شوال ١٤٠٦هـ ، ص ٥٩ .

(٤) مجلة مواقف ع ١٧ و ١٨ ، ١٩٧١م ، ص ٦ .

والحداثي العراقي عبدالوهاب البياتي يتأسف على فقدان الحلاج وعذابه ويتحسر على محنة أبي العلاء المعري ، وسطر في ذلك كلمات كثيرة [١].

ويتحدث الحداثي المغربي محمد بنيس عن مصادر حداثة الحداثي المصري صلاح عبدالصبور ، فيقول :

« إن معجم صلاح ، مهما كان مشتركاً بينه وبين بعض الشعراء المعاصرين ، فإنه ما فتىء يسعى نحو تحقيق قراءته بالرجوع إلى الحياة اليومية ، والثقافة الشعبية ، والموروث الديني والصوفي ، والشعر الأوروبي الحديث ... .

إن هناك بنيات جزيئية يمكن رصد هجرتها إلى المتن المغربي ، منها ... ، اتساع البعد المعرفي ، الشعر العربي القديم ، الشعر الأوروبي الحديث ، الفلسفة ، التصوف ... » [٢].

ويذهب أدونيس إلى أبعد من ذلك فيزعم أن الحداثة الغربية أثر من آثار الصوفية الشرقية ، إذ يقول : « بودلير ، من صانعي الرؤيا الشعرية الغربية الحديثة ، إن فنّه الشعري يقوم في أجمل مناحيه على المطابقات ، وهي أصل مشرقي صوفي .

رامبو ، كمثل آخر ، إن أعمق ما في شعره هو صراخه بحنجرة الشرق في وجه الغرب ، بدءاً من قوله: الذات شخص آخر ، والتي هي تنويع على القول الصوفي : أنا لا أنا ، مروراً بتقاليد الأسرار وطقوسها ، وبإشراقاته رجاء الانخطاف ، وتحرير النفس من الجسد .

نوفاليس ، كمثل آخر في قوله : إن الشاعر يرى ما لا يُرى ، ويحُس بما فوق المحسوس .

---

(١) انظر : ديوان عبدالوهاب البياتي ٢/٩ وما بعدها .

(٢) حداثة السؤال – بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة ص ١٠٦ .

ما لا رميه ، في الكهانة والنرجسية والملائكية .

ونستطيع أن نضيف أيضاً الكوكبة التى توجه الحساسية الإبداعية في الغرب : هو لديرلن ، نرفال ، لوتريامون ، بروتون بسرياليات «التي هي عمقياً تجربة صوفية»[1].

وفي ديوانه (مفرد بصيغة الجمع) كلمات كثيرة يشيد فيها بالصوفي الشلمغاني وينقل كلامه ويتغنى به ، ومما قاله أدونيس :

« يقول الشلمغاني :

اتركوا الصلاة والصيام وبقية العبادات

لا تناكحوا بعقد

أبيحوا الفروج

للإنسان أن يجامع من يشاء ...»[2].

واشتهرت الرمزية والغموض والإشارة الخفية كثيراً عند الصوفية، فكان لهذه الأمور أثر فى رمزية الحداثيين وغموضهم ، وهذا ما بيّنه عبدالحميد جيده بقوله :

« إن الغموض في الأدب الصوفي هو أحد خصائصه الأساسية والرئيسية ، وهذا ما نراه ظاهراً وواضحاً في الشعر العربي المعاصر ، كما أننا نرى اللغة الحية والموحية والدالة عند الصوفيين هي لغة الباطن التي تعتمد على الرمز والإشارة والإيماء ، لغة الرؤيا الشاملة الكونية ، لغة الإبداع في كل زمان ومكان .

ولذا كانت الصوفية رافداً غزيراً ذا أثر كبير في شعرنا العربي المعاصر ، وشعرنا العربي المعاصر وما يعانيه اليوم من أزمة التوصيل

---

(١) بيان الحداثة – فاتحة لنهايات القرن ٣٢٥ .

(٢) مفرد بصيغة الجمع ص ٨٤ ، ٨٥ .

للناس لما يكتنفه من غموض يشبه كلام الصوفيين ، الذي كان موضع شكوى الناس من قبل» [١].

وكون الصوفية لها أثر واضح على الحداثيين في العالم العربي في مسألة الرمزية والغموض ؛ فإن هذا لا يعنى أن الصوفيه هي المصدر الوحيد لذلك ؛ فإن تلك المسألة اشتهرت عند الحداثيين في العالم الغربي ، وتأثر بهم فيها الحداثيون في البلاد العربية مع تأثرهم بما عند الصوفية .

ويدعو الحداثي المصري محمد عفيفي مطر إلى : « إعادة الاعتبار لعدد كبير جداً من النصوص الرائعة والعظيمة { كذا } ، في تراث النثر الصوفي» [٢].

وقد شرح الحداثي الفلسطيني يوسف سامي اليوسف بعض تلك النصوص الصوفية ، مبيناً أثرها علي الحداثة ، مستشهداً بأقوال محيي الدين بن عربي ، والحلاج ، وغيرهما من أئمةالصوفية ، ومثنياً على مواقفهم وعقائدهم كالاتحاد ووحدة الوجود وأمثالهما ، ومنتقداً من يخالف أو يثور على التراث الصوفي ، وإن كان من الحداثيين [٣].

ولأدونيس كتاب تحت عنوان « الصوفيّة والسُّوريالية» ، قارن فيه بين الاتجاه الصوفي الباطني ، والاتجاه السوريالي الحداثي ، مبيناً أنهما شيء واحد ، أو أنهما متقاربان إلى درجة كبيرة ، فالسوريالي يطلق عليه كثير من الحداثيين لقب الصوفي أو الباطني .

ويقول أدونيس في مقدمة هذا الكتاب :

« الصوفية والسوريالية عنوان قد يثير استنكاراً ، أو على الأقل

---

(١) الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢) الأدب العربي وتحديات الحداثة – دراسة وشهادات ص ١٦٢ .

(٣) انظر : في قضايا الشعر العربي المعاصر – دراسات وشهادات ص ٦٨ – ٩١ .

اعتراضاً ، ... . الاعتراض الأساسي الذي يمكن أن ينشأ هو أن الصوفية تديّن ، وأنها تتجه نحو الخلاص الديني ، بينما السوريالية حركة إلحادية ، ولا تهدف إلى أي خلاص سماوي ، فكيف الجمع بين متديّن وملحد ؟ ومثل هذا الاعتراض صحيح ظاهرياً ، غير أنه لا يلغي عمقيا إمكان التقارب ، أو إمكان التلاقي في نقاط عديدة ، على الطريق التي تسلكها ، معرفياً ، كل من الصوفية والسوريالية ، ثم إن الإلحاد لا يتضمن بالضرورة رَفْضَ الصوفية ، كما أن الصوفية لا تتضمن بالضرورة الإيمان بالدين التقليدي ، أو الإيمان التقليدي بالدين ... .

ترتبط كلمة صوفيّ بما هو خفيّ وغيبي ، والاتجاه إلى الصوفية أملاه عجزُ العقل والشريعة الدينية عن الجواب عن كثير من الأسئلة العميقةعند الإنسان ... هذا هو ما يولد الاتجاه نحو الصوفية ، وهو نفسه مما سَوّغ نشأة السوريالية ، فدعوى السوريالية الأولى في أنها حركة لقول مالم يُقَل ، أو ما لا يقال ، ومدار الصوفية كما أفهمها هو اللامعقول ، اللامرئيّ اللامعروف .

والهدف الأخير الذي يسعى إليه الصوفي هو أن يتماهى مع هذا الغيب ، أي مع المطلق ، ويهدف السوريالي إلى أن يحقق الأمر نفسه ...»[١].

والكتاب كله استشهادات من أقوال أئمة الصوفية والسوريالية ، في محاولة للتوفيق بينهما ، بل عدهما شيئاً واحداً .

وفي موضع آخر أكد أدونيس توافق الاتجاه الحداثي السوريالي أي مع الصوفية فقال :

« تؤكد السوريالية على الخيال وعلى اللاوعي ، أي على الباطن أو اللامرئي ، وهذا كله يتلاقى مع الصوفية ، أما الكتابة الآلية فأرى أنها

---

(١) الصوفية والسوريالية ص ٩ ، ١٠ ، ١١ .

ترادف مصطلح الشطح ، لأن مؤول هاتين العبارتين واحد ، فالشطح في الصوفية هو الحالة التي يكون فيها الصوفي مسيطراً كلياً على جسده ، أي على العالم الخارجي ، بحيث يشعر بأنه أصبح أشبه بحركة نورية تلتقي بجوهر العالم ، تصدر عنها هذه الكتابة المتحررة من رقابة العقل ، والكتابة الآلية في السوريالية هي هذا : هي أن تعطي الأولية لعفويتك خارج كل رقابة عقلية ، ... أنبه إلى أن علينا في قراءة الصوفية أن نتحرر كلياً من الفهم التقليدي السائد .

(الايزوتيرية) هي ما يعرف بعلم الأسرار ، ترجمتها من الفرنسية بالخفائية بمعنى أن العالم قائم على رموز وأسرار ، وهذه الرموز والأسرار لا يعرفها إلى أشخاص تهيأوا لذلك ، ويقوم هذا التهيؤ على نوع من التدرب أو الدربة ، ومصطلح (المريد) في الصوفية ليس بعيداً عن ذلك ، الدربة درب طويلة يسلكها صاحبها ، يسلكها (المريد) ، أو (العارف) ، أو (المتصوف) ، أو (الخفائي) إلى أن يصل إلى مرحلة يصبح فيها أشبه بضوء نوراني ، وهذا ما يصفه (الغزالي) نفسه ، المتصوف والمسلم المعتدل ، فيقول إنه يصل إلى نقطة يرى فيها الإنسان ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ، وهي تذكر بالنقطة العليا ، أو النقطة الأخيرة ، التي تقول بها السوريالية في المعرفة ، حيث يتطابق الإنسان والكون ، ويصبحان واحدا ، وهي ما يسميها المتصوفة المطلق ، في الصوفية يتوحد الإنسان والمطلق ، بوصفه الكون كله .

وفي السوريالية يتوحد الإنسان والكون في تلك النقطة العليا ، والمسألة ، كما نرى واحدة ، مع الخلاف في التسمية ؛ لأن المطلق بالنسبة إلى المتصوف ليس نقطة مجردة ، وإنما هو مبثوث في الكون ، والصبوة هي إلى الوحدة مع الكون ، أو مع ما تسميه الصوفية المطلق .. لكن هذه مجرد أسماء ، والمهم هو جوهر الكون»[1].

---

(١) مجلة الشروق ع ١١ ، ١٧-٢٣/١٢/١٤١٢هـ ، ص ٤٧ .

ثم بعد ذلك أثنى – كثيراً – على ابن عربي والنفري ، وعدهما من كبار المفكرين في العالم ، إضافة إلى دانتي ، وغوته ، وبودلير ، وطاليس ، وهوميروس ، وجلجامش [١].

وقد وجّه إلى أدونيس هذا السؤال :

« في فعلك الشعري ظواهر تسيطر عليها علاقات باطنية ، هل تدخل الباطنية في مصادرك ، وتعتبر جذراً في حلمك ؟»[٢]. فأجاب : « طبعاً ، يجب أنْ نميز بين الباطنية كحركة تاريخية ، والباطنية كموقف من العالم ، بالمعنى الأول لا علاقة لي بها إطلاقاً ، بالمعنى الثاني ، الباطنية تهتم بما تسميه (الحقيقة) مقابل ما تسميه (الشريعة) ، أي بلغة شعرية تهتم بما يتجاوز العادي ، وبهذا المعنى أنا متأثر بالباطنية .

والباطنية هنا تلتقي مع الصوفية ، وتلتقي كذلك مع السوريالية ، وأنا أعتقد أن على الشعراء السورياليين العرب أن يعودوا إلى هذه المصادر التي هي – دون شك – أكثر غنى من المصادر الغربية ، والباطنية بهذا المعنى أيضاً بحث لا ينتهي عن حقيقة متحركة لا تنتهي ؛ لذا فهي شعرية خالصة» [٣].

وفي أجوبة له أخرى قال :

« كشعر تعتقد الباطنية أن العالم معنى وصورة ، وأن غاية الإنسان ليست الوقوف على حدود الصورة ، أي عند حدود الخارج ، بل تجاوز الصورة إلى المعنى ، فإذا كانت تعامل الله بهذا الشكل ، فكيف بالوجود ، الوجود بالنسبة إليها هو هذا المعنى المستتر الخفي ، هو هذا المجهول ، هو هذا الذي يأتي باستمرار من المستقبل ، وهذا هو الشعر ...،

---

(١) انظر : المصدر السابق ص ٤٨ .

(٢) أسئلة الشعر في حركة الخلق وكمال الحداثة وموتها ص ١٣٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١٣٠ ، ١٣١ .

أعتقد هنا أن الباطنية ثورة عظيمة في الفكر الإسلامي » (١).

وفي موضع آخر امتدح بعض شعراء النصيرية ، وقال عن أحدهم ، وهو حسن بن مكزون ، : « المكزون شاعر ، بمعنى أنه أول شاعر عربي حاول أن يعبر عن الأيديولوجيا ، التي يؤمن بها شعرياً ، لقد وضع أيديولوجيته شعراً ، وهذه مهمة جداً في تاريخ الشعر العربي ، ...، الشعر عنده كتابة موفقة لشرح عقيدته» (٢).

ويعترف أدونيس أن الحداثة تنبع من نصوص التصوف ، فهو يقول :

« نستطيع أن نرى كثيراً من القيم الحضارية العربية مستمرة في الحركة الشعرية العربية الجديدة ، لكن هذه القيم لا تنبع من النصوص الشعرية بالمعنى التقليدي القديم ، بقدر ما تنبع من نصوص التصوف ، التصوف حدس شعري ، ومعظم نصوصه نصوص شعرية صافية ؛ ولهذا فإن القيم التي يضيفها الشعر العربي الجديد أو يحاول أن يضيفها ، إنما يستمدها من التراث الصوفي العربي ، في الدرجة الأولى ، ومن الممكن أن نوجزها فيما يلي :

١- تجاوز الواقع أو ما يمكن أن نسميه اللاعقلانية ... .

٢- الحدس الصوفي الشعري طريقة حياة وطريقة معرفة في أن ... .

٣- الحرية ... ، وهي في التصوف تصاعد مستمر نحو لا نهاية المطلق .

٤- التخييل ... ، فالتخييل هو رؤية الغيب ... .

٥- اللانهائية ، ليس هناك في الحدس الصوفي محدودية أو حواجز ، فالكون حركة لانهائية ... .

٦- معنى الحياة والموت ، لم يعد الموت نهاية ، وإنما صار باب

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢) نفسه ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

الحياة الحقيقية ، ولم تعد الحياة أن يعمر الإنسان طويلاً ، وإنما صارت أن يعرف ، الحياة اكتشاف ومعرفة ، والمعرفة لا تتم إلا بالموت ، أي بالاتحاد مع المطلق : بالعودة إلى الأصل ، فالموت إذن هو الحياة الحقيقية .

٧- يطرح التصوف فكرة الإنسان الكامل ...» [١].

ثم بعد ذلك قارن بين القيم الحداثية وهذه القيم الصوفية مبيناً مدى استمداد الأولى من الثانية [٢].

ويقول عبدالحميد جيدة :

« وحقيقة الأمر أن الرافد الصوفي صب في دائرة الشعر العربي المعاصر ، ولونه بلونه الخاص ، إن (النفري) و(الحلاج) و(ذا النون المصري) و(ابن عربي) وغيرهم أثروا في أدونيس والسياب والبياتي ، ونازك الملائكة ، وصلاح عبدالصبور ، ومحمد عفيفي مطر ، وفي معظم الشعراء الشباب ...» [٣].

ويقول صلاح عبدالصبور :

« بالأمس في نومي رأيتُ الشيخ محيي الدين
مجذوبَ حارتي العجوز
وكانَ في حياته يُعاين الإله
تصوُّريَ ، ويجتلي سناه
وقال لي : (ونسهرُ المساء
مسافرين في حديقة الصفاء
يكون ما يكون في مجالس السحر
فظنَّ خيراً ، لا تسلني عن خبر

(١) مقدمة للشعر العربي ص ١٣٠ - ١٣٣ .

(٢) انظر : المصدر السابق ص ١٣٤ - ١٤٣ .

(٣) الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر ص ٩٨ ، ٩٩ .

ويعقدُ الوجدُ اللسان ... من يبُحْ يضل
ومِتْ مَغيضاً .. قاطعَ الطريقْ ..)
ومات شيخنا العجوز في عام الوباء
وصدقيني ، حيث مات فاح ريح طيب
من جسمه السليب
وطار نعشه ، وضجت النساء بالدعاء والنحيب
بكيته ، فقد تصرمت بموته أواصر الصفاء
ما بين قلبي اللجوج والسماء
بالأمس زارني ، ووجهه السمين يستدير
مثل دينار ذهب
ومقلتاه حلوتان .. جرتان من عسل
عميقتان بالسرور
بياض ثوبه يكاد يخطف الأبصار
وقال لي – وصوته العميق كالنغم –
(يا صاح : أنت تابعي
فقم معي ..
رد مشرعي
فالأمر في الديوان — قُم !)
– يا شيخ محيي الدين إنني كسير
– لا يُكسَر الجناحُ ، يا إنسان ، والإنسان داء قلبه النسيان
– يا شيخ محيي الدين إنني صغير
– بل كلنا صغار .. الحبيب وحده هو الكبير
لم أدر كيف غاب